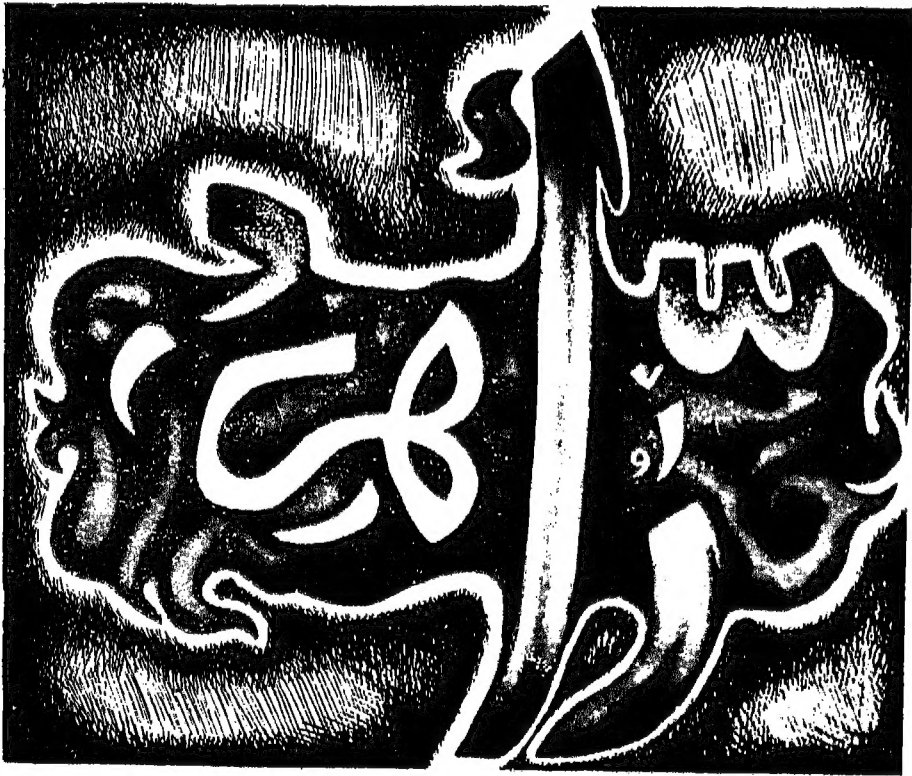


دكتور محمد حسين هيكل

ثورة الأدب



دار المعارف

اهداءات ٢٠٠١

الدكتور / القطب محمد طه

القاهرة

شورة الأدب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل -- القاهرة ج . م . ع .

الإهداء

إلى الشباب

رجاء الغد ، وأمل المستقبل

أهدي هذا الكتاب

هيكـل

تقديم

هذا الكتاب جديد قديم ؛ هو قديم لأن بعض فصوله نشر من قبل كما هو بعنوانه ، وبعضها نشر لم يغير منه إلا عنوانه . وهو جديد من ناحيتين : الأولى وحدة الفكرة التي تنتظم فصوله جميعاً ، والثانية أن بعض الفصول جديد لم يسبق نشره ، وبعضها مما سبق نشره زيد عليه أو حذف منه ما يجعله يتفق ووحدة الفكرة ، وبعضها ألف أكثر من جزء من عدة فصول نشرت . وهذه الأجزاء جميعاً تتسق من حيث الفكرة وتؤدي إلى الغاية التي وضع الكتاب من أجلها . فالكتاب إذن جديد قديم . وأحسب طابع الجدة فيه أغلب ؛ لأن الفكرة التي دعت إلى نشره لم تكن بارزة في أى من الفصول التي سبقت إلى نشرها بروزها فيه .

وقد اخترت له « ثورة الأدب » عنواناً بعد أن جال بخاطري قبيل طبعه أن أجعل عنوانه « نحو الأدب القومي » ؛ لأن فصوله الأولى جميعاً لا تتحدث عن الأدب القومي ، وإنما تتحدث عن هذه الثورات المتصلة التي شهدتها نصف القرن الأخير في شؤون الكتابة والأدب ، وتصف المجهود المتصل الذي قام به أصحاب المذاهب المختلفة في إقامة الأدب العربي الجديد . والواقع أن هذا الأدب العربي يضطرب بعوامل الثورة منذ الثورة العراقية في مصر ، ومنذ بدأ هذا الشعور القومي يحرك النفوس ويدعوها إلى التوجه نحو النهوض بمجموع الأمة إلى مثل أعلى . من يومئذ بدأت الكتابة تخرج من الحظيرة الضيقة : حظيرة الدواوين ، ومن النطاق المحصور : نطاق التعليم ، لتتصل بالناس على اختلاف طبقاتهم ، ولتصور لهم من

نواحي الحياة ما يريد الكاتب تصويره . وقد كان هذا العمل وما يزال شاقاً .
 فأي لغة يمكن أن تحقق هذه الغاية ويمكن أن تبقى مع ذلك على الزمان ؟
 ليست هي اللغة الدارجة التي يتكلم الناس بها ، لأن لكل إقليم لغة كلام
 تختلف عن لغة الإقليم الذي يجاوره ، وتكاد تنقطع الصلة بينها وبين لغة
 الإقليم الذي يبعد بعض الشيء عنه . واختلاف لغات الأقاليم التي تتكلم
 العربية يجعل من المحال وضع قواعد تنظم هذه اللغات المختلفة . ولغات
 الأقاليم لم يدون لها أدب له من الاحترام ما يجعل بعثه موضع فخار ومجد .
 فلا بد إذن من أن تكون اللغة العربية الصحيحة لغة الكتابة ولغة الاتصال
 بالجمهور . لكن هذا الجمهور لا يفهم عنك إذا خاطبته باللغة التي كان
 يتخاطب بها العرب الأولون . ولكن اللغة العربية هي كذلك لغة القرآن
 الكريم ، فكيف ترتفع بالجمهور إلى حسن إدراك لغة القرآن ؟ وكيف
 تقرب اللغة العربية إلى إدراك الجمهور ؟ . . . من الإجابات المختلفة عن
 هذين السؤالين نشأت ثورة الأدب خلال السنوات الخمسين التي انقضت
 حتى يومنا الحاضر . وفي خلال هذه السنوات الخمسين أخرجت الثورة
 صوراً من الأدب مختلفة في النثر والشعر ويدرسها بعض المستشرقين اليوم ،
 وهي جديرة بالعناية والدرس من كل مشتغل بالأدب ، معنى بتاريخ الكتابة
 العربية في العصر الأخير .

وكما أن الثورة العربية لم تنته إلى اليوم لأنها لم تحقق غاياتها ، كذلك لم
 تنته ثورة الأدب بعد إلى غاية . وكما أدت الثورة العربية إلى الاحتلال
 البريطاني لهذه البلاد احتلالاً اتجه بالثورة السياسية إلى ناحية جديدة ، كذلك
 اتجه هذا الاحتلال بثورة الأدب إلى ناحية جديدة انتهت عندها الصورة الأولى
 من الثورة ، صورة لغة الكلام ولغة الكتابة ، ولم يبق بعدها محل لبث
 أو جدل ، لم يبق البتة قائل باتخاذ لهجات الكلام أساساً للأدب ، وحل

محل ذلك ما سمي القديم والجديد في الأدب واللغة . وقد احتدمت معركة القديم والحديث هذه منذ سنين طويلة ، وتنقل المحاربون فيها في ميادين مختلفة .

كانت هذه الميادين قبل الحرب تتناول أساليب الكتابة وتتناول الألفاظ العلمية وغير العلمية ، كما كانت تمس في رفق صور الأدب وما يصح أن تكون عليه . وإلى يومئذ كانت الغلبة لأنصار تقليد الأدب القديم ، وكان السجع والإغراب في اختيار الألفاظ بعض ما يمتاز به كتاب العصر . وكان الأدب الغربي يومئذ جديراً بأن يسمى الأدب الكبير في النثر والشعر . فقد كان الأدب القصصي قد بلغ قمة مجده ، وكان كبار الشعراء قد أقاموا في ذلك العصر ما يقف إلى جانب الإلياذة والإنياذة في الأدب اليوناني ، وإلى جانب شعر فرجيل من أدب الرومان . وكان كثيرون من شبابنا الذين ذهبوا يطمون دراستهم في أوروبا يومئذ - سواء منهم من أوفدتهم الجامعة ومن أوفدتهم الحكومة من بعدها ومن ذهبوا يطمون دراستهم العالية - قد فتنوا أكبر فتنة بهذا الأدب الغربي الكبير . فلما آن لهم أن يعودوا ، وكانت الحرب الكبرى قد أعلنت أوقد انتهت ، كان هذا الأدب الغربي الكبير في أوروبا قد آن له أن يستريح بسبب انصراف النفوس في الغرب عنه . ويرجع هذا الانصراف إلى أن النفوس شعرت بعد الحرب بفراغ هائل فيها ، كما شعرت في الوقت نفسه باستهتار بالحياة أدى بها إلى التهالك عليها . وماذا تريد من الإنسانية خارجة من أفطع مجزرة شهدتها التاريخ بعد أن ظلت خلالها أربع سنوات تباعاً ترى الألوف ومئات الألوف والملايين يحصدهم الموت حصداً وهم في ريعان الفتوة وزهرة الشباب ! أية قيمة للحكمة في نظرها ولهذا القصد في الحياة نهل منها على مهل إذا كنا نجهل كل الجهل ما سنصير إليه في غدنا ؟ وهل سنظل في فتوتنا وقوتنا نستمتع بالعيش ونعيمه ؟ أم سنصبح لاشيء كما أصبح ملايين

غيرنا؟ إذن فعلى الحكمة وعلى العقل العفاء ، ولنترام بكلنا فى أحضان
المسرات ننال منها فى أقصر وقت أكبر حظ ما دمننا غير موقنين بأننا سنأخذ
حظنا منها كاملاً إذا نحن تناولناه على مهل وبمقدار ما تطيقه قوانا الإنسانية .
وكان من أثر هذه الحالة النفسية فى الأدب أن اضطرب كثير من الكتّاب
إلى إرضائها وإمتاعها بما تريد الاستمتاع به من شهوات صغيرة ولكنها
مختلفة متفرقة لأنها تقصد إلى إرضاء شهوات النفس جميعها . وهذا النوع
الصغير من الأدب هو الذى تهافتت الجماهير عليه ، لا قدرأً منها إياه ولا
إعجاباً منها به ، بل لأنه يسد مطامعها ونهمها للمتاع ، كما تهافتت على غيره
من بضاعة ربما كان فيها إضرار بها ، ولكنها تهافتت عليها لأنها تسد حاجتها
إلى نسيان آلامها وهمومها لتتمتع بسعادة مؤقتة زائفة ، ولكنها على كل
حال سعادة ربما لم يتح لها أن تنال غيرها قبل هذا الغد الذى ينجيها
ما لا تدرى - المرض أو العاهة أو الموت أو البؤس الدائم .

عاد الشبان الذين أتموا دراساتهم فى أوربا قبيل الحرب أو خلالها أو فى
أعقابها ممتلئة صدورهم إعجاباً بالأدب الكبير الذى قرأوا والذى شهدوا
على المسارح ، موجهة عقولهم توجيهاً جديداً على الطرائق العلمية الحديثة .
وعادوا فدخلوا الميدان بقوة ونشاط لم تر مصر مثلها من زمن غير قليل إلا من
أفراد قلائل موهوبين كان لهم أثرهم فى توجيه التفكير المصرى ، وفى مقدمتهم
المرحومان الشيخ محمد عبده وقاسم أمين ، كما كان من بعض أساتذتنا
من لا يزال أثرهم فى هذه الناحية متصلاً . وسبب قوة هؤلاء الذين عادوا
إلى الميدان ونشاطهم أن البعوث إلى أوربا لإتمام الدراسات العليا كانت قد
انقطعت زمناً غير قصير ولم تعد سيرتها الأولى إلا فى سنة ١٩٠٧ بفضل
الجامعة المصرية ، وقد تأثرتها فى ذلك وزارة المعارف فى السنة التالية . أما
ما قبل ذلك فقل من كان يسافر إلى أوربا للقيام بدراسات عليا متصلة .

والشبان الذين كانوا يقصدون مختلف الجامعات في فرنسا وإنجلترا كان أكثرهم ممن لم يلق نجاحاً في مصر فلم يستطع متابعة دراساته في مدارسها . فلما عادت البعث سيرتها وأوفدت الجامعة من أوفدت ، واقتدت بها وزارة المعارف ، انتقلت العدوى إلى بعض الأفراد القادرين فذهبوا يتمون تعليمهم ، وعادوا بعد إتمامهم إياه فنقلوا ميدان القديم والجديد في الأدب ووجهوه وجهة أخرى غير لغة الكلام ولغة الكتابة مما كان البحث فيه قد فرغ منه ، وغير أساليب الكتابة بعد أن أسبغ عليها امتياز شخصيات بعض الكتاب طابعاً جديداً نقلها من مجرد المحاكاة إلى بروز الذاتية . هذا الميدان الجديد الذى انتقلت المعركة إليه هو صور الأدب وما يجب أن تكون . لقد انقضى عصر المقامات والترسل في نظر هؤلاء المجددين فلا بد من صور جديدة هي صور الأدب القومي الكبير . هي القصة والأقصوصة ، وهي الشعر الوجداني والشعر التمثيلي . وقد أعان ثورة الأدب هذه أنها اقترنت بالثورة السياسية التي شبت في أثر الحرب الكبرى ، إذ بدأت في ٩ مارس سنة ١٩١٩ . ألم يكن المصريون يطلبون في ثورتهم هذه الاعتراف باستقلالهم وسيادتهم ويطلبون حياة سياسية وصورة من الحرية السياسية على مثال ما في الغرب سواء ؟ ! فلتكن مظاهر الفن والأدب مصبوبة عندهم في قوالب غريبة لتكون آية للناس جميعاً على تقدمهم وعلى أنهم يسبقون الغرب إلى مختلف ميادين الحضارة وقد يسبقونه .

ولم تكن ثورة الأدب هذه ليغيب عن الأذهان جلال خطرها ، ولم تكن أقل لفتاً لنظر الغرب من الحركات السياسية التي دمجها الطابع القومي والتي امتدت إلى بلاد الشرق جميعاً . ومهما يكن من غمر الحوادث لزعماء ثورة الأدب في ميادين السياسة فإن جهودهم ظلت تراقب وتحلل كأدق ما كانت جهود الزعماء السياسيين تراقب وتحلل . ذلك بأن الأدب واتجاهه

في أية أمة من الأمم هو العنوان الصحيح لحضارتها ، وهو القوة التي لا تستطيع قوة أخرى كبحها والقضاء عليها بالسهولة التي تقضى بها القوات المسلحة على الثورات السياسية . وإنما يقضى على ثورة الأدب باندساس عوامل تفسد توجيهها . ويخيل إلى أن مجهوداً كبيراً قد أنفق في هذا السبيل ، كما أنفق من قبل ذلك مجهود كبير للقضاء على حركة الإصلاح الديني التي بدأها المرحوم الشيخ محمد عبده ، والتي كانت جديرة بأن تتقى أعظم الثمرات . مهما يكن من أمر هذه الجهود فإن ثورة التجديد في الأدب قد ظفرت بالقديم وقد جرت إلى ناحيتها حراس حصونه حتى كادوا يسلمون إلى المجددين مفاتيحها . ولكن ما أنفق من الجهود التي هيأت الفوز فتح عيون أصحاب الجديد واسعة ، وجعلهم يتساءلون : إلى أين نذهب ؟ وإلى ماذا من جديدنا نقصد ؟

وقد كان طبعياً أن يقفوا هذه الوقفة ، وأن يطرحوا هذا السؤال . فالحضارة الإنسانية ثورة متصلة مظهرها الأدب والفن . ونحن في مصر وفي الشرق كانت لنا حضارات مختلفة انطوت ، ثم أخضعتنا الظروف لحكم الحضارة الغربية وقد قامت هذه الحضارة أول قيامها على بعث فلسفة اليونان وتشريع الرومان واتجاه الأدب الوجهة التي ترسمها هذه الفلسفة وهذا التشريع وما أحاط بهما في عصورهما من صور الفن والأدب . ثم جعلت أوروبا تستقر بحضارتها رويداً رويداً لتقيمها على الأساس العلمي الذي وضعه ديكارت في القرن السابع عشر ، ثم جعل هذا الأساس يتطور من بعد ذلك إلى دين الطبيعة وإلى فلسفة التجريد في القرن الثامن عشر ، ثم إلى العلم الوضعي والفلسفة الواقعية وإلى دين الإنسانية في القرن التاسع عشر ، وذلك كله من غير أن تنقطع الصلة بين هذه الحضارة وبين اليونان والرومان ، ومن غير أن تنقطع الصلة بينهما وبين المسيحية من ناحية أخرى . صحيح أن هذه الصلة كانت

صلة محاربة وهدم في أحيان كثيرة ؛ ولكن الحضارة الغربية لم تقطع ، ولا تستطيع أن تقطع صلتها بهذين العاملين اللذين أنشأها . والأدب الغربي المعبر عن هذه الحضارة لا يمكن أن ينسى هذه الصلة . وتستطيع أن تقرأ في الأدب الإنجليزي أو الفرنسي أو الألماني أو أى ما شئت من آداب الأمم الأوروبية ، وأنت دائماً واجد مظهر هذا الاتصال قويا واضحاً . فماذا عسانا نحن نصنع ؟ وإلى أى أدب وإلى أية فلسفة في الماضي القريب والماضى البعيد يجب أن نتسب إذا أردنا به أن يكون مظهراً لحضارة ما ؟ وقف المجددون هذه الوقفة ، وواجهتهم هذه المسألة ، فلم يتردد أكثرهم في الإجابة بأن ماضيهم هو الأب الطبيعي لحضارتهم ولأدبهم . أما القلائل الذين قالوا بالأخذ بالحضارة الغربية في كل مظاهرها وصورها على نحو ما فعل الأتراك فلم يجدوا لأقوالهم إلا صدى ضعيفاً زاده ضعفاً ما قدمنا من فتور النفس الغربية بعد الحرب عن الأدب الكبير . من هنا بدأت الصلة بين أنصار القديم وأنصار الجديد ، فبدأ هؤلاء يقبلون على تراث السلف ينقبون فيه بالوسائل العلمية الحديثة ؛ وبدأ أولئك يقرون هذا ويعتبرون في ثمرات الجهود التي يبذلها أنصار الحديث في بعث الأدب الجاهلي وأدب عصور الإسلام المختلفة بعثاً علمياً دقيق التحقيق خطوة موفقة في سبيل إعادة الحياة إلى حضارتنا الدفينة .

ولكن ! . . ما هي هذه الحضارة ؟ أعربية هي أم إسلامية ؟ سؤال وجه ، وكان المستشرقون أشد ما يكونون جذلاً بتوجيهه ، حتى لقد رأينا أخيراً طلاباً وطالبات غربيين يفدون إلى مصر وإلى مختلف جهات الشرق العربي يحاولون - فيما يقولون - تحقيق هذه المسألة ، يتصلون بكل من يتوسمون فيهم أنهم رجال الأدب الحديث ، ويلتمسون إليهم أن يدلّوهم على عقيدتهم العلمية في الأمر . وأشعر بأنني في حل من القول بأن هذه الطليعة

الغربية متجهة إلى مثل هذا البحث ربما شابتها غايات سياسة تسوّغ الاعتقاد بأن المسألة لم تثر للبحث العلمى وحده . وسواء أصبح اعتقادى هذا أم لم يصح ، وسواء أكان المقصود إثارة الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين من الذين يتكلمون العربية ، أم كان المقصود به ألا تقرن إلى الإسلام حضارة ما ، أم لم يكن المقصود هذا ولا ذلك وإنما المقصود البحث التاريخى التزيه . سواء أكان هذا أم ذاك فإننا نعتقد أن أية حضارة يجب لتقوم أن تتصل حتماً بعنصر من الإيمان .

وقد خيل إلى العلماء زمناً أن العلم سيغذى النفوس بهذا الإيمان ليقم دين الطبيعة على نحو ما حاول روسو أن يقيمه ، أو دين الإنسانية على ما وضعه أوجست كومت . لكن ما تم من محاولات فى هذه السبيل لم ينجح فى أن يقدم للجمهور الغربى ما يرضى تطلعه إلى رجاء أو أمل فى الطمأنينة والسعادة . ومن ثم انقلب هذا المجهود إلى الناحية المادية والاقتصادية ، وجعل منها كل رجائه فى الحياة ؛ فكان من ثمرة ذلك ما تعانى الإنسانية اليوم من شقوة وبؤس زادا فى إغراء الجمهور بالتشبث بهذا الأمل وهذا الرجاء . فالنفس بحاجة إلى رخاء فى غذائها الفكرى والعاطفى كحاجة الجسم إلى شئ من النعيم فى حياته المادية ، ولذلك اندفع فلاسفة الغرب وكتابه وأدباؤه يلتمسون هذا الغذاء النفسى فى أديان الشرق وصور الإيمان فيه . والأدب - بوصفه مظهراً للحضارة - لا غنى له عن تجلية جانب الإيمان فى النفس كما يجلو جانب العواطف المختلفة ، ولا غنى له عن أن يحلل هذا الجانب ويصف أثره فى الحياة . وجانب الإيمان فى بلاد الشرق العربى قوى أياً كان الدين الذى يدين هؤلاء الشرقيون به . وقد كان الإسلام ومازال دين أهل هذا الشرق العربى إلا الأقلين منهم ، فلا يمكن أن يؤدى الأدب رسالته إذا أهمل هذا الجانب القوى من جوانب حياة الشرق العربى ، وإذا لم يحاول

أن يصل ماضى هذا الشرق بمستقبله الصلة التى تستقيم مع التفكير الحديث . وقد تناولت هذا المعنى فى خاتمة هذا الكتاب عن الأدب والحضارة .

لم أغل إذن حين استقر رأيى على أن أتخذ « ثورة الأدب » عنواناً لهذا الكتاب . فالأدب فى ثورة متصلة بالفعل منذ نصف القرن الأخير ، ثورة توازى الثورة السياسية المتصلة فى مسيرها أيضاً ، وتعانى من صور الركود واليقظة والتقدم والتراجع ما تعانى زميلتها . لكن لا بد لى من التنويه بأن هذا الكتاب لا يصور جوانب تلك الثورة تصويراً كاملاً . وأحسب تصويرها فى دقة ، ما دام اتصالها غير ممكن ، هو بعد ليس من عمل رجل مثلى لم ينقطع له ، وإنما ألم بما ألم به منه فى أوقات فراغه . وقد تكون الفصول التى اشتمل عليها هذا الكتاب بعض هذه الثورة فى مختلف تطوراتها . ومن العسير على مشترك فى عمل من الأعمال أن يقوم بتقدير آثار هذا العمل تقديراً دقيقاً على نحو ما يفعل المشاهد المراقب .

وما دمت قد أشرت إلى ما بين ثورة الأدب وثورة سنة ١٨٨١ وثورة سنة ١٩١٩ من موازاة فلا مندوحة لى عن القول بأن عوامل السياسة التى حاولت صرف التيار السياسى فى نواح معينة قد حاولت مثل هذه المحاولة فى شأن الأدب والكتابة . ولقد أشرت فى هذا التقديم إلى ما بذل لهذه الغاية من جهود عاقت سير الحركة الأدبية وحاولت من غير نجاح كبير إفساد اتجاهها . وليس موضع تفصيل هذه الجهود هاهنا ، ويكفى أن أذكر ما كان من سعى متصل لجعل اللغة الدارجة لغة الكتابة ، وما كان من محاولة قطع كل نسب بين الحاضر والماضى ، ومن إظهار هذا الماضى فى صورة زرية غير جذيرة بالاعتداد بها أو باستلهاها . وقد وصفت فى الفصل الذى يلى هذا التقديم صورة ما يصيب الأدب فى عصور الطغيان . ولعل هذه الجهود كان يصحبها

من التوفيق أكثر مما صاحبها لو أن الإيمان بالحضارة الغربية بقى قوياً كما كان ، ولو أن الأدب الكبير عاون على بقاء هذه القوة . لكن ما أصاب الأدب الغربي في أعقاب الحرب مما وصفنا مضافة إليه نهضة مصر والشرق نهضة قوية ، جعل الجهود التي أنفقت لا تؤتي ما أريد منها من ثمرات ، وإن جعلها تحول بين ثورة الأدب والاستقرار إلى ناحية تطمئن إليها .

وأكبر اعتقادي أن هذه الثورة ستظل متصلة زمناً طويلاً . فنحن ما نزال من بعد في بدايتها . وحسن توجيهها في حاجة إلى جهود شاقة جبارة ، وإلى جود الطبيعة بالموهوبين الذين يستطيعون أن يطبعوا الأدب بصورة تدعو إلى استقراره . وهؤلاء الموهوبون وأولئك الذين يقومون بالجهود الشاقة لما يوجد منهم في الشرق العربي كله إلا عدد قليل . وبناء صرح الأدب على الصورة التي تدور في نفوسنا - ونرجو أن تراها أعيننا - في حاجة إلى كثيرين من هؤلاء المجاهدين والموهوبين . والقوى التي تعمل لتحول دون نجاح هؤلاء وأولئك ضخمة جبارة . فرجاء استقرار ثورة الأدب في زمن قريب فيه من التفاؤل ما نرجو ، وإن كنا نرتاب أشد الريبة فيه .

والآن أختتم هذا التقديم وأخلي بين القارئ وفصول الكتاب . ولعله يجد من نفسه الصبر على تلاوتها من غير أن تمله أو تدعوه إلى التثاؤب . ولعله أن يرى - إذا استطاع أن يتم قراءتها - أني لم أقم بمجهود عقيم حين فكرت في جمعها وتنسيقها ، ثم نفذت الفكرة وأظهرت الملأ على « ثورة الأدب » .

الطغاة وحرية القلم

في عصور الظلمة التي تمر بالأمم آنأ بعد آن يعتمد الباطشون البغاة إلى تقييد حرية القول والكتابة . وفي سبيل هذا التقييد يُصلون أرباب الأقلام حرباً لا رحمة فيها ولا هوادة : فمن إرهاب ، إلى سجن ، إلى نفى وتشريد . وهم في حربهم هذه يندفعون ضد الكتاب كاشرة أنيابهم ، محمارةً عيونهم ، مفتحة خياشيمهم ، أشبه الأشياء بالكواسر المفترسة حين يغريها منظر الدم فيهيج فيها كل غرائزها الوحشية . ولا يهدأ لهم من بعد ذلك بال ولا يطمئن لهم خاطر إلا إذا اطمأنوا إلى أنهم حطموا تلك الأقلام إلى غير عودة إلى الكتابة ، وأذلوا نفوس حملتها إذلالاً لا قومة لهم من بعده .

هذه الغرائز المفترسة التي تهيج في نفوس البغاة لحرب القلم وحملته ، لا تهبج فيهم لمحاربة أية قوة أخرى من القوى بالغاً ما بلغ أصحابها من العز والمكانة . والقلم ليس إلا تلك القصبة الضئيلة يسطر بها صاحبها ما يجول بخاطره وما يمليه خياله أو يتسق لمنطقه . وكل ما يسطره القلم إنما يسطره على ورقة رقيقة يتناوطا من الناس من شاء ، فيتلو ما فيها وله بعد ذلك أن يحتفظ بها إن شاء أو يلقيها إلى حيث شاء . والأمر كذلك سواء آكانت هذه الورقة صحيفة أم مجلة أم كتاباً من أى صنف من الكتب . فما عسى أن تنشر هذه الورقة حولها من القوة التي يخافها الظالم حتى يحشد لمقاومتها كل هذا الجند الذي يحشد ، ويسخر في سبيل محاربتها كل نظم الجمعية بأسمائها من قانون وعدالة وشرطة وسجون ومشائخ ، وما هو أكبر من ذلك من ألوان الإرهاب والإرهاب ؟ وهل انتصر الظالمون يوماً على القلم وأربابه ؟ أم

كان للقلم النصر دائماً آخر الأمر وباء مطاردوه بالخيبة والخذلان ، وخلفوا من ورائهم أسوأ الذكري وأتعس الأثر ؟

أما أن يحارب البغاة القلم وحرية أربابه فلهم في ذلك كل العذر . فحرية القلم هي المظهر الأسبى لحرية الإنسان في أسبى صورها ومظاهرها . وحرية القلم إنما تكون حيث يمسك بالقلم رب من أربابه لا عامل من عماله . رب تؤتية الطبيعة من قوة الخلق والإنشاء مالا سبيل إليه إلا في جو من الحرية المطلقة ، وتدفعه ليخلق هذه الحرية حوله خلقاً ولو ألقى به هو في غياهبات السجون ، بل تدفع ذكره لخلق هذه الحرية إذا هو غيب بين صفائح القبور . ونحن ما نزال نرى ثمرات الأقلام منذ آلاف السنين الماضية هي التي تهز العالم حتى اليوم هزاً ، وتنشئ فيه إلى اليوم وإلى الأبد أدانا من الخلق جديدة . ذلك بأن القلم هو الأداة لتصوير النفس الإنسانية في التماسها الحق والحرية والجمال والخير . والنفس الإنسانية التي تلتبس هذه النواحي المضيفة من حياة الكون هي دائماً نفس قوية لا تقف في وجهها حوائل القانون ولا العادة ولا الطبيعة نفسها ، نفس تخلق فوق الاعتبارات الكونية جميعاً لترى مكان الحق الذي تريد إيضاحه ، أو الحرية التي تريد نشرها ، أو الجمال الذي تعالج تصويره ، أو الخير الذي تعمل لبثه وإذاعته . فإذا اهتدت إلى ما ابتغت نفثت منه على القلم ما يسطره على الورق ، وإذا الذين يقرءونه يرون فيه جانباً من جوانب أنفسهم كان محجوباً عنهم ضياؤه ، ويرون أن هذا الضياء هو الذي يبعث لهم في الحياة نوراً يجعل الحياة أجمل وأسبى وأقوم ، وإذا هم ينصرون صاحب القلم إذ يتبعونه ، فإن لم يتبعوه حياً اتبعوه ميتاً .

هذه القوة التي تنبعث من القلم على صحف الورق لتنقلها إلى الإنسان هي أقوى وأبقى ما على الحياة من سلطان . هي قوة الإيمان القائم بالنفس

القوية التى متى امتلأت إيماناً فقالت للجبل انتقل من مكانك ينتقل . هى هذه القوة الإنسانية التى تصل بين الإنسان وقوى الكون العليا ، وتسمو به فوق مستوى الحيوانية حيث تكمن القوى المادية المضطربة التى يستند إليها الباطشون ويعتمد عليها البغاة . وما عسى أن تكون هذه القوة المادية ، وإن آزرتها الرماح والسيوف والبنادق وكل ما فى الحديد والنار من بأس وهول إلى جانب تلك القوة الكبيرة المستمدة من روح الكون كله والباقية على الكون متصلة غير منفصلة منذ أزل الكون إلى أبده ، هذه القوة الروحية الكبيرة التى يصدر القلم عنها وتوحى إليه ، هى مصدر الخلق والحياة ومصدر كل شيء فى الوجود بل هى التى تشكل تلك القوة المادية التى تناوئ الروح وسلطانها لكى لا يحترق الوجود من فرط ضياء الروح وحرارتها . وأى ضياء وأية حرارة أقوى من الحق والحرية والجمال والخبر جميعاً إذا تجردت مما يحول دون انبعاثها فى العالم ولم يقف عائق فى سبيلها فلم تبطل فى سيرها !

وكما أن حرية القلم هى وحى هذه القوى العليا ، فإن الطغيان منشؤه أخس غرائز الإنسان وأكثرها أنانية وانحطاطاً . فتش عن الطغاة فى التاريخ واستمع إلى كل ما يتشدقون به من الأقاويل والدعاوى وما يزعمونه من حبهم الخير لبنى الإنسان ، ومن سعيهم لذلك جهدهم ، تجدهم دائماً ينتمون إلى هذه النتيجة : إنما نطغى بنى الإنسان لأنهم من غير طغياننا يضلون . هذه النتيجة الكاذبة الحقيرة هى الكمينه دائماً وراء دعاوى الطاغية وأباطيله وزوره ، وهى عبارة مزوقة تستر وراءها أفظع الجرائم التى يرتكبها الطغيان . فالطاغية يقضى على حرية الناس ولو لم يقض عليها لضلوا . والطاغية يستنزف دماء الناس ولو لم يستنزف دماءهم لضلوا . والطاغية يرى المزيد من انتشار العلم ضاراً بالناس فليحجب العلم عن سوادهم . أو يضلوا . والطاغية

يعلم الناس كيف يفكرون وكيف يتكلمون ، فإن هم خالفوا تعاليمه ضلّوا .
والطاغية يصادر أموال الناس لبذخه وسرفه ، فإن لم يصادرها ضلّوا . والطاغية
يستمد الوحي في هذا كله من أحقر شهوات الأنانية التي يفرضها على الناس
ويريدهم على أن يؤمنوا بها ويصدقوها ، فإن لم يؤمنوا ولم يصدقوا حققت عليهم
كلمة العذاب ولهم سوء الدار .

هذا الضلال الذي يزعم الطاغية أنه يريد إنقاذ الإنسانية منه - وهو إنما
يردّها فيه لشهواته وأنانيته - قد تنوّه به الإنسانية زماناً يعثّم خلالاه على صدرها
الجهل والباطل والظلام ، فيمد للباغي في أسباب بغيه ، وهو ناشب في قلب
الإنسانية أظافره ما كَثّف الظلام حوله وما جاهد هو ليحول دون أن يخرق
هذا الظلام شعاع من نور الحق . وللطغاة في تكثيف الظلام الذي ينشرونه
حولهم أساليب عجب ، فهم يخلقون الطوائف يطلقون عليها أسماء أضدادها
ليسخروا من الناس وليزيدوهم ظلماً . يطلقون على طائفة اسم العلماء والعلم منهم
براء ، وكل الغاية التي تكلف هاته الطائفة بها إنما هي نشر الترهات وترويج
الأباطيل ومحاربة العلم الصحيح ، بدعوى أنه السحر أو الكفر أو ما شاء لهم
خيالهم المجرم . ويطلقون على طائفة الكتّاب ، وما هم بكتّاب ، وإنما هم
منافقون متملقون لا يعرفون غير المدح يكيلونه جزافاً لسادتهم ، وغير الطعن
الجارح يواجهون به من يعرف سادتهم منهم نزعة إلى الحق وإلى الحرية .
هؤلاء ليسوا كتّاباً وإنما هم كالكلاب تبصّب بأذنانها لمن يلقي إليها بطعام
أو بعظمة من العظام ، وتنبّح من يطلقها عليه صاحبها لتبّحه . وهؤلاء لن
يكونوا كتّاباً ولن يطلق عليهم هذا الاسم أو أى اسم يتصل به ؛ لأن الكاتب
تصدر عباراته عن قلبه وعن إيمانه ، أما المنافقون فتصدر كتاباتهم عن
بطونهم وعن شهواتهم الخسيسة السافلة .

وكما يخلق الطغاة من يسمونهم علماء ومن يسمونهم كتّاباً يخلقون

ما شاءوا من طوائف أخرى يطلقون عليها أسماء أضدادها ، وكل غرضهم من ذلك أن يزيّدوا الظلام الذى يعيشون ويكرهون الناس على العيش فيه كثافة وصلابة فإذا حاول أحد أن يسلط على هذا الظلام طبقات بعضها فوق بعض شعاعاً من النور يبدد منه ، فله الويل ، وله النكال ، وله عذاب السعير . والحجة القاطعة على صدق هذا التصوير للبيئة التى يخلقها الطاغية ليعيش فيها ، أنك ترى كل ألوان التكريم والإعزاز فى عهده تذهب إلى هؤلاء الذين يخلقهم لمحاربة العلم والنور ويسميهم باطلا العلماء والكتاب ومن إليهم من خلائقه . وعهد الناس بمن ينالهم إكرام الجماعة فى حياتهم أن تمتد كرامتهم إلى ما بعد موتهم . أما هؤلاء فأخّر كرامة تنالهم يوم يحتفل الطاغية وأنصاره بدفنهم . فى ذلك اليوم ينال التراب على صحيفتهم ، ثم يكون أكبر رجاء لدويهم من بعدهم ألا يذكرهم بالخير أو بالشر أحد . وأعتقد أن ليس ثمة ما ينقض من هذه الحجة حرفاً .

وإذا كنا بسبيل الكتاب ورجال العلم فإن المنافقين والمتملقين منهم ممن يظهرون فى عصور الطغيان هم على الإنسانية بلاء دائم وشر مستطير ، يفسدون الآداب والأخلاق ، ويعلمون الناس الكذب والنفاق ، وينزلون بأدب الكتابة إلى أحط درجاته ، وهم مع ذلك من الطاغية موضع إعزازه ، وإن شاب الإعزاز احتقار ، ثم هم لن ينزل بهم حيف أو ينالهم بسبب إفسادهم الخلق والآداب واللغة أى أذى . بل إنك لتراهم وهم حثالة السفالة المجسمة موضع الإكبار من بطانة الطاغية ؛ لأنهم يعتقدون أن فى الزلنى إليهم والقربى منهم وسيلة لاستفادة الجاه الكاذب والمال المسروق .

على أن الظلم وإن تكاثفت ، والمظالم وإن اشتدت ، والطاغية وإن استبد ، كل ذلك كان من أثره دائماً أن أثار شرارة الحرية والحق فهتكت ظلمته وبددت غياهبه . وكما تراكم السحب حتى تحت الشمس وتبعث على

الأرض من الظلمة ما تنقبض له النفس ثم إذا بالمطر يستنفد السحب ويجعل للنور من جديد منافذه ، كذلك ما تلبث هذه الظلم المتكاثفة في جو الطغيان أن تبعث إلى نفس ملهمة كلمة الحق ترتفع في صيحة قوية خالصة ، فإذا الظلم تضطرب قوائمه ، وإذا الطاغية يكفهر وجهه ، وإذا المظلومون تأخذهم رعدة الخوف إشفاقاً على صاحب الصوت وعلى أنفسهم ، ثم إذا الصوت يعلو وعلو ويرتفع ويرتفع ، وإذا القلوب التي وجلت من قبل رعباً وخشية تتفتح لهذا الصوت تستقبله فرحة مستبشرة ، ثم إذا هي تتبعه مؤمنة مقدسة ، ثم إذا النور نور الحرية والحق يعم الأرجاء ، وإذا الظلم والظالمون والطغيان والظغاة قد انقلبوا صاغرين عانية وجوههم للحى القيوم .

في العصور المختلفة جميعاً علت هذه الصيحة أول أمرها من جانب رب من أرباب القلم . ليكون نصير الحرية والحق خطيباً أو كاتباً أو محدثاً ، وليكن عالماً أو أديباً أو داعياً دينياً ، فهو يرسل بصيحته الضياء إلى النفوس المشتاقة إلى الضياء . وما تكاد هذه الصيحة تبعث حتى ينبت الظغاة إلى مصدرها ويقعدون خطرهما . وهم قد يجدون الوسيلة لمحاربة صاحبها كي يخمد صوته ولا يمتد إلى ظلماتهم التي خلقوا ضياؤه ، لكنهم لم يستطيعوا في حقبة التاريخ جميعاً أن يخفتوا هذا الصوت ، وأن يقضوا على هذا الضياء ما كان مصدره قوة ملهمة من قوى الحق السامية . ولقد عاش تولستوى في روسيا القيصرية يحارب بكتبه وبقصصه أفانين الظلم والإرهاب التي كان ينشرها حكاهم ذلك العصر ، ويعلى في الخافقين علم الحرية وينشر لواء الحق . وكان الحكم في روسيا قائماً على الاستبداد المطلق ، مع ذلك لم تستطع يد أن تمتد إلى تولستوى ولا اجترأت على أن تغض منه ؛ لأن ضياء الحق والحرية والجمال والخير أقوى من سلطان كل سلطان ، ولأن الظلم الذي يحل بأرباب القلم ممن ينصرون هذه المعاني يزيدها في

النفوس قوة وللظالمين مقتاً واحتقاراً .

وليس مثل تولستوى إلا واحداً من مئات من الأمثال . وأرباب الأقلام الذين اضطهدوا في عصور ماضية كان اضطهادهم من أقوى الأسباب في ارتفاع كلمتهم وذيوع صوته ومحبته وحسن استماع الناس لهم وشديد إيمانهم بآرائهم . وما تزال أسماء الذين اضطهدوا والذين عذبوا في سبيل نشر الحق والحرية خالدة على الزمان ، وإن درست أسماء الذين اضطهدوهم وعذبوهم ؛ فإذا جاءت إلى الأذهان أسماء الآخرين يوماً جاءت مقرونة بالازدراء والمهانة . ذلك بأن الذين جاهدوا لخير الإنسانية قد نسوا أنفسهم في الإنسانية فأحلتهم الإنسانية مكان الكرامة والإعزاز من قلبها . فأما الطغاة والمستبدون فلا يذكرون إلا أنفسهم ، ولا يفكرون إلا في أشخاصهم ، ويريدون من الإنسانية جميعاً أن تكون مجيبة إياهم لما تمليه أنانيتهم ، فإن هم لم تفعل أكرهت على ذلك إكراهاً واضطرت إلى أن تخضع له ذليلة صاغرة . وقد تصغر الإنسانية أحياناً أمام إنسان ينزل بها كما ينزل الوباء أو كما يدمرها الزلزال . لكن هذا الوباء والزلزال عارض لبقاء له . فأما الإنسانية فباقية خالدة .

وهي في خلودها تتمثل خير تمثيل في رب القلم . لذلك يمقت الطغاة هذا الذي يمثل الإنسانية ويدعو لحريتها وخيرها ويفتح أمامها باب الحق والجمال . ولذلك تكرم الإنسانية هؤلاء الذين ينسون أنفسهم في سبيل سعادتها وهدايتها ، وتنصرهم في حياتهم وبعد موتهم على الأنانيين الذين يحسبون أنفسهم فوق الإنسانية وفوق الحياة ، فتزدرئهم الإنسانية وتلفظهم الحياة . ولعل الأدب في مختلف صوره خير ما تتجلى فيه مواهب أرباب القلم . حقاً إن الفلسفة والعلم والتشريع وسائر ميادين الحياة في حاجة إلى رب قلم قدير يدفع تفكيره وتدفع ملاحظاته إليها قوة تكفل دوام تقدمها ، لدوام

حياتها . لكن الأدب بمعناه الواسع هو رحيق هذه جميعاً . هو رحيق الفلسفة والعلم والتشريع وسائر ميادين المعرفة الإنسانية . والأديب الجدير حقاً باسم الأديب هو الذى يستصفى هذا الرحيق بسمو عبقريته وقوة نبوغه . هو الذى ينبت من حقول العلم والفلسفة وما إليهما أزهار الأدب ، والذى يستخلص من مناجم التشريع ويستلهم من سماوات الفلك هذا النور الإنسانى الذى سارت الإنسانية وما تزال ولن تزال تسبر على هداه متوجهة نحو كمال الحق وكمال الخير وكمال الجمال . وهذا التوجه نحو الكمال هو الذى يرجّ قلوب العتاة والطغاة ، وهو الذى يجعلهم يحاربون حرية القلم ما استطاعوا . فهم يؤمنون بأنه لا نور ولا زهر ولا نبوغ ولا عبقرية إذا لم تكن هذه الحرية . لكن حربهم لها كانت دائماً حافزة إياها على القيام برسالتها العليا ، وإن لقي أصحابها فى سبيل إقرار هذه الرسالة ما لقوا من ظلم سائغ وعسف مستطاب . ولذلك كان النصر دائماً لرسالة الأدب ، وكان الفوز الأخير دائماً لحرية القلم .

ثقافة الأديب

هل الأدب العربى قديمه وحديثه يكفى وحده لتكوين الأديب ؟ هذا سؤال طرح وكان موضع بحث ومناظرة . ويجب قبل الجواب عليه أن نطرح سؤالاً آخر وأن نجيب عليه : فما الأدب ومن الأديب ؟ وإذا نحن وفقنا للإجابة عن هذا السؤال واتفق رأينا عليه لم يبق لخلاف ولا لمناظرة محل . وعندى أن الأدب فن جميل ، غايته تبليغ الناس رسالة ما فى الحياة والوجود من حق وجميل بوساطة الكلام . والأديب هو الذى يؤدى هذه الرسالة . فكل ما ينتجه فن الأدب الصحيح فى أية لغة من اللغات لاغاية له غير هذه الغاية ، وكل أديب يكتب فى أى باب من الأبواب إنما يريد بلوغها كلها أو بلوغ جانب منها . والأدب العربى لا يخرج عن أدب سائر اللغات فى هذا التعريف . .

ما هى وسائل عرفان ما فى الحياة من حق وجميل ؟ ما نحسب هذا محلاً لإثارة أى خلاف . فوسائل هذا العرفان العلم والفلسفة . العلم هو الوسيلة الأولى والأساسية والمستغنية بذاتها عن غيرها . والفلسفة هى الوسيلة الثانية المعتمدة على العلم لبناء مذاهب إدراك الحياة والوجود وما فيها من حق وجميل . وكذلك كانت الفلسفة وكان العلم فى كل العصور ، وكذلك كان العلم وكانت الفلسفة عند العرب كما هى عند سائر الأمم .

الأدب من الفلسفة ومن العلم كالزهرة الجميلة ، وكالثمرة الناضجة ، وكالخضرة النضرة من الشجرة الضخمة شجرة الفلسفة ، ومن الجذور التى نبتت عليها هذه الشجرة والتى هى بمثابة العلم من الفلسفة . فلكى تكون

حديقة الأدب جميلة ، ولكي يكشف الأديب للناس عما في الحياة من حق وجميل ، وليؤدى الرسالة العظيمة الملقاة على أدياء العصور جميعاً ، يجب أن يتغذى ما استطاع من ورد الفلسفة ومن ورد العلم . وهو كلما كان أكثر غذاء من هذين الوردتين كان أقدر على أداء الرسالة ، وكان أديباً حقاً .

ولهذا كان العرب يقولون : إن الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف . وكانوا إذ يذكرون العلوم الواجب على الأديب الوقوف عليها لا يقتصر على ذكر علوم اللغة والنحو والصرف والبلاغة ، بل كانوا يضيفون إليها علوماً كثيرة من سير العرب وأخبارهم ، أى من التاريخ ، ومن مواقع بلاد العرب ، أى من الجغرافيا ، وهلم جرا .

فن هذه غايته وذلك مداه يتسع لصور لا تتسع لها الفلسفة ولا يتسع لها العلم بمعناه الضيق . ففي الحياة وفي الوجود من صور الحق وألوان الجمال الشيء الكثير . وقل أن تيسر الأجيال للإنسانية الرسول القوى الصادق الذى يستطيع خلال السنوات القصيرة التى يحياها الإنسان ، وإن امتد به العمر ، أن يبلغ هذه الإنسانية رسالة الحق والجمال كاملة . لذلك كان الأدياء الخلقون حقاً بهذا الاسم هم الملهمون الفحول الذين يطبع كل منهم عصراً في تاريخ الإنسانية ويبقى فلذة خالدة برغم موت صاحبها من هذا التراث العظيم الذى تتوارثه الإنسانية جيلاً بعد جيل . هؤلاء الأدياء إنما يبلغون الإنسانية رحيق الفلسفة والعلم جميعاً على نحو ما تمثلت نفوسهم الفلسفة والعلم . وكلما انحدرت بعد ذلك لتطلع على ما خلف الأدياء العظام ، فالأدياء الكبار ، فالأدياء ، فالمتأدبون ، رأيت ضياء الحق والجمال يخبر رويداً رويداً حتى يصل إلى الأديب أو المتأدب الزائف الذى لا حياة ولا نور فيما يكتب ؛ إذ ليس فيما يكتب حق ولا جميل ، وإنما هي ألفاظ مرصوفة لا يقصد بها

إلى معنى خاص شأنها شأن تلك « البذلة » التي توضع في « فترينة التاجر على مثال خشبي سوي وجهه بالألوان ، لا يقصد بهذه البذلة إلى الاستعانة على الحياة ولكن يقصد منها إلى عرضها بضاعة في انتظار أن يتناولها من يستطيع أن يستعين بها على الحياة ، وأن يبعث إليها شيئاً من هذه الحياة . كتب فيشته الفيلسوف الألماني المعروف عن طبيعة الكاتب ورسالته فقال : « إنه إنما بعث ليقف على ما يستتر تحت ظواهر هذا الوجود من حقيقة ، ليرى هذه الحقيقة بنفسه ثم ليرينا إيها . وفي كل جيل جديد تتجلى هذه الحقيقة العليا في لهجة من لهجات الكلام جديدة . ورسالة الكاتب هي الكشف للناس عن الحقيقة بلهجة العصر الذي يبعث فيه » . ويشد فيشته حين يقصد إلى التمييز بين الكاتب الأصيل ، أو الكاتب البطل ، كما يسميه كارليل ، وبين آلاف الكتاب الكاذبين غير الأبطال : « فمن لم يكن يحيا لكشف الحقيقة كاملة فليستمتع ما طاب له المتاع بنعيم الدنيا ، لكنه لن يكون لذلك كاتباً ، وإنما هو أفاك مزور لا قدر ولا مقام له » .

والحقيقة التي يذكرها فيشته ، والحق والجمال اللذان نراهما غاية الأدب بوصفه فناً جميلاً ، ينكشف للناس من صورهما في كل جيل ما لم يكن معروفاً في الجيل الذي سبقه ، أو ما يختلف عما كان معروفاً في الجيل الذي سبقه ، وعلى ذلك كان الخلاف في صور أدب الأجيال المختلفة في اللغة الواحدة ، وصور أدب الجيل الواحد في اللغات المختلفة . ولذلك كان لا مفر لمن يريد أن يكون أديباً حقاً ، أديباً أصيلاً غير زائف ، من أن يقف على آداب لغته هو وقوفاً صحيحاً ، وأن يحيط ما استطاع بعلم عصره وفلسفته وآدابه في اللغات المختلفة . وكلما كان أكثر إحاطة كان أدنى إلى بلوغ ما في الحياة والوجود من حق وجميل ، وإلى تبليغه للناس في صورة أقرب إلى الكدال ممن أبقى . مثل مواهبه ولم يؤت مثل علمه .

هذه كلها أوليات ما أحسب لخلاف فيها محلاً . وهى تنطبق على الأدب العربى فى عصوره المختلفة ، وتدل على أن أدب أية لغة من اللغات قديمه وحديثه ، لا يكفى وحده لثقافة الأديب ، وعلى أن ذلك أصدق فى عصرنا الحاضر الذى قربت فيه المواصلات بين أمم الأرض منه فى العصور السابقة ، وأنه أصدق بالتطبيق على الأدب العربى قديمه وحديثه منه على آداب الأمم التى لم يصبها ما أصاب الأمم العربية من تحكم فيها واستبداد بها وفقاً سير العلم والفلسفة العربية سيراً كان يجعلنا من علم الأمم الأخرى وفلسفتها فى موقف تعاون وتنافس ، لا فى موقف تعلم ومحاكاة .

والآن فلنطبق هذه الأوليات على الأدب العربى نفسه فى مختلف عصوره : فهل كان الأدب العربى فى عصوره الأولى مستقلاً عن الآداب المجاورة له والمتنافسة معه ، وأجلها خطراً أدب الفرس والرومان واليونان ؟ يضيق المقام إذا أردنا أن نستقصى ما أفاد العرب ، وبخاصة منذ ظهور الإسلام ، من علوم وآداب كانت للبلاد التى اقتحموها فاعتنق أهلها الإسلام . على أنه لا يستطيع أحد أن ينكر أنهم فى عصور ازدهار الحضارة الإسلامية أيام الأمويين والعباسيين كانوا مجدين أعظم الجد فى نقل علوم الفرس واليونان والرومان وآدابهم من تلك اللغات إلى اللغة العربية ، وأن أكبر الكتاب كابن المقفع والجاحظ كانوا متأثرين بهذه الآداب تأثراً ظاهراً ، وكانوا يعرفون هذه اللغات أو بعضها معرفة صحيحة . بل إن ابن المقفع نفسه كان فارسياً ككثير من فحول الأدب العربى أمثال الهمدانى والزمخشري . والجاحظ مشكوك فى عريبته وإن تك معرفته للفارسية ليست محل ريب لما جاء عنها فى كتابه البيان والتبيين . وكثير من كتب الفلسفة اليونانية نقل فى عصر العباسيين إلى اللغة العربية ، وتأثر علماء العرب وأدباؤهم وكتابتهم بهذه الفلسفة تأثراً واضحاً . ولو أنك رجعت إلى المذاهب المختلفة فى التصوف والاعتزال وغيرها

لرأيت كثيراً منها يرجع إلى مذاهب كانت معروفة من قبل في الفرس ، وإلى مذاهب كانت معروفة من قبل في اليونان . وكان من أثر هذا النقل للكتب أن حدثت في الأدب العربي شعراً ونثراً ، صور لم تكن معروفة من قبل ، وأن اتسع أفق هذا الأدب العربي سعة لا عهد للمتقدمين بها . لقد تناول التطور ، الذى نشأ عن اختلاط العرب بهذه الأمم وبأهم شمال إفريقيا وبالأندلس وصقلية ، أساليب النثر والشعر ، فاستحدثت الموشحات الأندلسية واستحدثت في النثر شيء كثير ، وزادت بذلك ثروة اللغة العربية في ألفاظها وفي علومها وفي فلسفتها وفي أدبها زيادة هي في تاريخ هذه اللغة فخر نفاخر به نحن حتى اليوم .

حدث بعد هذه النهضة الكبرى أن تغلب الترك على غيرهم من الأمم الإسلامية ، وأن تقلص ظل الحضارة الإسلامية عن الأندلس ، وأن استقل الفرس ، وأن خمدت هذه الجذوة المقدسة من ضياء الحق والجمال مما كان ينير آفاق العالم الإسلامى في شؤون اللغة العربية . وفي هذه القرون الخمسة الأخيرة وقف اتصال اللغة العربية والعلوم والفلسفة والآداب العربية بغيرها من اللغات ؛ لأن حياة الأمم العربية وخضوعها للترك قضى بوقوف هذا الاتصال . وفي هذه القرون الخمسة الأخيرة كانت نهضة الغرب في العلم والفلسفة والأدب ، وكان أن استحدثت الغربيون من ذلك الشيء الكثير ، وأدخلوا على آدابهم من ألوانه ما لم يتطلع أهل هذه الأمم العربية الخاضعة للنير التركي إلى الاتصال به . فتدهور التفكير العربى ، وصار الأدب العربى القديم هو وحده الأثر الخالد لهذه الحضارة الإسلامية العظيمة التى سار في ضوئها وعلى هداها عدة قرون . ولولا ما فى اللغة العربية لذاتها من قوة قدسها القرآن الكريم وزادها جلالاً وإعجازاً ، ولولا ما كدست الحضارة الإسلامية من ثروة لم تنفذ ولا سبيل إلى نفادها ، إذن لرأيت اللغة العربية وقد أصابها

ما أصاب اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية والآشورية والهيروغليفية ، ولأصبحت اليوم لغة تاريخية مستقلة عن وجود هذا العالم وحياته ، لغة ندرسها للعلم بعصر من عصور التاريخ الإنساني وكفى .

لكن قوة اللغة العربية وثروة أدبها التي تكونت منذ الإسلام وعظمة الحضارة الإسلامية قاومت أحداث الدهر ودفعت عن اللغة هذا المصائب ، حتى دار التاريخ دورته وأن للغة العربية أن تنهض نهضتها من جديد . وكان طبعياً أن تبدأ النهضة بنشر اللغة وإحياء آدابها القديمة وتعليم الناس أصول التعبير بها ، ليتمكن بعد ذلك أن تنبعث حياتها قوية ، وأن يكون فن الأدب العربى بحيث يحيط بالحياة والوجود وما فيها من حق وجمال ، حتى تبعث الأقدار الأديب العربى الذى يؤدى لأهل كل عصر بلهجة العصر رسالة الأدب . ويرجع الفضل فى هذه الخطوة الأولى لشيوخ الأزهر بمعونة من أرسلهم المغفور له محمد على باشا إلى أوروبا للاتصال بموارد العلم فيها ، ولرجال مدرسة دار العلوم التى أنشأها على باشا مبارك منذ أكثر من نصف قرن للقيام ببعث اللغة العربية بعثاً جديداً . على أن اللغة ما كادت تبعث وما كاد الكاتبون بها يشعرون بالحاجة إلى انتشار فنون آدابها ، حتى رأوا إلى جانب الفنون القديمة فنوناً فى الأدب جديدة ، أحدثها بعث الغرب فى القرون الثلاثة الأخيرة لم تكن معروفة عند العرب ولا غير العرب من قبل ، ورأوا أن هذه الفنون الجديدة من الأدب تستند إلى فلسفة جديدة فى تصويرها أيضاً وإلى علوم اتسعت دائرتها وعظم نطاقها ، وأن لا بد إذن من الاتصال بالعلم والفلسفة فى آخر صورهما ، ليكون الأدب العربى مؤدياً إلى الغاية الصحيحة لأدب أية لغة من اللغات ، غاية تبليغ الإنسانية ما فى الحياة والوجود من حق وجمال بلهجة العصر الذى تعيش الإنسانية فيه .

وتجلت هذه الرغبة عند المتخرجين فى الأزهر وعند رجال دار العلوم

بقوة لا تقل عما تجلت به عند غير هؤلاء من المشتغلين بالأدب العربى والمتصلين فى الوقت نفسه بآداب اللغات الأخرى . وظهر ذلك فى حرص الأولين ، وهم ذوو الفضل فى الخطوة الأولى من سطى بعث اللغة والآداب العربية القديمة ، على الوقوف على اللغات الأوربية وتعلمها ، وفى حرصهم على نقل ألفاظ هذه اللغات الغربية وآدابها إلى اللغة العربية فى صورة عربية صحيحة . وأمضى من الأمثال على ذلك كثير . فأساتذة كلية الآداب فى الجامعة المصرية من الذين يقومون بتدريس الآداب العربية ، كلهم من ناشئة الأزهر أو دار العلوم أو القضاء الشرعى ، وكلهم قد شعروا بالحاجة ، بعد إتقانهم اللغة العربية ، إلى دراسة لغات أخرى ، ودراسة آداب أخرى ، سواء منها ما ترجم إلى العربية وما استطاعوا استيعابه بلغة غيرها وما هم أولاء الدكتور طه حسين وزملاؤه الأساتذة : أحمد أمين ومصطفى عبد الرازق وعبد الوهاب عزام ، هم جميعاً من أبناء هذه المدرسة - الأزهر - وهم اليوم جميعاً من الذين شعروا بالحاجة الماسة للاتصال بعلوم اللغات الأخرى وفلسفتها وآدابها ، ليكونوا لأنفسهم صورة صحيحة مما يحتويه الوجود من حق وجمال .

مثل آخر أضربه هو هؤلاء المشايخ الذين بدءوا يكتبون فى الأدب الحديث مكتفين بمطالعاتهم فى الآداب العربية ، ثم إذا بهم لا يجدون منصرفاً عن دفع أنفسهم إياهم لورد آداب اللغات الأخرى . فالمرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى بدأ يكتب « النظرات » و « العبرات » متأثراً إلى حد ما بما ترجم من القصص الغربى ، وإن جاهد ليظل فى كنف الأدب العربى القديم . لكنه ما فتئ أن اندفع إلى الاستعانة بالأدب الغربى ، فاستعان بمن يعرف هذا الأدب ، ويدله على ما فيه من صور الجمال ، ثم إذا به ينشر على الناس كتبه « ما جدولين » و « فى سبيل التاج » وغيرهما .

والأستاذ الزيات وغير الأستاذ الزيات من الكتاب الذين نهلوا أول حياتهم ورد الأدب العربى القديم خالصاً سائغاً لم يستطيعوا الاستغناء عن الوقوف على ما أحدثه العصر الأخير من الأدب ، ولم يجدوا الوسيلة إلى ذلك إلا عن طريق الأدب الغربى وما استصفى من العلم والفلسفة المتحكمين فى عصرنا الحاضر .

وهذا طبعى بعد الذى كان من تقدم العلم وتطور المذاهب الفلسفية ، وبعد الذى كان من إبداع صور الأدب الجديدة فى الغرب . ويطول المقام إذا أردنا تتبع هذه التطورات العلمية والفلسفية والأدبية فى القرن الأخير ، بله القرون الثلاثة التى سبقتة . ومن هذه الصور ما لم يكن له وجود فيه . ونكتفى من صور الأدب هذه بالإشارة إلى القصص والروايات المسرحية . فهذان النوعان لم يكونا معروفين بصورتها الحاضرة عند العرب ، مع أنهما اليوم يتناولان من بسط حقائق العلوم والمذاهب الفلسفية ما يجعلها فى متناول القراء جميعاً . ويجعلها كذلك فى صورة فنية بالغة الجمال . فهل يتسنى لنا إذا نحن اكتفينا بالأدب العربى القديم ، أن نبذل فى هذه الأنواع مثلما أبدع الغرب ، فنقرب بذلك العلم والفلسفة وما يحويان من حق وجمال إلى نفوس قراء العربية ، فنؤدى الرسالة الملقاة على عاتق كل كاتب جدير بهذا الاسم ؟

وليست القصص الطويلة والروايات المسرحية هى وحدها ما أبدع مما لم يكن العرب الأقدمون يقدرونه ، بل لقد أبدعت آداب اقتصادية كالآداب الاشتراكية والشيوعية وآداب المذهب الحر والمذهب الفردى لا سبيل إلى بسط شئ منها لقرائنا إلا إذا وقفنا على ما كتب باللغات الغربية عن المذاهب الاقتصادية من جهة وعلى آدابها من جهة أخرى . وأبدعت كذلك آداب علوم النفس والاجتماع وآداب الفنون الجميلة وغيرها مما لا نجد له مكانة فى الآداب

العربية القديمة ، وبما لا بد لنا ، إذا أردنا أن نقف إلى جانب الأمم الأخرى فيه ، من الاطلاع على آداب الغرب وفلسفته وعلومه اطلاعاً واسع النطاق . وما نحسب أحداً إلا يشعر بالحاجة إلى هذا الاطلاع كما شعر بها أولئك الأساتذة الذين أشرنا إليهم وكما شعر بها غيرهم . فإذا اطلع إنسان استطاع أن يؤدي رسالة الأدب على وجه صحيح ، وكان لذلك أدبياً أصيلاً . أما الذين يقفون عند الاطلاع على الأدب العربي فلن يستطيعوا مجارة هذا العصر مجارة تمكنهم من القيام بالرسالة الكبرى الملقاة على عاتق الأديب ، وسيظل أديبهم أدب ألفاظ لا تحمل في طياتها سنا المعاني السامية ولا ضياء الحق وبهجة الجمال وسيظلون أطفالاً في الأدب . ربما يعجب بعض الناس زخرف قولهم ، ولكن هذا الزخرف لن يعدو جماله أن يكون كجمال الدمية لا حياة فيها وإن أتقن صانعها رسم تقاطيعها .

وهذه الحاجة إلى الاطلاع التي يشعر بها كل محب للحقيقة ليس معناها الانصراف عن الأدب العربي قديمه وحديثه . فنحن في حاجة إلى التضلع من هذا الأدب ؛ لأنه هو الأساس الذي نبني عليه ونريد أن نبليج به الكمال . ولا سبيل إلى هذا الكمال إلا أن نفعل ما يفعله غيرنا من أهل الأمم السابقة اليوم في الحضارة . فإنك ترى قاموس اللغة الفرنسية أو الإنكليزية أو الإيطالية أو غير هذه من اللغات يعاد النظر فيه كل عقد من السنين لتحرى معاني الكلمات وهل اتصل بها جديد من المخترعات أو المكتشفات أو الآداب الحديثة ، وللنظر في إضافة كلمات جديدة . وكثيرون يعرفون ما دخل في اللغة وفي الأدب الفرنسيين من الألفاظ والعبارات الإنكليزية في هذا الزمن الأخير . فكلمة « جنتلمان » و « سبورت » وغيرهما قد أضيفت أخيراً إلى القاموس الفرنسي ، كما أضيف في العصور المتقدمة إلى اللغة العربية كثير من الكلمات الفارسية « كالورد » و « السلسيل » وغيرهما . وما دام هذا في

طبيعة اللغات وآدابها فلا معدى لنا عن أن نأخذ به ونحذو حذوه إذا أردنا للغة ازدياداً في القوة ، وللأدب تحقيقاً صحيحاً لرسالة الأدب .

قد يقال إن الأدب العربي الحديث يكفي لسد هذا النقص الذي أشرت إليه بما استحدث من صور الأدب الغربي التي أبدعت في العصور الأخيرة . ولشد ما وددت أن يكون هذا صحيحاً ؛ فهو لو صح لكان سبباً لفخر كثيرين من أصدقائي الذين أعزهم . ولكني وأصدقائي هؤلاء نشعر بأن في ذلك غروراً لا يليق بالأديب . فما استحدث في الأدب العربي ليس إلا محاولات لسد بعض الفراغ في تلك الهوة التي تفصل عصرنا عن عصور أدب العرب الزاهر . وهي محاولات شعر أصدقائي وشعرت أنا بنقصها منذ زمان طويل . فإني لأذكر أن مطالعائي العربية التي تناولت من كتب الأدب العربي القديم الشيء الكثير قد أقنعتني منذ عشرين سنة مضت ، وكنت ما أزال طالباً بالحنوق ، بأن أدب اللفظ وحده لا يمكن أن يبلغ بالإنسان إلى أكثر من طفولة الأدب في العصر الذي نعيش فيه ، فأكبت يومئذ على دراسات في الكتب الإنجليزية فتحت أمامي آفاقاً جديدة غير ما مهت به دراساتي . فلما سافرت إلى فرنسا بعد نيل إجازة الليسانس ودرست الفرنسية أكبت على آدابها في نواحيها المختلفة ، فإذا آفاق جديدة تتفتح ، وإننا بي أطل على صور من الحق والجمال لم أكن أتوهمها من قبل . وكيف يمكن أن يكتب الإنسان عن الفنون الجميلة كالحفرة والموسيقى والرسم وقد عفت آثار الموسيقى العربية ، وقد كان العرب ينكرون صناعة التماثيل وينكرون التصوير والرسم ! فإذا هو قرأ عن الفنون الجميلة شيئاً من ألوف الكتب التي ألُفبت فيها استطاع أن يفهم من جمال الحياة ما لم يكن له إلى إدراكه سبيل من قبل . وكذلك الأمر في غير الفنون الجميلة من العلوم والفلسفة الحديثة جميعاً .

وإلى أن ننقل هذه العلوم وهذه الفلسفة إلى اللغة العربية ، وإلى أن تكون لنا مذاهب في العلم والفلسفة والأدب تقف إلى جانب مذاهب الغرب - إلى ذلك اليوم لا يمكن أن تكفى الآداب العربية ، قديمها وحديثها ، لثقافة الأديب أما في ذلك اليوم فسيشعر أدباء العربية أنفسهم ، بدافع المنافسة وحب السبق في الوصول إلى الحق والجمال ، أنهم لا يقلون عنا اليوم حاجة إلى الاطلاع على كل ما يظهر في عالم العلم والفلسفة والأدب من جديد .

وسترداد هذه الحاجة كلما يسرت المواصلات اتصال أمم العالم . فإن أمكن أن يتوهم الإنسان ، مجرد توهم ، إمكان استقلال حي من الأحياء ، سواء أكان هذا الحي أمة أم فرداً ، عن غيره من الأحياء في شؤونه المادية أو العقلية أو النفسية ، فإن مجرد هذا التوهم اليوم مستحيل لكثرة الاتصال بين أمم العالم بعضها والبعض الآخر ، وهو سيزداد كل يوم إمعاناً في الاستحالة . وسيرى الأدباء يومئذ أن الشاعر أو الكاتب الذي يريد أن يخطو بالأدب العربي إلى مراتب الكمال الفني مضطر ولا بد إلى الاطلاع على أكثر مما اطلع عليه أدباء جيلنا الحاضر جميعاً إذا هو كان جديراً حقاً باسم الكاتب أو الشاعر ، حريصاً حقاً على أداء رسالة الأدب السامية بالكشف للناس من طريق اللغة عما في الحياة من حق وجمال ، وبالتمهيد بذلك لبلوغ درجات الكمال .

اللغة والأدب

حضرت يوماً مجلساً ضم جماعة من كبراء مصر بينهم فحول من الشعراء وكبار من الكتاب وأساتذة من المشايخ الضليعين في اللغة . وفيها ينتقل الحديث من موضوع إلى موضوع سأل أحد الحاضرين شيخاً لغوياً : أى الشعرين يفضل ، الشعر القديم الذى اتخذ عنواناً له « قفا نبك » ، أم الشعر الحديث وعنوانه « حف كأسها الحبيب » ؟ فكان جواب الشيخ على الفور : إني لأفضل الشعر الحديث فهو أعذب مدخلا إلى النفس ، فأما الشعر القديم فحاجتنا إليه للغة أكثر من حاجتنا إليه للأدب .

وأثار هذا الحديث جدلاً هادئاً لم يطل أمده ، ولا يستوقف منه النظر شىء خاص في البحث الذى أريد أن أعرض الآن له . وإنما استوقفت نظري هذه التفرقة الجميلة الدقيقة بين اللغة والأدب . فنحن في حاجة إلى الوقوف على أدب الجاهلية وعلى أدب الصدر الأول للإسلام ، وعلى كل أدب سبق عصرنا ، لتبقى حياة اللغة متصلة على العصور ، ولنجد في هذا الأدب القديم من تاريخ اللغة وأدبها وصور تطورها مالا غنى لنا عنه إذا أردنا أن نظل اللغة في تنقلها على الأجيال قوية رصينة بعيدة عن أن يندس إليها عامل من عوامل الاضطراب والضعف . فأما الأدب من حيث هو رحيق الحياة العقلية والفنية وما تنطوى عليه من مختلف الصور والألوان ، فتابع في تطوره للعصر الذى يعيش فيه غير مضطر أن يتصل بالقديم النائي عنه بأكثر من صلة الوراثة ومن صلة اللغة . واللغة في الأدب ليست إلا الكساء الظاهر لهذا الرحيق الذى يعبر الأدب عنه . فأما قوام الأدب قى الروح الذى يلهم مافيه من

معان وصور وعواطف وإحساس . لهذا تراك إذا عرفت لغات عدة فقرأت فيها صوراً مختلفة من الأدب ، لم يكن اللفظ هو الذى يقلقك عنده ، بل كان ما يدل هذا اللفظ عليه وما يعبر عنه . وإذا كان اللفظ لذاته ذا قيمة فى الأدب من حيث موسيقاه وما تهز هذه الموسيقى النفس وما تعد العواطف لاجتماع المعانى التى ينطوى عليها ، فلن يسمو هذا اللفظ بالغاً ما بلغ رنينه ورسائته بمعنى غير سام ، وإن أمكن أن ينزل اللفظ المبتذل والناشر الرنين بالمعنى السامى أو الصور الجميلة ، أو يترك على الأقل من سوء الأثر فى النفس ما يجعلها تأسى . وتأسف ألا يكسو المعنى الجميل لفظ جميل .

أنت إذن فى حاجة إلى إتقان دراسة اللغة وتاريخها فى المعاجم وفى كتب الأدب إذا أردت أن تكون لغوياً وكفى ، كما أنك فى حاجة إلى هذه الدراسة إذا كنت ممن منحوا هبة الأدب . فكلما زادت ثروتك من الألفاظ ومن أساليب استعمالها وما يمكن أن تعبر عنه من مختلف المعانى لذاتها أو مضافة إلى ألفاظ غيرها ، ازدادت أنت قدرة على اختيار اللفظ الذى يصلح للتعبير عن قصيدك تعبيراً دقيقاً وموسيقياً معاً . وهذا هو الذى يدعو الأمم الغربية المستمدة لغاتها من اللاتينية واليونانية إلى تدريس هاتين اللغتين للنشء . فليس جمال هذه اللغات القديمة الميته هو الذى يقصد لذاته أولاً وبالذات . كلا ! وإنما يقصد من دراستها إلى دقة إدراك المعانى التى تعبر عنها الألفاظ المشتقة منها . ومهما تكن آداب اليونان والرومان قد أمدت البعث الأدبى فى أوروبا إبان القرن السادس عشر بصورها وموضوعاتها ، فإنما كان ذلك لتحكم الآداب الدينية فى العصور التى سبقت عصر البعث ذاك ، واحتياج الناس فيه إلى وحى جديد . ولم يكن يومئذ خيراً من هذه الآداب القديمة مهبطاً للوحى ومحللاً لإلهام شكسبير وراسين ودانتى وغيرهم من الذين قام هذا البعث على نبوغهم . لكن هذه التبعية أو هذا الرق للأدب القديم لم يدم طويلاً . وفى

القرن السابع عشر نفسه قام شعراء أمثال موليير ولا بروفير نزعوا غير نزعة العصر ، وأنشأوا أدباً مستقلاً عن أدب اليونان والرومان وإن حذقوا اللغتين اللاتينية واليونانية خير حذق ، ليحيطوا بلغتهم الفرنسية إحاطة كاملة دقيقة . وما كاد القرن الثامن عشر يتنفس فجره حتى تنفس عن فولتير وروسو وديدرو وغيرهم من الكتاب الذين نزعوا أثواب أثينا وروما وارتدوا ثوب عصرهم ، ومهدوا للأدب الغربى أن يستقل بنفسه عن الأدب القديم . ومع هذا الاستقلال التام فى أدب الغرب ما تزال اليونانية واللاتينية تدرسان لغة وأدباً لتبقى حياة اللغات المشتقة منهما متصلة على العصور حتى لا يتندس إليها عامل من عوامل الفساد والضعف . وإذا كانت لغتنا اليوم وستبقى أبداً هي اللغة العربية ، وكانت دراستنا إياها أجدى علينا وأحفظ لكياننا ، فإن كثيراً من ألفاظ هذه اللغة العربية قد أصبح بائداً أو فى حكم البائد ، لأن أطوار الحياة التى مرت بالأمم التى أصبحت العربية لغتها جعلت هذه الألفاظ القديمة غير صالحة لأداء المعانى التى تداولتها عصور فجر الإسلام والأمويين والعباسيين والفاطميين والأندلسيين وغيرهم ممن تطورت حضارة العالم بعملهم تطوراً عظيماً . مع هذا فدراسة تلك الألفاظ البائدة نفسها تفيد من جهة لغوية بحثة ، وقد تفيد الأديب فى دقة تحديد المعانى التى تعبر عنها ألفاظ أخرى مشتقة منها أو كانت بينها وبينها فى بعض العصور صلة لغوية من أى نوع من الأنواع .

على أن دراسة اللغة هذه لا تتصل بالأدب لذاته إلا من حيث هي كساء الأدب على نحو ما قدمنا ، وبمقدار حاجة الأدب إلى هذا الكساء . صحيح أن الكساء كان له فى بعض الأزمان المقام الأول . وما تزال طبقات الناس إلى وقتنا الحاضر تتميز بأرديتها . وصحيح كذلك أن اللغة بوصفها كساء للأدب ، كانت فى بعض الأزمان صاحبة المقام الأول عند الأكثرين ، وأنها ما تزال

ذات أثر لا سبيل إلى إنكاره . لكن صلتها بالأدب من هذه الناحية تتطور تطور صلة الأزياء بأقدار الناس في الحياة . وصلة الأزياء بالأقدار تتلاشى رويداً بما تترع طبقات الجماعة كلها نحوه من البساطة في اللباس بساطة يمتاز فيها الذوق على قيمة الثياب ، حتى لرى أكثرها أخذاً للنظر أشدها نعمة عن الحياة ودقائقها . كذلك تطورت لغة الأدب ، فصار أجدرها بالامتزاج بالأدب ما كان شفافاً عن المعاني والصور التي يعبر عنها ، معاوناً على زيادة ما في هذه الصور والمعاني من حياة وموسيقى . هذه اللغة الشفافة المضئية السائلة التي لا تحجب عنك جمالاً مما أراد الأديب الموهوب إظهاره ، ولا تقف في سبيل متابعتك الأديب في أثناء تدفقه واندفاعه في تفكيره أو تصويره أو تغنيه وشده ، هي التي تعتبر للأدب كساء وتتصل بالأدب في كسائها إياه ، حتى لتصبح جزءاً من رحيق الحياة الذي يعبر الأدب عنه . وهي كلما لطفت وازدادت بساطة وشففت بذلك عن كل ما أراد الأديب أن يحملها إياه وكانت في ذلك النغمات الصادرة عن نفس الأديب الصادقة التعبير عنه ، كانت ألصق بالأدب في العصر الذي يصدر هذا الأدب عنه .

الوصول باللغة إلى هذه المكانة ليس بالأمر اليسير . بل هو يحتاج إلى جهاد الأدباء جهاداً عنيفاً شاقاً يتناول كل نواحي الحياة ويتناول كل ناحية منها في مختلف صورها . وأدباء عصرنا الحاضر لا يجدون من أدوات هذا الجهاد في الأدب القديم إلا ما قدمنا من ضبط اللغة ، وإلا نظرات عامة للحياة قد تبلغ غاية الجمال ولكنها لا تغني كثيراً في عصرنا الحاضر . والواقع أن الأدب القديم كالأزياء القديمة كان يعتمد على ثروة اللفظ وصور البديع فيه كما تعتمد الأزياء القديمة على نفاسة القماش وكثرة حواشيه . وأنت إذا ذهبت اليوم إلى مسرح من المسارح تمثل فيه قصة من قصص العصور الماضية

ويظهر فيها الممثلون بأزياء تلك العصور ، رأيت على المسرح أكواماً من أقمشة غالية تحيط بها أشربة ودنتلات وغيرها من أسباب الزينة ، ورأيت فوق ذلك شعوراً صناعية مزينة أيضاً ، ورأيت دونه أحذية تكاد لكثرة ما يرصعها من الأحجار الثمينة تنكر أنها أحذية . وهذا كله يذهب ويحجى على المسرح ، ويطل من خلاله وجه سيدة أو رجل هو وحده الذى يدلك على أن هذه الكومة النفيسة تحتوى فى أعماق داخلها حياة إنسانية هذا الوجه مظهرها . . ما صورة هذه الحياة ؟ ما حقيقتها ؟ أجميلة هى أم قبيحة ؟ أجذابة هى أم ثقيلة ؟ أنت لا تستطيع أن تحكم ، لأن اللباس وحده هو المتحرك أمامك ، ولأن الوجه الذى عرفت منه أن ماترى إنسان ، وأنه رجل أو امرأة ، قد كسى هو أيضاً بأصباغ وألوان أخفت معالمه ونكرت معارفه ، ولأن التحيات والعبارات والأفكار لا تصدر عن أصحابها ، وإنما هى صيغ حفظوها من صغرهم وخضعوا فيها لبيئتهم . فحياتهم ليست لذلك حياتهم ، وإنما هم صور متحركة مختفية خلال نفائس الأقمشة وألوان الزينة مما ترى وما قد يفيدك كثيراً أو قليلاً عن حياة ذلك العصر ولباسه ، ولكنه لا يفيدك شيئاً عن الشخصية الإنسانية التى يصدر عنها الفن والأدب ، والقديرة وحدها على استخلاص ما فى الحياة من رحيق هو إكسير ما فى الحياة من جمال .

قارن بين هذا الذى رأيت على المسرح ممثلاً عصرًا مضى وبين أزياء الحياة الحاضرة ومختلف مظاهرها ، تجد البون شاسعاً ؛ فالحضارة الإنسانية اليوم تنزع إلى البساطة وإلى الصحة وإلى حكم الإنسان حياة الوجود بكل ما تمكنه قواه ومواهبه ، وإلى ظهور الذاتية الإنسانية خلال ذلك كله ظهوراً قوياً واضحاً . فلم يبق شخص الإنسان كومة من النسيج النفيس تزينها الأشرطة والدنتلات وتحملها الأحذية المرصعة ، وتكسو أعلاها شعور مستعارية ،

وتطل من خلالها صورة وجه إنسانى مختلف تحت الأصباغ والألوان ، بل أصبح اللباس من البساطة بحيث ينم عن خطوط الجسم وحركاته ويشف عن الحياة الإنسانية حتى لقد كاد يصبح بعضاً منها ، وصارت الحياة الإنسانية كذلك هى موضع الجمال لا اللباس الذى يكسوها . وبمقدار ما يعبر الزى عن الحياة يكون أشد للنظر استرخاء وأقوى عن جمال الحياة تعبيراً . وببساطة الناس فى اللباس بساطتهم فى الطعام . لم تبق الألوان الكثيرة الشديدة الدسامة محل اللذة والرغبة . بل صارت الألوان التى تلائم الصحة وتتفق معها وتعاون عليها هى التى يميل الناس إلى إتقان صنعها لتجمع لهم بين حسن الغذاء ولذته . كذلك أصبح الترف ذاته ينزع إلى البساطة والصحة . وإذن فالحياة الإنسانية قد صارت من الزى والطعام والترف كما أصبحت من مظاهرها العقلية والفنية تريد أن تكون هى الظاهرة القوية لا يخفيها اللباس بل ينم عنها ، ولا يتخفها الطعام بل يقويها ، ولا تغص بالترف بل تنعم به . كذلك تريد ألا يثقل اللفظ على روح الأديب ، وألا تجمد التقاليد بريشة الفنان وأن تصبح الذاتية الإنسانية حرة متوثبة دائمة الإبداع دائمة السعى فى إبداعها إلى التحكم فى كل ما فى الكون وجعله بعض متاع الحياة لكل فرد من الناس ، متاع أساسه البساطة والصحة .

ولقد عاون العلم ، وما يزال يعاون ، على توجيه الحياة فى هذا السبيل بما ربط بين أجزاء العالم وما أخضع من قواه لحكم الإنسان وما فسخ لذلك من ميادين متاعه . فالتلغراف والطيران والراديو والفونوغراف وما إليها من جديد المخترعات قد جمعت العالم فى قبضة يد الفرد ، وقربت بين أجزائه تقريباً لم يكن يحلم به أسلافنا . أترك تستمع إلى أصوات الخطباء والمغنين وألحان الموسيقى ممن سبقونا ، وتسمع وأنت فى مقعدك إلى ما يجرى فى مختلف أنحاء العالم ، وتصل فى ساعات إلى ما كان يقتضى من قبلنا أسابيع أو

شهوراً ، ثم تظنك تحس الحياة على نحو ما يحسها السلف ويكون حقيقتها منك ما كان حقيقتها منهم ؟ لعل من الناس من يرى أن رحيق الحياة عند السلف أشهى وأعذب من رحيق هذه الحياة التي نعيشها ، ومن يرى لذلك أن مظاهر هذا الرحيق من فن السلف وأدبهم كانت أطيب وأهناً . ولست أخالف هؤلاء وأنا أشعر في كثير من الأحيان شعورهم وأجد في كثير من الأدب القديم جمالا ولذة ، وأجد فيه سداجة تجذب إليه وتعجب النفس فيه . بل إن من آثار الفن والأدب القديم ما انتهى إلى الخلود وما سيظل موضع تقديس العصور والقرون المقبلة جميعاً . وإن في « قفا نبك » من صور الجمال في بعض المواضع مالا سبيل إلى نسيانه . لكن الآداب مرآة العصر ، كما يقولون . وإذا كان الأدب القديم مرآة للعصور التي يمثلها في تصويرها الحياة وجمالها وكان ذلك مما تجب دراسته لكمال ثقافة الأديب ، فهو وحده لا يكفي لكمال الأديب . بل يجب لهذا الكمال أن يحيط الأديب من قواعد العلم والفن بما يؤهله لاستخلاص ما في الحياة من رحيق ، وليجלוه على صورة صادقة تمثل عصره . وهذه هي تفرقة الشيخ التي أشرنا إليها في صدر هذه الكلمة بين الشعر القديم وحاجتنا إليه للغة وللتاريخ ، وبين الشعر الحديث وتعبيره عن صورة حياتنا تعبيراً يجعله أشهى وأعذب مدخلاً إلى النفس .

على أن هذه الدراسات لا تغني عما قدمنا من وجوب صقل اللغة لثمترج بالأدب ولتكون له لباساً شفافاً موسيقياً رقيقاً ، وما يحتاج ذلك إليه من جهاد الأدباء جهاداً عنيفاً شاقاً يتناول كل نواحي الحياة ويتناول كل ناحية منها في مختلف صورها . ومن الحق أن نذكر بالتقدير والإجلال جهاد من سبقونا في هذا المضمار من الشعراء والكتاب ومن رجال دار العلوم والأزهر ومن يسمون أنفسهم اليوم أنصار القديم . هؤلاء جميعاً سعوا ويسعون سعياً

حشيئاً محموداً في سبيل بعث ما كان قد ظل عصوراً طويلة طي الكتب القديمة ، وجاهدوا فمهدوه وردوا إليه حياة كاد جهل العصور التي ساد فيها الحكم التركي الممالك العربية يعنى عليها ويدفنها إلى غير عودة . لكن اللغة كائن حتى يجب له دوام التعهد ، وتعهد اللغة في ناحية الأدب إنما يكون بدوام صقلها لتزداد رقة ولطفاً ، ولتكون موسيقاها مما يصلها بالأدب صلة وثيقة ويجعلها أكثر من كساء له .

هذا الجهاد حظ الكتاب والأدباء منه أكبر من حظ اللغويين وأصحاب المعاجم . ويكفي أن نذكر مثلاً لذلك ما يقصونه عن الكاتب الفرنسي الكبير فلوير وجهاده في هذه السبيل ؛ فهم يرون أنه كان يحار أحياناً في اختيار اللفظ الذي يعبر أحسن التعبير عن فكرة من أفكاره ، فيظل يقلب وينقب ويفكر أسبوعاً كاملاً ليجد اللفظ الدقيق الصالح ، وأنه حين كان يكتب قصته الخالدة « مدام بوفاري » ويقص انتحار بطلتها بالزرنينخ كان يحس طعم الزرنينخ في فمه فيجد لذلك العبارات الدقيقة التي تصف هذا المعنى وتصوره تصويراً مضبوطاً . فهل لنا من الأدباء من يبلغ إخلاصهم لفنهم هذا المبلغ ؟ هؤلاء هم الذين يصقلون اللغة ويجعلونها تلتف وتشف وتصبح موسيقى تتصل بالأدب ، لا مجرد ألفاظ تنقله كما كان شأنها في عصور مضت .

هؤلاء الأفذاذ المخلصون لفنهم هم الذين يجددون للغة حياتها قوة رصينة ، وهم الذين يعملون للأدب وقيموه له أرفع صروحه . على أنهم في عملهم للغة إنما يعملون بوصفهم أدباء . وهم بعملهم هذا يقدمون للغويين غذاء جديداً يفيدهم في معاجمهم أكبر الفائدة ، ويجعل من الأدب الحديث ما يفيد اللغة بمقدار ما يفيدها أدب « قفا نبك » ، وإن بقى أدهم مع ذلك أدباً عصرياً سائغاً للذيد المدخل إلى النفس .

النشر والشعر

« كلما أراد الإنسان أن يعبر عن إحساس حقيقى رأى بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنه قال شيئاً عادياً أقل مما كان ينتظر ، ووجد أن أحسن ما فى نفسه بقى فيها مخفياً . لتصوير إحساس كامل وتمثيل أثره فى صورة مطابقة للواقع يلزم استعمال ألفاظ غير المتداولة ، ألفاظ غير العتيقة البالية ، يلزم اختراع ألفاظ جديدة » . (قاسم أمين)

مَلَأْنَا طِبَاقَ الْأَرْضِ وَجَدًّا وَلَوْعَةً	بِهِنْدٍ وَدَعْدٍ وَالرَّبَابِ وَبَوَزِ
وَمَلَّتْ بَنَاتُ الشَّعْرِ مَنَّا مَوَاقِفَا	بَسَقَطُ اللَّوَى وَالرَّقْمَتَيْنِ وَلَعْلَعِ
تَغَيَّرَتِ الدُّنْيَا وَقَدْ كَانَ أَهْلُهَا	يُرُونُ مَتُونِ الْعِيسِ أَلَيْنِ مَضْجَعِ
وَكَانَ بَرِيدُ الْعِلْمِ عَيْرًا وَأَيْنَقَا	مَتَى يُعِيهَا الْإِيْجَافُ فِي الْبَيْدِ تَظْلَعِ
فَأَصْبَحَ لَا يَرْضَى الْبَخَارَ مَطِيَّةً	وَلَا السَّلَكُ فِي تِيَّارِهِ الْمَتَدَفَعِ
وَنَحْنُ كَمَا غَنَى الْأَوَائِلُ لَمْ نَزَلْ	نَغْنَى بَارِمَاحٍ وَبِيضٍ وَأَدْرَعِ
عَرَفْنَا مَبْدَى الشَّيْءِ الْقَدِيمِ فَهَلْ مَدَى	لَشَيْءٍ جَدِيدٍ حَاضِرِ النِّفْعِ مَمْتَعِ

(حافظ إبراهيم)

هذه الأبيات من حافظ إبراهيم ، وتلك الكلمة من قاسم أمين ، صريحتان صريحتان بالشكوى من حال الكتابة العربية نثرًا وشعرًا . وكل الفرق بينهما أن كلمة قاسم أمين قيلت من ربيع قرن أو أكثر ، وأن شكوى حافظ لما تمض عليها بضع سنين . وليس مقام حافظ فى الشعر بمنكر . وقاسم من المُقَدِّمِينَ فى تجديد الكتابة العربية ، بل أولهم وأكثرهم جرأة وإقداماً . على أن هذه

الشكوى لا يقف أمرها عند حافظ أو قاسم ، بل هي تجيش بنفس كل كاتب قوى الشعور دقيق الحس واسع الاطلاع ، وبنفس كل شاعر سميت شاعريته عن أن تقف عند ترديد الأشعار القديمة بقواف جديدة ، وعند سبك الصور والأفكار والمشاعر القديمة في قوالب ربما فاقت القوالب الأولى بهجة ، ولكنها ليست لذلك ذات فضل ؛ لأنها في الواقع ليست إلا محاكاة وتكراراً . ومحاكاة الإنسان للإنسان لا تحتاج إلى نبوغ وإن احتاجت إلى ذاكرة ، ولا تصل إلى مقام العبقرية وإن خلبت الأنظار فجأة بلألاء بريق سرعان ما يخبو إذا تعرض للنقد الصحيح .

وإنما يقدر ملاحظة قاسم أمين أولئك الذين لم تحبسهم معارفهم وثقافتهم في حدود هذا الماضي الذى أشار إليه حافظ إبراهيم ، والذين اطلعوا على مختلف صور تفكير العالم ووقفوا على أدب الأمم المختلفة ؛ هؤلاء يرون أن المدارك والإحساسات الإنسانية ليست جامدة ولا يمكن أن تكون كذلك ؛ لأنها خلقت البيئة المحيطة بالإنسان . وقد كانت هذه البيئة في الماضي ضيقة محصورة في حدود القرية أو القطر من أقطار الأرض الذى يعيش فيه الكاتب أو الشاعر . أما وقد أصبحت الإنسانية كلها بيئة واحدة للعالم أو الكاتب ، وأصبح من اليسير أن يطلع كل مثقف على آثار الفكر والشعور الإنسانى في الأمم المختلفة فقد اتسعت المدارك ودقت درجات الشعور ، وأصبحت ترى بين الميل لشخص ومحبه وبين العطف على شخص والإشفاق عليه ، وبين النفور والكراهية ، وبين الخجل والخوف ، وبين التردد والجبن ، درجات متميزة في الإحساس تدركها النفس إدراكاً دقيقاً ، وتعبّر بعض اللغات عن كل منها تعبيراً يحددها لك تمام التحديد . ثم ترى نفسك مطالباً بأداء ذلك في اللغة التى تكتب بها وهى اللغة العربية ، فتشعر بالعجز ، وترى بعد طول الجهد وكثرة الكلام أنك قلت شيئاً عادياً ، وأن أحسن ما فى

نفسك بقى فيها مختفياً . بهذا الإحساس يشعر الذين يقرءون ثمرات العلم والأدب الحديث فى مختلف اللغات ، سواء وقفوا عليها فى كتبها الأصلية أو مترجمة إلى اللغات التى صقلت حتى صارت تتسع لكل ألوان الفكر وصور الشعور . وأنت أكثر ما يتولاك العجب حين ترى جماعة من أكابر الكتاب الضليعين فى اللغة العربية الواقفين على آداب الأمم الأخرى وهم يعالجون العثور على اللفظ العربى المقابل للفظ أجنبى يعبر عن فكرة أو إحساس فلا يجدونه ، بل لا يجدون جملة مركبة تفيد بالدقة المعنى الذى يقصدون إلى تصويره .

على أن الكتاب الضليعين فى العربية والواسع اطلاعهم فى اللغات الأخرى ، ماقتوا إلى اليوم ومنذ قاسم أمين وقبل عصره ، يجاهدون لما أسماه قاسم : « اختراع ألفاظ جديدة » وإن كانوا قد سلكوا سبيلهم إلى هذه الغاية بإحياء ألفاظ قديمة وإلباسها أثواباً جديدة تعبر عن الأفكار والإحساسات الجديدة ، آخذين فى ذلك مأخذ كل الأمم ، قانعين من التجديد - بمعنى الخلق دون البعث - بالألفاظ الأجنبية التى لا رجاء فى وجود مقابل لها فى العربية ، لا أن يكره لفظ قديم على تحمل الصورة الجديدة إكراهاً سخيفاً . ولقد عالج بعض أنصار القديم من الكتاب هذا الإكراه فأخفقوا فيه ، لأنه مناف لطبائع الأشياء ، فمقضى عليه بالإخفاق لا محالة . على أن هؤلاء المجددين المجاهدين فى سبيل إحياء اللغة العربية حياة صحيحة إن لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى الكمال فهم قد قطعوا فى سبيله شوطاً بعيداً . وحسبك مقتعاً بهذا أنك لا ترى كاتباً منهم يعارض فى أسلوبه أو فى تفكيره أو تعبيره عن الشعور والإحساس واحداً من الكتاب الأقدمين . والناس إذ يتحدثون اليوم عن هؤلاء الكتاب لا يتحدثون عن معارضة العقاد للجاحظ ، ولا طه حسين لابن المقفع ، ولا مصطفى عبد الرازق لعبد الحميد

الكاتب ، ولا غير هؤلاء من كتاب العصر الحاضر لواحد من كتاب العصر القديم ، وإنما يتكلمون عن أسلوب العقاد ورأيه ، وأسلوب طه حسين ونظراته ، وأسلوب مصطفى عبد الرزاق ودقته وظرفه . بل إن من لا يزالون يسمون أنفسهم أنصار القديم من الكتاب ، أمثال مصطفى صادق الرافعي وصادق عنبر وغيرهما ، قد أثرت في أسلوبهم وفي تفكيرهم حركة التجديد هذه تأثيراً عميقاً ، حتى أصبح الجديد طبيعة نفوسهم ، وأصبح ما يقتفون فيه أثر القديم ظاهراً فيه العمل والصناعة والتكلف ، فما يكاد الواحد منهم يترك نفسه على سجيتها حين يكتب حتى تراه يعيش في هذا العصر الذي نحن فيه ، يكتب بأسلوبه ، ويفكر بتفكيره ، ويرى ما يراه من ألوان الإدراك والحس المختلفة . ونحسب أنه لولا بقية من الحرص على ماض امتازوا فيه على غيرهم من الكتاب حين كان تقليد الأقدمين امتياز شعرائنا في الحاضر امتيازاً يروونه مجدهم وفخرهم ، إذن لرأيت الرافعي وغيره من أصحاب مذهبهم انخرطوا في سلك المجددين انخراطاً . ولعل لهم عن ذلك من العذر أن الإنسان لا يستطيع ، وإن حاول ، أن ينسى ماضيه أو أن ينكره .

وليس عجيباً أن يتأثر أنصار القديم بحركة التجديد ، بل العجيب ألا يكون ذلك . فالحياة دائمة التطور ، والجديد هو آخر مظاهرها . وهذا وحده هو السبب في أنه جديد ، فإذا انقضى عصره وأحدثت غير الحياة جديداً بعده أصبح هو قديماً . وما دمت تعيش في عصر فأنت متأثر حتماً بحياة هذا العصر ، متأثر بالجديد الذي يحدث فيه . على أن كل عصر يتصل بما قبله اتصال البنوة بالأبوة والوارث بالمورث . ولن يتحلل الابن من آثار آبائه وإن هو حاول ، ولن يستطيع أن يكون صورة مضبوطة منهم وإن هو حاول كذلك . بل إن محاولته الأخيرة لتظهره في ثوب أنصار القديم من التكلف والصناعة ، كما أن محاولته الأولى ، وإن نجح فيها ، تظهره

فى ثوب من التكلف إن اختلف عن ثوب القدماء فهو ليس أقل منه استدعاء للسخر . ولعلك لا ترى فرقاً كبيراً بين ما يتركه من الأثر فى نفسك رجل يلبس اليوم رداء الأقدمين ويسير مسيرتهم ، وآخر يبالغ فى تقليد آخر طراز إنجليزى بالحديث والتحية والعبارة .

ولذلك أيضاً أخفق المجددون الذين أرادوا قطع الصلة بين حاضر اللغة وماضيها ، ورجع أكثرهم إلى الدائرة التى يعمل فيها المجددون بعقل وحكمة ، حتى قطعوا منها فى سبيل إحياء اللغة العربية شوطاً بعيداً . رجع أولئك إلى هذه الدائرة . كما تقدم إليها أنصار القديم خطوات واسعة . والحق أن هؤلاء المستبصرين من الكتاب قد بعثوا اللغة العربية بعثاً جعلها أداة صالحة لحياة الشعوب التى تتكلم بها . ولا حاجة إلى ضرب الأمثال ؛ فكتب العلم والأدب التى أبدعوا فيها متداولة فى أيدي الناس جميعاً يتلون فيها أسلس الكلام وأصح وأدقه عبارة فى نقل ما استحدثته الإنسانية من جديد صور الحياة وكل ما كشف عنه العلم من نظريات . وليس يعرف مبلغ العناية الذى يحتمله أولئك الكتاب ومبلغ الجهد الذى يبذلونه إلا من رآهم يعتصرون أدمعتهم وقلوبهم يريدون أن يصوروا لقارئهم المعنى الذى يدور بخاطرهم أدق التصوير . وأشد عنائهم حين يتصل المعنى بصور مختلفة من ثقافات الشرق والغرب جميعاً تتسع له اللغات التى صقلت فى القرون الأخيرة بل توحيه ثم لا يجد الكاتب نطاقه المضبوط فى اللغة العربية . إذ ذاك يجاهد ليعث الألفاظ القديمة فيصحبها فى بوتقة التجديد لتبدو فى صياغتها الجديدة أكثر مما كانت بريقاً وأشد دلالة على المعالى التى يراد أن تدل عليها من غير أن يشوبها لذلك كدورة أو اضطراب .

مع هذا الجهد الذى اقتضته طبيعة حياة اللغة العربية فى العصور الأخيرة فما يزال النثر لما يبلغ الشأو الذى نرتجيه له ، ولا يصل

إلى التعبير عن أفكارنا وعواطفنا ، إحساسنا تعبيراً دقيقاً ، وما يزال كثير من الكتاب يعدلون عن تدوين فكرة من أجل أفكارهم ، أو رواية عاطفة من أدق عواطفهم وأعمقها ، أو تصوير حس من أجمل إحساساتهم وأسمائها ؛ لأنهم يرون أنفسهم بعد طول الجهد وكثرة الكلام إنما قالوا شيئاً عادياً ، وأن أحسن ما في نفوسهم بقي فيها مخفياً . على أن هذا الجهد قد طوع لهم مع ذلك أن يتركوا من الأبواب التي اقتضتها حياة العالم في العصور الحديثة ما لم يطرقة الكتاب الأقدمون . وليس من الغلو في شيء القول بأن أكثر ما يتركوا من الأبواب لم يتعرض العرب له إلا عرضاً ؛ لأن التجديد لم يقف عند الأسلوب وكفى ، بل تناول طريقة البحث وألوان الحس ودرجات الشعور ، فصارت شيئاً مغايراً تمام المغايرة لما كان عند العرب ، واقتضت لذلك بناء للنثر جديداً ، وقد أصبح هذا البناء شامخاً ولكنه ما يزال في حاجة إلى التعهد والصقل والصياغة وإلى السعة نفسها ، حتى يسهل كل حاجات العقل والنفس والعاطفة في أبعد مداها ومراميتها وأعماقها .

* * *

هل بلغ الشعر مبلغ النثر في التجديد ؟ وهل نستطيع أن نقول إن جهاداً شاقاً وجه إلى أية ناحية من نواحيه كما وجه إلى نواحي النثر ؟ وهل أتاح له هذا الجهد أن يواقي حاجات الحياة الحاضرة بالمقدار الذي يواقيها النثر به ، فإذا انقضت أجيال وعرض أدب عصرنا الحاضر نثراً أو شعراً على ناقد دقيق تبين فيهما صورة العصر بمقدار متكافئ ؟ يجب قبل أن نبدأ هذا البحث أن نقرر واقعة متداولة على أنها حقيقة ثابتة . تلك أن الشعر العربي في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية بلغ شأواً لم يبلغه النثر ولم يطمع فيه ، وأن مكانة الشعر في عصور بني أمية وبني العباس والأندلسيين كانت أسمى بكثير من مكانة النثر وأدنى إلى الكمال ، وأن الفلسفة والحكمة والتفكير والعاطفة والحس كانت

جميعاً تصاغ في الشعر بخير مما تصاغ في النثر . بل إن الشعر العربي كان هو الأدب العربي ، وإن النثر إلى جانبه كان مكماً له غير مستقل عنه ، حتى لكان الكتاب يحلون نثرهم بما يرصعونه به من أبيات الشعر . فإذا كانت هذه الواقعة المتداولة حقيقة بالفعل ألا يكون من الواجب على الشعراء أن يقفوا مجهودهم عند بعث الشعر كما كان في أزهر عصوره ، ليعيدوا للأدب العربي جده ، وليكونوا قد سبقوا الكتاب إلى إحياء اللغة العربية وأدبها ، أو ليكون مجهودهم مساوياً لمجهود الكتاب في التجديد ، ليكون حكم الناقد الذي يستعرض أدب عصرنا الحاضر على الشعر مكافئاً لحكمه على النثر في تعبيرهما عن تفكيرنا وحسنا وعواطفنا ؟

لا ريب في أن النظر إلى الشعر من هذا الجانب يجعلنا نقر للشعراء بفضل أى فضل . فليس من كبرائهم إلا من عارض أفخم قصائد كبار الشعراء في الماضي ، فوفق في معارضته أعظم توفيق ، وتفوق في بعض الأحيان تفوقاً لا سبيل إلى إنكاره . وهؤلاء سامى البارودى وإسماعيل صبرى وشوق وحافظ إبراهيم وأضرابهم من فحول شعراء العصر الأخير ، ولم يكادوا يتركوا قصيدة من القصائد العربية الكبرى إلا عارضوها وزناً وقافية ومعنى ، فوفقوا وتفوقوا في أحيان كثيرة . وسينية شوق الأندلسية التى يعارض بها البحرى مشهورة . ومعارضة إسماعيل صبرى وشوق لقصيدة : « يا ليل الصب متى غده » ما يزال الناس يتحدثون بها . أما البارودى فقد عارض كثيراً من فحول المتقدمين وفي مقدمتهم النابغة . وهذه القصائد وغيرها هى من طراز القصائد التى تعارضها لغة وأسلوباً بل معانى وصوراً ، حتى لكأنها قيلت في تلك العصور التى قال أشباهها فيها البحرى والنابغة والحصرى وغيرهم من أكابر شعراء العرب . وإذن فقد بعث شعراؤنا المصريون ذلك الشعر العربى القديم بجزالته ومتانته . .

بل لقد افتن شعراؤنا في وصف المنشآت والحوادث بما ليس له مثال في الشعر القديم ؛ لأن هذه المنشآت وتلك الحوادث لم تقع عليها أعين الشعراء الأقدمين ، أو لم يتعلق بها خيالهم أن لم يتعلق بها شأن من شؤونهم . ولست أنكر أنى أتذوق وصف حافظ إبراهيم لقصر الجزيرة الذي أصبح حديقة الحيوان ، كما أتذوق قصيدته في نكبة مسينا بالزلزال ، وبخاصة حين يقول :

ربّ طفلٍ قد ساخ في باطن الأر ض ينادى : أمى ، أبى ، أدركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجمـ ر تعاني من حرّه ما تعاني
وأب ذاهل إلى النار يمشى مستميتاً تمتد منه اليدان
باحثاً عن بناته وبنيه مسرع الخطو مستطير الجنان
تأكل النار منه ، لا هو ناج من لظاها ولا اللظى عنه وانى
وكما أتذوق هذا الوصف لحافظ أتذوق كثيراً من شعر شوقي في الوصف ، وبخاصة وصفه لتوت عنخ آمون حين تكلم عن صيده وكلاب صيده ، ووصفه لقصر أنس الوجود إذ يقول :

قف بتلك القصور في اليم غرقى ممسكاً بعضها من الذعر بعضا
كعدارى أخفين في الماء بضيا سابحات به وأبدین بضاً
مشرفات على الزوال وكانت مشرفات على الكواكب نهضاً
شباب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون ما زال غضاً
ولست أنكر كذلك إعجابى الذى لا حدّ له بالشعر الوصفى في وجدانيات إسماعيل صبرى وفي حماسيات البارودى . ولكنى أعود من هذا الإعجاب فأسائل نفسى : هل هذه القوافى التى ما نزال نحن مرتبطين بها منذ عهد العرب ، وهل هذه الصور التى أدت بحافظ إبراهيم إلى أن يقول :

* ونحن كما غنى الأوائل لم نزل نغنى *

وهل هذه القيود المعنوية التي تقيدنا فتجعل شوقي في إحدى قصائده الفذة يذكر الهودج على أنه مركب أم المحسنين في حين كان مركبها « أوتومبيلها » الفخم - أعود فأسأل نفسي : هل الإعجاب بهذه القوافي والصور والقيود راجع إلى أنها تؤدي حاجات النفس من إدراك وحس وعاطفة أداء صالِحاً ؟ أم هو راجع إلى أنها تثير في النفس ذكر ما حفظت أول شبابها من شعر كإعجابك بنغم القيثارة الريفية الساذجة بعد سماعك لألحان عبد الوهاب ، بل لموسيقى موزار وبتوفن ؟ !

كنت أتحدث في سنة ١٩٢٧ إلى جماعة من أصحابي وبينهم الشاعران الكبيران حافظ إبراهيم وخليل مطران ونحن على الباخرة النيلية « بريطانيا » في الزهرة التي دعت إليها لجنة الاحتفال بتكريم شوقي بك بين مصر والقناطر الخيرية ، وتناول حديثنا الشعر وما يحس الكثيرون به من أنه لم يسبق الشر إلى الخطوات التي يستطيع معها التعبير عن كل المعاني التي يجيش بالنفس على صورة تتفق ونغم الموسيقى الجديدة ولا تقف عند الأوزان القديمة التي يقولون إنها كانت تلائم سير الإبل خبيلاً وذميراً . ولم يعترض الشاعران على هذه الملاحظة بل وافقاً عليها ، وذكر أحدهما أن السبب في جمود الشعر عند أوزان العرب ومعانيهم وقوف بعض الشعراء في وجه كل تجديد وإعلانهم الحرب النكراء على كل مجدد . ولم ينس أحد الحاضرين أن يذكر كيف تطورت الأغاني العامة واتفقت مع الأنغام الحديثة ، كما أذجت ، على ابتدائها ، كثيراً من صور الحياة الحاضرة ومستحدثاتها خلال ألفاظها ومعانيها . وما أظن أن أحداً يرتاب في صحة هذه الملاحظات على الشعر العصري وعلى وقوفه في قوافيه وأوزانه وفي صوره ومعانيه عن مجارة أنغام العصر وموسيقاه ، بل عن مجارة الهزات الشعرية التي تجول بالنفس المثقفة بثقافة العصر الحاضر .

لقد تقف بين ألوف القصائد التي قيلت والتي تقال على أبيات بالغة الجمال
تعبّر بأبلغ عبارة عن أدق إحساس وأقواه ، لكن هذه الأبيات منشورة
في لجج مترامية انتشار الدر في قاع البحر ، لا تعثر عليها إلا بعد جهد ومشقة .

وليس القصد من الشعر في رأينا هو هذه الأبيات الفذة ، وليس هو
محاكاة الأقدمين . وإنما القصد من الشعر إبراز فكرة أو صورة أو إحساس
أو عاطفة يفيض بها القلب في صيغة متسقة من اللفظ تخاطب النفس
وتصل إلى أعماقها من غير حاجة إلى كلفة أو مشقة ، ثم ترتفع بها وترتفع
أو تهبط وتهبط وأنت مندفع معها منساق ورائها ، متلذذ باندفاعك وانسياقك
تلذذك بصوت المغنى أو بنغمة الموسيقى . وكما يسبقك المغنى إلى القرار
أو السمو الذى تنساق إليه نفسك طائعة مختارة ، يجب أن يسبقك
الشاعر في فيض الحس أو الشهوة أو العاطفة ، وأن يشعرك من ذلك
أضعاف ما تشعر به لو أنك كنت وحدك . وكلما بلغ الشاعر من ذلك مدى
بعيداً ، وكلما استوت له في ذلك النفوس جميعاً ، اقترب من ذروة مجد
الشعر وغزر له فيض بناته وريّاته .

ولقد حاول بعض الشبان وما زال بعضهم يحاول أن يوفق الجديد في
الشعر بلائهم بينه وبين روح العصر الحاضر ويصل به إلى هذا المدى
الذى وصفنا . وفي هذه المحاولات جرأة وفيها جمال . لكنها لما توفق
للطريق السوى ، فتعبر عن مدركاتنا وإحساسنا وعواطفنا بمثل ما وصل إليه
النثر من قوة ودقة . وهى لما توفق للخروج بالشعر من لهلته التى تجعل
أكثر قصائده ليس بين البيت فيها وما بعده صلة ، حتى لتستطيع أن تغير
مواضع الأبيات كما شئت دون خوف . ثم هى لما توفق لأوزان تخرج بها
عن سير الإبل خبيلاً وعنقاً إلى شئ يتفق وأنغام موسيقى عصرنا الحاضر .

يوم يوفق الشعر لهذا الطريق في تلك النواحي المختلفة ، ويوم يؤدي
الغاية التي أشرنا إليها ، يكون قد وفق لأداء حاجات النفس أداءً صالحاً .
ويومئذ يسير مع النثر ويجاهد جهاده لصياغة اللغة العربية وصقلها بما
يجعلها تواتى الكاتب والشاعر بكل حاجات العصر في غير مشقة ولا عناء .
لكن ذلك إنما يكون يوم تزول عن الشعر علة . فما هي هذه العلة ؟ وما هو
سبب الجمود الذي أشرنا إليه في هذا الفصل ؟

عِلَّةُ الشَّعْرِ

يوافقني صديقي الدكتور طه حسين على أن النثر العربي قد تطور في هذا العصر الأخير إلى حيث قارب أن يكون صالحاً لأداء حاجات النفس ، وإن كان ما يزال في حاجة إلى معالجة وإلى صقل وإلى زيادة في ثروة ألفاظه ليصل إلى ما وصلت الكتابة في الأمم الغربية صاحبة المدنية الغالبة اليوم ؛ وعلى أن الشعر ظل حيث كان الشعر في الأيام القديمة حين كان مجد العرب وكانت الحضارة الإسلامية في أبهى عصورها العباسية والأندلسية . وهو يعزو تطور النثر وجمود الشعر إلى مطالعة الكتاب واتصالهم بحضارة العصر في كل مظاهرها العقلية والنفسية ، وإلى اكتفاء الشعراء بما قرءوا في شعر العرب ، وإلى كسلهم العقلي بعد ذلك وعدم تغذيتهم أرواحهم ونفوسهم وعقوبهم بما تفيض به الأرواح وتشعر به النفوس وتنتجها العقول من الآثار في العصر الحاضر . كما يعزو جمود الشعر إلى أن الشعراء قد جعلوه بعض ما تترين به حفلات التكريم والتأبين وافتتاح البيوتات المالية وما إلى ذلك مما لا يتصل بالشعر .

ولنقف عند هذه الأسباب قبل أن نبحث عن غيرها مما أدى بالشعر إلى الجمود تاركين نسبة الكتاب دون الشعراء الذين يتجهون إلى القراءة وإلى الاتصال بحضارة العصر حتى لا نتهم بمحاباة طائفة على الأخرى . فأما كسل الشعراء وعدم اطلاعهم وما لذلك من أثر في شعرهم ، فقد يكون فيه بالقياس إلى أكثرهم جانب من الحق ، وإن يكن لهؤلاء عنه كذلك جانب من العذر . فهم يقرءون بدء صباحهم حين تتحرك ربة الشعر أول ما تتحرك في نفوسهم ،

وبعضهم يقرأ الشعر العربي القديم لأنه لا سبيل له إلى الاطلاع على الشعر ولا على الأدب الغربي ، وبعضهم يتصل بهذا الأدب الغربي فإذا استوى لهم الشعر العربي واتسقت لهم قوافيه وبحوره شعروا بحاجة ملحة إلى التبحر في اللغة العربية وفي الشعر العربي بنوع خاص ، لكي يجدوا فيه حاجتهم من غذاء متصل لموسيقى النظم في نفوسهم مما لا سبيل إلى ابتغاء العوض عنه في غيره من أدب غربي أو من موسيقى أو من أدب حديث . وهم سرعان ما يصلون في ذلك إلى إنضاج اللغة في نفوسهم . وما أكثر ما يتيسر لهم بذلك الوقوف على الألفاظ التي تحتاج إليها قوافي الشعر وأوزانه . فإذا اندفعوا في هذه الناحية من نواحي البحث لم يقف أمرهم فيها عند حاجتهم إلى نضج اللغة وإلى ثروة القوافي ، بل تأثروا بالشعر القديم أشد التأثر وأخذوا عنه في كل شيء ، واندفعوا بحكم ميل النفس إلى دعة الحياة لمحاكاته ومعارضته . ولقد كانوا إلى زمن قريب يشعرون بما في ذلك من شهادة بسبقهم وتفوقهم ، حتى أخرجتهم ضجة القديم والحديث في اللغة والأدب من سباتهم ، وجعلت المبرزين منهم يفكرون في جودة الشعر باقتحام ميادين مما اقتحم الشعر الغربي ، ومحاولة محاكاة هذا الشعر الغربي في اقتحامه إياها . لكن هذه المحاولات ما تزال في بداءتها . وأجراً هذه المحاولات ما وضعه شوقي من روايات لم يحص النقد حتى اليوم قيمتها الصحيحة .

وأما أن الشعراء يجعلون شعرهم بعض ما تزين به حفلات التكريم والتأبين وافتتاح البيوتات المالية وأمثال هذه الأغراض البعيدة كل البعد عن المعاني والصور الشعرية ، فصديقي طه على حق فيه . فالشعر ظاهرة نفسية لقائله ، يشدو به حين تفيض نفسه بإحساس من الإحساسات ، أو بمعنى من المعاني لا تستطيع أن تكتمه . ولن يصدق أحد أن ينبعث هذا الفيض

عن دعوة تدعوها جماعة لشاعر كى يقول فى غرض معين ، كحفلات التكریم والتأبين وإنشاء النقابات والمصارف .

على أن لشعرائنا فى غير هذه الأغراض ، ولهم فيما تلهم المعانى الشعرية الصحيحة ، ما يثير فى النفس الإعجاب . وإنك لو اوجد شعراً صحيحاً فى المقطوعات الوجدانية التى قالها إسماعيل صبرى ، ولو اوجد شعراً صحيحاً فى كثير من قصائد البارودى عن الأنفة وعن الحرب وعن الحنين إلى وطنه وهو فى منفاه ، ولو اوجد كذلك لشوقى معانى شعرية ذات روعة فى قصائده عن الماضى وفى تحنانه إلى مصر أيام كان فى الأندلس . ولغير هؤلاء شعر هو الشعر بكل معناه ، لكن ذلك الشعر قليل من هذا الكثير الذى خلفوا والذى يستظهره الناس ويجدون فيه روعة وجمالاً . وإنما نظم الشعراء أكثر شعرهم فى هذه الأغراض التى ليست من الشعر فى شىء . وللشعراء عن ذلك عذرهم . وليس هذا العذر مقصوداً على عدم القراءة وعلى الكسل العقلى ، بل هو أعمق من ذلك بكثير . ولعلمهم لو قرءوا وأجهدوا فى القراءة أنفسهم وأعصابهم ، لما وصلوا من الشعر إلى أكثر مما وصل رجال الدين من الدين . فرجال الدين يدمنون قراءة كتب العقائد والأصول والفقه وما إليها مما يتصل بالدين بأى نسب . لكن هذه القراءة لم تغير منهم شيئاً ولم تهذب من نفوسهم وطباعهم كثيراً ولا قليلاً . ويخيل إلى أنهم لو قرءوا تاريخ العقائد وتطور الأديان ، بل لو أنهم رجعوا إلى الأساطير وتقصوا ما كان يدين به قدماء المصريين وما أخذه موسى عنهم ، من التوراة إلى الكتب الأخرى المقدسة من صور العقائد والمعاملات ، إذن لما غير ذلك من أذهانهم شيئاً . ذلك بأن المسألة ليست مسألة قراءة فحسب ، بل هى مسألة تدبر وشعور شخصى ، فكرى أو نفسى ، يتأثر بملامسة مظاهر الحياة من مراثيات ومسموعات ومحسوسات للأعصاب

الإنسانية المهذبة تهذيباً خاصاً يجعلها قابلة للتأثر والإحساس . ويجب أن نعرف ، ونفوسنا يملؤها الحزن والأسى ، أن تربيتنا وتهذيبنا لم يعدا كثرتنا لهذا التأثير الفردى والإحساس الذاتى . فهما لا يرسمان أمامنا مختلف صور الحياة ويتركان لحسنا وفكرنا أن يميزا من هذه الصور ما يأخذ بهما ويلفتهما لفتات خاصة ، بل هما يجيئان بصور الحياة مصبوبة فى قوالب قررتها الجماعة من عصور سالفة فيطبعانها فى حسنا وفكرنا طبعاً يقيدهما بهذه القوالب ويكرههما على الخضوع لها والإيمان بها . وكما أن حرية الفكر هى أساس النشاط العقلى المتشج وأساس ما يترتب على هذا النشاط العقلى من سمو فى الكتابة بلغ الكتاب بعضه ، فحرية الحس هى أساس نشاط الذهن والخيال وما يفيض عن هذا النشاط من شعر هو الشعر حقاً ، لا ما يصدر عنه من عبارات منظومة يسميها الناس من باب التجوز شعراً .

والتحلل من جمود هذه القيود ليس أمراً يسيراً . بل لقد يتلمل منها الرجل فى نفسه ويراهها عبثاً ثقيلاً وسخرية وهزواً . لكن نفسه التى ألفتها فى الماضى والتى ترى فى اطراحها ما يثير الخصومة بين الجماعة وبينها ، تؤثر ما سماه طه كسلاً عقلياً ، مع أنه قد يكون شيئاً آخر . قد يكون هو الملل وضعف الرجاء فى الانتصار على جمود الجماعة ، والاضطرار لذلك إلى النزول منها منزلة تملق مشاعرها الجامدة حتى حين هياجها وتمليق إيمانها المتعصب للتأثر على كل تسامح . ولعل هذا هو علة تقلب شعرائنا بين مديح شئ وهجائه ، لا لأنهم انتقلوا من التسليم بجماله وبما فيه من خير إلى إنكاره والاعتقاد بضرره ، بل لأنهم أشد حرصاً على طمأنينتهم منهم على شعور قلق ليس ناشئاً عن فيض روحى لا سبيل إلى كبجه ، وإنما منشؤه النظر إلى الحياة ومصالحها نظرة منفعة لا شعر فيها ولا إيمان

بها . فالتحدث عن أثر هذه النظرة حديثاً منظوماً إنما يرضى به الشاعر سامعيه قبل أن يمر بخاطره إرضاء نفسه .

ألم يواجه الكتاب ما واجه الشعراء من الملل وضعف الرجاء في الانتصار ؟ ! أم هم من طينة غير طينة الشعراء وأعدهم تهذيبهم لألوان من التأثير الذاتي والإحساس الفردي غير ما أعد تهذيب الشعراء إياهم ؟ أعتقد أن الأمر متعلق بالظروف التي أحاطت بالكتاب والشعراء أكثر من تعلقه بتهذيب هؤلاء وأولئك مما يشترك الكل فيه على سواء . فقد كانت الكتابة جامدة جمود الشعر إلى ما دون نصف قرن مضى . وكان الكتاب يقلدون أساليب الأقدمين ويحتذون أنواع كتاباتهم في المقامات والرسائل وما إليهما ، ويغرمون بالسجع وبالبديع غرامهم ، ويعتبر أحدهم أكبر فخره أن يكون معارض الجاحظ أو عبد الحميد . وفيما هم في سكينتهم إلى أدبهم تسلفت إلى مصر وإلى الشرق ثورات سياسية واجتماعية متأثرة بالثورة الفرنسية وبما أصاب أوروبا من هزات عنيفة في أعصابها ، فقام دعاة لمثل هذه الثورة ، بعضهم في السر وبعضهم في العلن ، واتخذوا الخطابة والكتابة وسيلتهم إلى إعلان ثورتهم . ولم يكن أسلوب ابن المقفع ، ولا لغة ابن قتيبة ، ولا صناعة المبرد ، هي التي تكفل تحريك الجماهير لقبول هذه المبادئ ، ولا كانت هي التي تكفل حسن صياغة هذه المبادئ والدعوة إليها . لذلك لم يكن بد من أسلوب جديد ومن لغة جديدة : أسلوب ولغة لا ينبوان عن العربية الصحيحة ولا يستعصيان على إدراك الجمهور ، ولا يقفان دون تمثل مبادئ الحرية والإخاء والديمقراطية ودفعها إلى نفس الجمهور ليستطيع هو أن يسيغها وأن يتمثلها وأن يتأثر بها ويتحرك لتحقيقها . وكذلك لم يكن بد من أن تساير ثورة الاجتماع والسياسة ثورة في الخطابة والكتابة . أما الشعراء فظل أكثرهم بمعزل عن هذه

الحركة ، ولم يفكر أحدهم في أن يبدع في الشعر جديداً يقربه إلى الجمهور ويقرب الجمهور إليه ، واعتبروا مثل هذا السعي جنابة على الشعر بوصفه فناً جميلاً . من ثم أقام الشعر في سماواته الأولى لا ينزل للناس ولا يرفع الناس إليه ، وخطا النثر بأكتاف قوية عريضة بين الجماهير يهزها ويحركها ويلفتها إلى ناحية النور الجديد ويلهمها فضل الآراء الحديثة . وكلنا يذكر جهاد الكتاب في سبيل التحلل من قيود الماضي وما قاساه قاسم أمين ولطفى السيد وغيرهما ، ويذكر أنه لولا شهوات السياسة ومس الحاجة إلى الإصلاح الاجتماعى وعجز من سوى هؤلاء المجددين من الكتاب دون الاضطلاع بأعباء هذا الإصلاح وبتوجيه تلك الشهوات ، ثم لولا تغلب المدنية الحاضرة ، مدنية العلم والمعرفة وعجز من سوى المجددين دون رفع لواء هذه المدنية ، إذن لبقى النثر كما بقى الشعر في جموده ، ولبقينا مقيدين بالصور القديمة نكتبها لا لنعبر بها عن شعور يمر بخواطرنا وعن فكرة تنضجها أذهاننا ، ولكن لنجارى بها الجاحظ أو عبد الحميد أو بدیع الزمان ، ثم ليكون أقربنا إلى محاكاتهم أبرعنا في الكتابة ؛ لأنه يكون صدى أولئك الذين تبوءوا بحق مكان الزعامة الكتابية في زمانهم ، والفونوغراف الذى يحكى بدقة ، وإن يك من غير شعور ، ما ألقى به إليه .

على أن ثورة النثر لم تصل من تحريره إلى كل ميادينه ، ولم تقر للأدب حريته في كل صوره ، بل وقفت عندما أبدت الظروف ميسر الحاجة إليه . وما أحسب واحداً من الكتاب يحدث نفسه بأن الكتابة بلغت من مثلها الأسمى الذى تصبو إليه غاية المدى ، أو أصبحت لا يحول بينها وبين دقة الأداء عن كل ما يجول بخاطر الكاتب إلا قصور ألفاظ اللغة وأساليبها . بل لا يزال بيننا وبين الكمال مدى واسع غير

إتقان الصناعة ودقة الصياغة . وإذا كنا قد اقتحمنا بعض الميادين التي كانت من قبل أقداً لا ترتفع إليها العين ولا تسمح لنظرة منها بخلسة ، فإننا ما نزال أمام بعض الميادين الأخرى مقيدين كالشعراء سواء . وربما كنا كذلك أمام أكثر الميادين الشعرية التي تتعلق بالحس وبالعاطفة . فأين منا من هوى قلبه إلى ألوان غير مألوفة من الجمال تمددت فيه وانتشرت فملأته ففاض به هواه فعبّر عنه تعبيراً صادقاً ؟ وأين منا من ساور الشك نفسه أن رأى النور القديم الذي اهتدى به أسلافنا قاصراً عن هدايتنا ، كما صارت الأنوار القديمة التي كانت تنير دياجير الليل فاترة ضعيفة أمام لألاء الكهرباء ، فانبعث يلتمس نوراً جديداً واندفع إلى ذلك بحرارة إيمان كلها عاطفة وكلها شعر وكلها فيض وإلهام ؟ وأين منا من سما للكمال بعاطفته فبكى للمذنب ذنوبه ورأى فيه أنحاً أحق برحمة الله ممن لم يجترح في الحياة إثماً ! وأين منا من اهتزت كل أعصابه من الألم أمام مآسى القدر يفجع بها الأبرياء كل يوم فتار على القدر ثورة الجبابة ! أوليس واجباً علينا ، وذلك شأننا من ثورتنا لحرية الأدب ، أن نكون رحماء بهؤلاء الشعراء الذين لا يرون بنات الشعر لأنها مغللة ملقاة في غيابات الماضي ، والذين لا شيطان لهم يستمعون إلى وحيه لأن شياطين الشعر لا تلهم إلا أحرار الحس والشعور والخيال ! أو لا يجوز لغيرنا إذا رأى ما بينت من حالنا أن يهيب بنا : رفقا بالقوارير ، وأن يذكرنا بكلمة السيد المسيح : « من كان منكم غير ذى وزر فليرمها بحجر ! » .

وسنظل معشر الكتّاب قاصرين دون التعبير عما يجول بخواطرنا حتى تنحل القيود التي تربطنا ، وتفتح أمامنا الميادين التي ما تزال مقفلة كما تفتحت إلى اليوم ميادين أباحت لنا أن نصل فيها إلى تطور الكتابة تطوراً يسّر لنا التعبير عما يجول بخواطرنا بعد تلك الثورة القوية التي

قام بها الذين سبقونا والتي ما تزال إلى اليوم مستمرة تريد أن تفتح من الأبواب مالا يزال مغلقاً .

ولا سبيل إلى جدة الشعر إلا أن تؤدي إليها ثورة كالتى أدت إلى جدة النثر . وليست الثورات السياسية ولا الانقلابات الاجتماعية أدوات هذه الثورة فى الشعر ما لم يكن لها أساس عميق سنده الشعور الإنسانى الصحيح لا المصالح الحاضرة والشهوات الوقتية . وما للشعر وهذه المصالح والشهوات ؟ إنه لا يلبث إذا تناوها أن يسمو بها إلى مراقبه التى تحلّق فوق وضيع المطامع ، ويكسوها هالة من جمال وجلال ، ويستصفى الخالد من آثارها ويتغنى به ويخلده . انظر إلى الشعر الغرامى . ليست « جوليت » وليست « لىلى » وليست « هلويز » لذواتهن شعر الشاعر ، إنما الشعر ما فى جمال أولئك وما فى عاطفتهن من خالد ينتقل على الأجيال ، فيشدو به الشاعر ويسبغ عليه كل ما واثاه به العلم والفن والخيال من مشاعر وصور . وكما أن الحب عاطفة تحرك الشاعر فالإيمان عاطفة تحركه ، والشفقة كذلك عاطفة تحركه . ونفوسنا فى حاجة إلى غذاء من الإيمان كمحاجتها إلى غذاء من الحب . ولن يكون إيمانها شعراً إذا هو كان إيماناً مطمئناً ، كما أن الحب لن يكون شعراً إذا كان حباً مطمئناً . بل لابد ، فى الحب وفى الإيمان وفى الإشفاق وفى الحرية وفى مختلف مظاهر الطبيعة وفى كل ما تتأثر به النفس ، من مجال لمطمح إلى غاية تكون مثلاً أعلى وأملاً سامياً ، لتفيض به النفس شعراً ، وليكون لهذا الشعر على الزمن بقاء . فأما ما دون ذلك من أثر هذه العواطف فى النفس فالشعور به مشترك بين الناس جميعاً ، وليس فى الإفضاء به شىء من الشعر ، وإن أمكن أن يكون فيه نظم وكلام فخيم وفصاحة وبلاغة وبيان بديع .

وهذا هو ما يجعل لصديقى طه كل الحق حين يأخذ على الشعراء أنهم

يجعلون شعرهم بعض ما تترين به حفلات التكريم والتأبين وافتتاح البيوتات المالية ، وما يجعل كل إنسان على حق حين يعيب شعر المناسبات وحين يعيب أكثر الشعر العربي الحديث ؛ لأن أكثره شعر مناسبة . والأمر كذلك في شعرنا الحديث بنوع خاص ، أن كانت المناسبات التي تلهمه ليست مناسبة تحرك نفس الشاعر وتهزها من الأعماق فتدفعها إلى الإفاضة بمكنون ما فيها ، حتى لتجندك ما تكاد تتخطى بعض الأبيات المتصلة بالمناسبة حتى ترى إلهام الشاعر من مجموع الحياة قد تجلى وقد غمر المناسبة وسما فوقها واتصل بحياة الوجود كله على نحو ما حركت الثورة الفرنسية نفس جيتي أو ما حرك زلزال لشبونة نفس فولتير . وإنما هي مناسبات تافهة أغلب أمرها بالمناسبات التي توحى ما يلقى من الشعر في الحفلات . فإذا هي بلغت من القوة والسمو ما يحرك نفس الشاعر ويثيرها ويدكي فيها أقوى المعاني وأروع الذكريات ، رأيت ذلك قد وقف من إلهام شعرائنا عند قصائد لا تتجاوز الأربعين أو الخمسين أو الستين بيتاً ، ورأيت سمو الإلهام لا يتصل في هذه الأبيات كلها فياضاً متدفقاً آخذاً بعضه برقاب بعض ناقلاً إياك معه إلى السماوات التي ارتفع الشاعر إليها ، بل ترى سمو الإلهام هذا قد وقف عند أبيات منثورة هنا وهناك خلال القصيدة من الشعر كلها رصينة النظم واللغة ، لكن الإلهام فيها لا يعدو أن يكون بروقاً خاطفة تأخذ النظر كلما أنارت ، ولكنها ما تلبث أن تخبو لتحل محلها الصنعة في الشعر والتجويد في النظم . وإذا كان مرجع ذلك في المناسبات العادية إلى أن شعر المناسبات ضعيف بطبعه ؛ لأن الإلهام فيه ينطبع في النفس من حوادث خارجة عنها ، في حين أن الإلهام في الشعر الصحيح داخلي يصدر عن النفس ذاتها ويهتز له كل وجود الشاعر لأنه الفيض المضيء لدخيلة حياته ولكل إيمانه ولكل عواطفه وكل وجوده ، فإن قصور المناسبات الكبرى عن إلهام شعرائنا أكثر مما ألهم زلزال مسينا حافظه

إبراهيم ، وموقعة أدرنة وانتصار الأتراك بعد الحرب الكبرى شوق قصائده في هذه الحوادث ، إنما يرجع إلى ضعف ثورة النفس وإلى هذه السكينة المطمئنة التي أشرت إليها ، وإلى الاكتفاء بمحاكاة السلف ومعارضتهم والنسج على منوالهم .

وإلى أن تحدث هذه الثورة سيظل الشعر في جموده ، وستظل المعاني الشعرية الصحيحة نادرة ، وستظل الأوزان الشعرية واقفة وقوف الموسيقى والغناء . وسبيل هذه الثورة أن تظلم النفوس لحرية الإحساس والعاطفة كما ظلمت من قبل لحرية الفكر وحرية التعبير عنه . ولست أرجو أن يكون هذا الظلم شأن السواد ، وإن رجوت أن يتقرر حقه فيه . لكننا أرجوه للأفذاذ الذين يحملون على عواتقهم أعباء النهضات الكبرى التي لا طريق لها غير الثورة . هؤلاء الأفذاذ يجب أن يكونوا في حل من كل قيد للذهن أو للحس أو للشعور ، لكي يهديهم إلهامهم المهذب بكل ما أورثنا الماضي وما يحيطنا به الحاضر من آثار الفكر والفن ، إلى المستقبل المستور بحجب الغيب ، والذي لا يتفتح إلا هؤلاء الأفذاذ الذين ينظرون ببصيرة الشعر فيه . فإذا وجد الأفذاذ ودفعهم الظلم للحرية إلى تحطيم القيود التي ما تزال تربط الشعراء في أكثر نواحي حياتهم ، وسمواهم بشخصياتهم الممتازة فوق عواطف السواد وشهواته ، وحلقوا ابتغاء إرضاء نفوسهم وعواطفهم وأذهانهم - إذا كان ذلك آن للشعر أن تتجدد معانيه وأوزانه وقوافيه ، وصار أداة صالحة للتعبير عما يجيش بالنفوس وتضطرب به الخواطر .

وسيلة الشعراء إلى كسب حرية الشعور والعاطفة والتعبير عنهما ميسورة لمن أراد بلوغ هذه الغاية السامية ، تلك أن يطلب الشعراء الكمال لذاته لا رغباً ولا رهباً ، وأن يسموا فوق مطامع المادة ومزائق الذلة والخضوع لوضيع الشهوات ، وأن يجاهدوا للتحلل من رق الإِسار الذي ارتبطوا به مع الشعر

العربى القديم . ولعلمهم إذا رجعوا إلى تطورات الشعر الغربى فى العصور الأخيرة كان لهم فيه مثل . فقد أعلن رنصار مذهب بعث الأدب اليونانى والرومانى فى القرن السادس عشر ، ووجد هو ومن تابعه فى هذا الأدب فضلاً ظل يلهمهم قرنين كاملين لكنهم كانوا فى ذلك ينقلون ذلك الأدب القديم من لغاته إلى لغتهم ، فتبدو له جدة عند الجمهور الذى لا يعرف اللاتينية ولا اليونانية . فلما كان القرن الثامن عشر انقض الشعر فى أوروبا على هذه القيود القديمة ، وأعلنوا حرية الشعور والشعر وساروا به الخطى الواسعة التى بلغت الشأ الذى أدركه اليوم . وها نحن أولاء قد مضت علينا أجيال ونحن مقيدون بالشعر العربى القديم معانى وأوزاناً . أفما آن لنا أن تكون لنا شخصية مستقلة ، وأن يعلن شعراؤنا حرية الشعور والشعر ، وأن يقولوا بوحى نفوسهم وإلهام حياتهم لا بوحى الأقدمين وإلهامهم ؟ ! أو ما آن لشعرائنا أن يرتفعوا فوق ذلك المستوى الذى تضطربهم إليه ذاكرة الجمهور اضطراباً ، فيجذبوا الجمهور إليهم كارهاً بادئ الرأى ثم سعيداً بما أكره عليه بعد ذلك ؟ ! أما آن لهم أن لا يتأثروا بتقليد الناس وبحاجاتهم المادية ، فيكون شعرهم شعر النفس الفياضة لا شعر الظروف التى لا شعر فيها !

ولست كبير الرجاء فى مقدرة الشعراء الذين كونهم العصر الماضى على أن يغالبوا ما نشأوا عليه ، وأن يزدروا ثناء الجمهور وتصفيقه ولو كان هذا الازدراء سبيل الكمال . فليس من اليسير على النفس أن تغير من عاداتها ما أصبح منها بمكان الطبع . ولست أدرى أيستطيع الناشئون اليوم إبداع هذا الذى أدعو إليه من الاستقلال ومن البحث فى ملكوت الشعر عن المثل العليا على نحو ما يصورها عصرنا الحاضر فى الحب والحق والشفقة والحرية والإيمان والشك ، ومن إرسال خيالهم يتغذى مما أنبت العلم والفلسفة فى هذه الشؤون كما تتغذى النحلة من رحيق الزهر لتخرج للناس شهيداً شهياً . وكيف نثق بالناشئين ولما

يظهر منهم أحد مستقلاً عن كبار شعرائنا مرسلًا إلى الناس من فيض شعره
ما تبهروهم جدته وما تهزهم قوته وما يرون فيه من الروح ومن الموسيقى غير
ما ألفوا ، ثم هم يرونه مع ذلك ذا جلال وروعة !

وإنما رجائنا أن تصدر الثورة المجددة التي ينبعث أصحابها في طلب
الكمال الشعري لذاته عن الجيل الجديد الذي يتلقى العلم اليوم والذي
يجاهد كلنا في سبيل تلقينه إياه على غير تلك القواعد القديمة التي كانت تبعث
الجمود إلى الأذهان والقلوب والعواطف . وعلينا إذا أردنا معاونته على القيام
بهذا الواجب أن نعاونه على تقرير حرية العاطفة بمقدار ما أعناه على تقرير
حرية الفكر ، وأن نوسع أمامه من آفاق الفن بمقدار ما نوسع من آفاق العلم ،
وأن نعرض عليه من صور الحياة الماضية والحاضرة ما يسمح له بحرية الاختيار
فإذا نحن قمنا بهذا الواجب كان لنا أن نأمل من بين هذا الجيل الجديد في
أولئك الأفذاذ الذين يقيمون صرح الشعر على أسس صالحة ، والذين
يجعلوننا نحس إذ نشد شعرهم بائتلاف جوانب نغمته مع سائر أنغام الحياة
الحاضرة وصورها ، بدل أن نرى أنفسنا كمن يشدو بقيثارته وسط الأطلال
يريد أن يبعث أمام خياله حياة ليس لها بشيء مما في حياته اتصال .

متى وجد هؤلاء الأفذاذ آمن رافعو لواء الشعر بأن من الواجب عليهم
أن يقتحموا ميادينه بروح جديد ؛ روح غير هذا الروح الأثير الذي يحصر
شعراءنا أكثر الأمر في دائرة ضيقة من عواطفهم الوقتية أو تفكيراتهم السطحية
أو أخيلتهم القليلة السمو ، وأن يقتحموا الميادين الجديدة بروح منبسط
قدير على أن يحلق في جو العالم كله ويتصل به ، ملقياً عن كاهله حدود
المكان والزمن ، مرتفعاً إلى السماوات العلا ، متصلاً بالملائكة والشياطين ،
ثائراً على كل عتيق بال ، متوثباً في ثورته ليتنظم آلهة الإغريق والمصريين
القدماء وما خلفت الميثولوجيا في الأمم والعصور المختلفة في تحليقه وسموه ،

مجاهداً لينقى ذلك كله ويصهره ويخلق منه فى عالم الشعر خلقاً جديداً .
وأحسب أن اقتحام ميادين الشعر الجديدة بهذا الروح ، كما أن غزو
الصالح من الميادين القديمة بهذا الروح كذلك ، كفيل بأن يدفع بالشعر
إلى صدر النهضة ، وأن يجعل منه الأداة الروحية القوية التى تحطم الكثير
من الأغلال ، وترتفع بالإنسانية فى سماء الحرية والحب والحق والجمال .
وهذا الروح يجب له قبل كل شئ أن يرتفع بالشاعر عن شعر المناسبات
إلى ما يصدر عن وحى الروح وإلهام العاطفة وفيض الفكر . ويجب أن تكون
غايته تصوير الكمال فى صور تستولى على نفس قارئها وسامعها وتطير بها على
أنغام الشعر الموسيقية لترتفع فوق مستواها وتبذل نفسها ، ولتحس معنى الكمال
إحساساً عميقاً يشعرها بضرورة الدأب للجهاد فى سبيله ، وتجعلها إذا قرأت
شعراً يصور لها الكمال فى الحب ، أو الكمال فى الحرية ، أو الكمال فى
الأمل ، أو الكمال فى الألم ، أو فى أى ما شئت من معان وعواطف وأخيلة
أثيرية الحدود دائمة الاتساق والاتساع ، شعرت بأن فى الحياة معانى غير
هذه المعانى التى يحيها الناس ويجعلونها غاية جدهم ومنتهى أملهم ، وشعرت
بأن وجودها الحى بيننا يقتضى دوام محاولة السمو لدرك هذه الغاية . وكلما
تنزهت هذه المعانى عن مناسبات الحاضر وبلغت فى روعة تصويرها ما يرمى
للكون كله من كمال ، كان الشعر أكثر شعراً ، وأكثر أداء للغرض
المقصود منه ، وأكثر تحقيقاً لرسالته السامية فى هذا الوجود .

فن القصص

تكاد القصة اليوم في الغرب تستأثر بالأدب المنشور كله . وهي ولا ريب تتقدم كل ما سواها من صور هذا الأدب : فالرسائل التي كانت ذات مكانة سامية في زمن من الأزمان قد اختفت أو كادت ، والقطع الوصفية القائمة بذاتها ، والمكاتبات الأدبية الطريفة الأسلوب ، وما إلى ذلك من أنواع النثر ، قد اندمج في القصة وأصبح بعض ما تشتمله . وأنت إذا سمعت اليوم بكتاب رسائل لكاتب معروف كحديقة أبيقور لأناتول فرانس ، والحكمة والقدر لما ترلنك وغيرهما من مثلهما ، لم تجد لهما في عالم الأدب من المكانة مثلما كان لرسائل مونتني في القرن السادس عشر ولبعض رسائل روسو وفولتير في القرن الثامن عشر . وأصحاب هذه الرسائل أنفسهم إنما يكتبون كتب رسائلهم على سبيل التنويع بين العدد الكبير من القصص التي تجود بها قرائهم . ولم يذكر كاتب النقد الحديث أن كتابا من كتب الرسائل قد أثر في سيرة الجماعة تأثير قصة من القصص ، في حين يذكر كثير من هؤلاء الكتاب ما كان لقصة إميل في التربية لروسو ، ولرواية فرتير الخالدة لجيتي ، ولبعض روايات ملويير وزولا وفرانس وبول بورجيه وغيرهم من بالغ الأثر . بل إن كثيرين يعترفون بأن القصة الروسية في العصر الأخير منذ توليها دوستويفسكي ترجيف وتلستوي كانت ذات أثر بالغ في توجيه الحياة الأوربية كلها .

ويذكر مؤرخو الآداب أن فن القصص على الصورة المعروفة اليوم في الغرب فن حديث . لكنهم يذكرون كذلك أن القصص لذاته قديم

يرجع إلى أيام اليونان وإلى ما قبل أيام اليونان في مصر والصين . من اليسير أن يقدر الإنسان قدم القصص وأنه نشأ مع الإنسانية منذ نشأت ، ثم تطور بعد ذلك في صور مختلفة إلى أن وصل إلى الصورة الفنية المعروفة اليوم في الغرب . وأقرب دليل على ذلك ما نشاهده من ارتياح الأطفال للقصص وإنصاتهم لها وعظيم استمتاعهم بها . كذلك نرى أشد أنواع الأدب أثراً في نفس الجماهير أياً كان المدى الذي بلغته من الحضارة ، هو هذا النوع . هؤلاء « الشعراء » الذين يذهبون إلى الأرياف وإلى مقاهي المدن يقصون حكايات هترة وأبى زيد ودياب بن غانم يستثيرون من حماسة الجماهير بأدبهم القصصي هذا مالا سبيل إلى مثله عن طريق غير القصة من صور الأدب . والأطفال والدماء هم صورة الإنسانية في بدء حياتها . وإذن فقد كانت هذه الإنسانية مولعة بالقصص منذ نشأتها ، وقد كانت القصة من أول الصور للفن الأدبي ظهوراً فيها .

إلى جانب هذا الدليل دليل آخر يضارعه قوة أو يزيد عليه ، ذلك أن الحياة من أولها إلى آخرها قصة تتكرر في صور مختلفة باختلاف الأفراد واختلاف الأزمنة والأمكنة التي يعيشون فيها . ثم إن حياة كل فرد من الأفراد تتكون في مجموعة من القصص الصغيرة أو الكبيرة . وماذا تراك تذكر لصاحب لك حين تراه بعد انقطاعك عنه أياماً أو شهوراً أو سنين ؟ أولاً يسأل كل منكما الآخر عما فعل الله به أثناء انقطاعكما ، فيقص عليه صاحبه ما حدث له في هذه الأثناء وما وقعت عليه عينه أو اتصل به خبره ؟ والقصة بوصفها فناً لا تزيد على جمع هذه الأخبار التي يتحدث الناس بعضهم إلى بعض بها ، واختيار طائفة من بينها ، وخلق صورة حية منها تمثل عالماً خاصاً له مميزاته وأشخاصه وما وقع لهؤلاء الأشخاص من خير وشر ، وما أثروا في البيئة المحيطة بهم وما تأثروا بهذه البيئة .

ونحن واجدون من رواية التاريخ ما يعزز هذين الدليلين ويزيدهما قوة .

تفهمها . والقصاص المؤرخون الذين يكتبون بهذا الأسلوب وهذه الغاية يقيمون فناً من فنون الأدب ، ومن أسمى فنون الأدب .

ولقد اتهم الأدب العربى القديم خطأ بخلوه من القصص . وكانت دعامة أصحاب هذه التهمة أن ليس فى الأدب القديم من القصص والقصائد القصصية المطولة مثلما فى تاريخ اليونان . لكن القصص كما أسلفت قديم ، وهو فى الحقيقة قوام الأدب العربى المنثور كله . وبحسبك أن ترجع إلى أى كتاب من أمهات كتب الأدب لتراه جامعاً بين دفتيه من الأقاصيص القصيرة ومن القصص الطويلة مالا شبهة عندى فى أن الخيال كان له الأثر الأول فى وضعه ، وأنه لذلك بعض فنون الأدب . ولهذا لا يصح أخذه حجة تاريخية على الوقائع التى رواها وإن صح اتخاذها حجة على نفسية الأمة الإسلامية فى الأوقات التى أنشئ هذا الأدب فيها واعتباره وثيقة وسنداً تاريخياً من هذه الناحية . وبحسبك أن تعود إلى كتاب الأغاني وإلى كتاب العقد الفريد وإلى كتب الأمالى لترى مادة الأدب فيها مقصورة على رواية قصص الغرام أو الحماسة أو ما إليها من أنواع الرواية . ويتعذر على أن أعتقد أن الرواية التى يروونها عن حروب وائل وما فيها من الأشعار المنسوبة لجليلة ولغير جليلة تمثل وقائع تاريخية . ولست بهذا أنكر وقوع هذه الحروب ، كما لا أنكر جمال الرواية التى رويت عنها ، وما للعرب فى ذلك على التاريخ والأدب من فضل . لكنى أعتقد أن الرواية الأدبية الجميلة التى وضعت لهذه الحروب والأشعار التى وضعت على لسان أبطالها ، إنما وضعها أديب قصاص أراد بما خلعه عليها من روعة الفن أن يجعلها أعذب فى النفس وأسلس مدخلا إليها ، وهو فى ذلك إنما صنع ما صنع هوميروس حين وضع إلياذته وأجرى فيها على لسان أبطال تاريخ اليونان ما أجراه من أدب رائع هو لليونان فخر ، لأنه من صنع هوميروس اليونانى ، وهو لتاريخ اليونان فخر كذلك لأنه يمثل بطولتها

اختلاف النزعة التي نزع إليها كل واحد منهم ، كذلك تخطى أدب القرن الذي نعيش فيه - والعهد الأخير من القرن التاسع عشر - الرياليسم والساتورالسم إلى صور أخرى بدت مختلفة في أدب « لوتى » و « أناتول فرانس » و « بول بورجيه » و « جول لومتر » وغيرهم ، ولكنها تعبر جميعاً عن ميول العصر العلمية وعن الحرص على الطرق التحليلية في البحث ، وعما تدفع إليه هذه الطرق التحليلية في أحيان كثيرة من التشكك واللاأدرية . وها نحن أولاء نرى في وقتنا الحاضر الرواية النفسانية تجاور الرواية الإباحية ؛ لأن هذا العصر الذى تمحضت الحرب عنه لما يهتد إلى سبيل تتحد فيه الغاية وإن اختلفت فيه وجهة النظر ، وهو مدى يجمع بين المتناقضات ، لعل احتكاكها يثير منها شراً يهديه الطريق إلى الحق وإلى السعادة بعد ما انبهم عليه هذا الطريق وبعد ما ضل فيه رشاده .

* * *

نستطيع أن نقول إن القصة تطورت في الأدب الغربى بما يجعلها تمثل عصوره المختلفة إلى عصرنا الحاضر . وإذا كانت لدينا بعض قصص تمثل تفكير عصر من العصور ، كما تمثل قصة حى بن يقظان التفكير الدينى الحبر فى عصر ابن الطفيل ، فإن ما يؤهّى به الأدب العربى بعد ذلك من قصص فيه من الخرافة الشيء الكثير . هى ولا ريب خرافة قوية لا تقل روعة ولا انفساح خيال عن أساطير الميثولوجيا المصرية واليونانية القديمة ، لكنها مع ذلك تمثل حالاً نفسية لعصور لاغلو فى تسميتها عصور التدهور . فكتاب « ألف ليلة وليلة » الذى جمع القصص الرائعة الخيال الباهرة التركيب والذى لا يزال عند الأمم كلها يعتبر مصدراً من مصادر الأدب القوى ، لا يخلو فى كثير من أجزائه من الخرافة التى كانت سائدة فى العصر أو العصور التى كتب فيها . ومع ما فيه فى كثير من الأحيان من دقة تصوير الواقع من حياة الأسرة وحياة

في صور مختلفة وألوان شتى . قد يختلف وضوح الفكرة والمثل الأعلى باختلاف مقصد الكاتب ؛ فقد تكون الفكرة ويكون المثل الأعلى هما الغاية من القصة ، ويكونان لذلك هما الواضحين فيها ، كما ترى في قصة حى بن يقظان ، وكما ترى في قصة إميل عن التربية لروسو ، وكما ترى في قصص الوزير الإنجليزي الكبير دزرائيل الذى كان كلما ترك الحكم والبرلمان عاد يكتب القصص يمثل فيها ما يجول بخاطره من صور إصلاح الجماعة الإنجليزية . وقد يكون قصد الكاتب إلى غير الفكرة ؛ قد يكون قصده فنياً بحثاً . لكن كل إنسان واسع الخيال محب للجمال قدير بذلك على أن يدع في الفن ، لا يمكن أن يلهم في فنه ما لم تكن له فكرة يرمى إليها ومثل أعلى يطمح إلى تحقيقه . فالأدب فن . وكل من لا تحركه فكرة ولا يستهويه مثل أعلى من أرباب الفن لا قيمة لفنه ولا بقاء . والقصة في الأدب العربى الحديث ما تزال أغلب أمرها تستلهم القصة الغربية مقلدة إياها في صورتها غير صادرة في الوقت نفسه عن فكرة ومثل أعلى يحركان نفس صاحبها . وإذا كان التقليد في أغلب الأحيان مقدمة البعث ، وكان تقليد الأدب اليونانى والرومانى مقدمة بعث أوروبا في القرن السادس عشر ، فإن البعث الصحيح هو الذى يقوم على فكرة ويلهم مثلاً أعلى . فنحن ، إلى أن نصل إلى التأليف القصصى القائم على هذا الأساس ، إنما ننفع في حياة القصص روحاً تقليدياً صرفاً ، روحاً لا يسمى بعثاً حتى يستقل بنفسه ويستمد كل مقومات حياته من البيئة المحيطة بالكاتب ومن القومية والوراثة التى يخضع الكاتب لأثرهما .

والحقيقة أن القصص على انفساح ميدانه وتشكل صوره وألوانه لا يكنى فيه مجرد المحاكاة والتقليد إذا أريد به أن يكون ذا قيمة تكفل له أن يحشر في ظاهرات فن الأدب . لذلك كان الكتاب القصصيون - الذين استحقوا

أنصاف الحقائق لا الحقائق الكاملة ، فإن ما في طبيعة الفن من سهولة التناول بما يمكن القارئ من التحصيل منه أضعاف ما يحصل من مقررات العلم قد يكشف له أنصافاً وأنصافاً من الحقائق تجلو له الحقيقة كاملة آخر الأمر . وبعد ، فهل يستلهم الفن غير العلم في آخر صوره ؟ وهل يعبر إلا عن آخر مقرراته ؟ هذا إلى أن الفن كثيراً ما يسبق العلم إلى الكشف عن الحقائق ، وكثيراً ما يصل إلهام الفنان إلى ما تضطرب أمامه أدوات العلم عصوراً وعصوراً قبل أن تصل إلى إقرار ما كشف الفن عنه . وإن كثيراً من العلماء الجنائين وغير الجنائين ليرون في كثير من روايات شكسبير أقباساً من إلهام الفن كان يعتبرها العلماء بعض نزغ الخيال في الماضي ، ثم انتهى العلم إلى الاعتراف بصحتها ودقتها . من ذلك وصف شكسبير لمكبث حين قتل دنكان وظل ويداه ملوثتان بالدماء يضطرب أمام جريمته ويناجي نفسه بأن ما في الأرض من بحار والغيث يمددها بتهتانه لا يكفي لتطهير يده من الدم . كم رأى الناقدون في هذا من عبث الخيال حتى أثبت العلم الجنائي صحة ما ذهب إليه شكسبير من أن الجانى لا يحرص ، في فزعه مما اجترحت يده ، على ستر آثار جنايته في حين هو شديد الحرص على التمسح بهذه الآثار . كذلك قل عن هملت وجنونه ، فقد أثبت العلم ما بلغه إلهام شكسبير من توفيق لم يصل العلم إليه إلا بعد مئات السنين من بعد شكسبير . فإذا قيل مع هذا إن الأدب إنما يعبر عن أنصاف الحقائق ، كان لنا أن نقول إن الأدب ، والفن القصصى بنوع خاص ، هو الكفيل بنشر ما يكشف العلم عنه من حقائق ، كما أنه طليعة العلم في استلهاهم الحقائق يضعها أمام العلماء لبحثها وتحقيق صحتها وللفن القصصى إلى جانب ذلك فضل إلهام غيره من الفنون الجميلة ؛ فهو أسبق من الشعر ومن التصوير ومن الحفر ، بل من الموسيقى نفسها ، إلى

أنفسهم وقفوا هذه الوقفة متسائلين عن السبب في عدم ذبوع هذا الفن من فنون الأدب سواء في الشعر أو في النثر ، في حين هو قد يقف من الأدب الغربي في الدروة من كل فنونه . والحق أن هذا الإنفلال الغريب في فن القصة والرواية يدعوا إلى العجب وإلى الدهشة . وهو كذلك بنوع خاص في مصر . فللمصريين في تاريخ الأدب القصصي مكان كريم ؛ إذ يرجع إليهم - على أرجح الروايات - فضل « وضع ألف ليلة وليلة » وكثير من القصص المتداولة اليوم والتي كتبت في عصور سابقة ولم تصل دراسة الأدب إلى تحقيقها تحقيقاً مضبوطاً . ثم إن حب الرواية والقصص في الطبيعة المصرية د حتى لتجد أهل القرى أحرص الناس على رواية الكثير منها لأبنائهم وذويهم وأصدقائهم في الكثير من أوقات فراغهم . وليست الحوادث الوجدانية بالقليلة ولا بالنادرة الوقوع حولنا حتى تهتم الحياة المصرية بأنها قاصرة عن إلهام هذا الفن إلهاماً قوياً . ومسارح القصة في الطبيعة المصرية كثيرة . كما أن لهذه الطبيعة من الجمال وتعدد صوره وألوانه ما يعاون الكاتب على أن يخلق لقصصه مختلف البيئات ذات الأثر في إلهام عاطفة من العواطف أو مأساة من المآسى أو مهزلة من المهازيل . فكيف ، وهذا هو الواقع ، يكاد الأدب العربي الحديث يخلو من القصة ؟ وإلى أى سبب يعزى هذا النقص المعيب في فن مكانته من فنون لادب المكانة الأولى ؟

يحلو لبعض الكتاب من المستشرقين وغير المستشرقين ، أن يعزو السبب في هذا النقص إلى ضعف في الخيال يحول بينه وبين تأليف مجموع القصة . وإلى مثل هذا السبب يعزو أولئك الكتاب اقتصار أكثر كتاب مصر وأدبائها على نشر الرسائل الموجزة . وما أحسبني في حاجة إلى الإطالة في إدحاض هذا الزعم بأكثر من الإشارة إلى ما يقوله كتاب الغرب وساسته طعنًا في الشرق بأنه خيالي ، وبأنه لذلك لا يقدر الطريق العلمية في البحث ولا في سياسة الدولة .

إنجلترا ، فهذا السبب وحده لا ينهض إذن حجة للنقص الذى يلاحظه الكل فى شأن القصة والرواية العربية ، اليوم ولا بد أن يقترن به سبب آخر لم يكن موجوداً فى الغرب على حين هو موجود فى الشرق ، وهو الذى يدعو إلى تثبيط همة الكتاب عن القصة والرواية . بل لعل هناك أكثر من سبب واحد كما سنشير إليه من بعد .

ويجب كذلك أن نهمل ما يتهم به بعضهم كتاب مصر والشرق العربى من الميل إلى الكسل ومن قلة الإنتاج . فكتّاب المصيرين ليسوا أقل خصباً فى الإنتاج من أكثر كتاب الغرب إنتاجاً . لكن إنتاجهم لا يتجه كله إلى ناحية القصة والرواية ، بل يتوزع مجهودهم فى نواح شتى ، إذا هى جمعت دلت على عظيم ما يقومون به من مجهود وما يؤدونه إلى لغة بلادهم وآدابها من خدمة . وما أظننى مغالياً إذا أنا قلت إن كثيرين منهم أكثر مداومة للاطلاع وتدقيقاً فيه من كثير من كتاب الغرب . كما أن منهم من هم أعمق بكثير من الكتاب فى بعض أمم أوروبا المختلفة . ويكفى أن يرجع الإنسان إلى آثارهم ما نشر منها وما لم ينشر ، ما جمع منها وما لم يجمع ، ليقنع اقتناعاً صادقاً بأنهم يقومون - فى بيئة لا تقدر عملهم التقدير المشجع - بمجهود الجبابرة ، ثم لا يبتغون من ورائه جزاء ولا شكوراً . ما هو السبب الصحيح إذن فى فتور الأدب العصرى عن القصة والرواية ؟ أو بعبارة أدق ما هى الأسباب المجتمعة التى أدت إلى هذا الفتور ، وبخاصة فى مصر حيث الميل إلى القصة أصيل فى النفس منذ أبعد عهود تاريخنا حتى الوقت الحاضر ؟ . أشرت إلى أن اختلاف لغة الأدب ولغة الكلام مما يراه بعضهم سبب الفقر فى القصة والرواية ليس إلا سبباً ظاهراً لا يمكن أن ينهض وحده للدلالة على هذا الفقر ، وبخاصة أنه لم يحل فى أول «البعث» الأوربى دون ازدهار هذا الفن من فنون الأدب . والواقع أن هذا السبب يجب أن يضاف إليه أكثر من سبب

الرابع عشر الأثر الأكبر في معاضدة كبار شعراء العصر وكتابه ، ولسيدات « صالونات » الأدب الكبرى في القرن الثامن عشر الأثر الأكبر في حماية كبار كتاب ذلك العصر وتشجيعهم . ومع ما كان يهتم به بعض أولئك السيدات من الخفة والطيش ، فإنهن قد أدین لبلادهن أجل خدمة بما ظهرن به معاضدات لفن من أرقى الفنون وأجملها . ولو أن كتاب الشرق وجدوا مثل ما وجد كتاب القرن السابع عشر من معاضدة لويس الرابع عشر ، ثم لو أنهم وجدوا من حماية فضليات السيدات وعطفهن وتشجيعهن ما وجد أولئك وما وجد كتاب القرن الثامن عشر من بعدهم ، وما يزال الكتاب يجدونه حتى العصر الحاضر على صور تتفق مع حياة هذا العصر الذى نعيش فيه ، إذن لرأيت الأدب العربى ، ولرأيت الأدب القصصى بنوع خاص ، يجد من صور الإلهام ما لم يعرف حتى يومنا هذا ، ولوجدت فيه نشاطاً وجدّة وإبداعاً وفيض خيال ما أظن الغرب يستطيع أن يسابق الشرق فيه ، بل أجزم بأنه لن يستطيع أن يسبقه إن هو حاول مسابقته .

ولا أريد لأى اعتبار من الاعتبار أن أضعف من خطر هذا السبب من أسباب فتور الأدب كله ، وفتور الأدب القصصى والروائى منه . فلم يكن أثر السيدات هو الذى حفز الأدب فى الغرب وحده إلى نهضة كبرى كالتى نهضها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، بل كان كذلك هو الذى حفز الأدب دائماً فى كل الأمم وفى كل العصور . ولن تعوزنا الأمثال إذا نحن رجعنا إلى العرب فى الجاهلية وفى صدر الإسلام وفى أيام عظمته وازدهاره . وليس من المطلعين على الأدب العربى واحد لا يعرف ما كان لسكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب وحفيدة فاطمة ابنة النبی عليه السلام من أثر فى الأدب وإنهاضه وتشجيعه . هذا ، ولم تكن سكينة منفردة بذلك العمل وإن كانت منفردة بين ضريباتها فيه بشرف حسبها ونسبها واتصالها أقرب اتصال

وتكون سبب برمه بالحياة وشقوته فيها ؛ لأنها لا تكشف له من جوانبها إلا عن الفساد والنقص ، ولا تدفع إلى نفسه حب الحياة حباً صحيحاً . وكل فن لا يصدر عند صاحبه عن حبه لجانب من جوانب الحياة لا يمكن أن يزدهر . وفن القصص أكثر من سائر الفنون حاجة لحب صاحبه الحياة ؛ لأن القصص صورة الحياة .

وأنا إذ أقول بنقص تربية العاطفة عندنا أتمثل أمام عينيّ صوراً نراها كلنا كل يوم وقد نمر بها مستخفيين غير آبهين لها أو واقفين عندها في حين هي ذات مغزى عميق لو أدركناه دعانا إدراكنا إياه لتغيير نظرتنا وتصرفنا . وقبل أن أقف عند العاطفة التي تتصل بالغريزة الجنسية في نظر كثيرين لأعاجلها بشيء من التحليل يكشف عن النقص الذي أشير إليه ، أود أن أقف قليلاً عند عواطف أخرى أمتحنها بشيء من المقارنة لتبين للقارئ الغاية التي أرمى إليها ، ولتتضح أمامه الفكرة التي قدمت . ولنبدأ بعاطفة الإحسان ، وأقصد البر بمعناه السامي . فأنت إذا دعوت إلى اكتتاب لمستشفى أو لمدرسة أو لعمل خير أياً كان ، وكنت موضع ثقة الناس جميعاً ، ألفت مع ذلك ضعفاً في الإقدام لا يتغلب عليه في كثير من الأحيان إلا الإلحاف وإلا مطامع شخصية يرجوها المحسن من وراء إحسانه . فكثيرون لا يقدمون إلا رجاء رتبة ينالونها أو أملاً في مصلحة عاجلة أو آجلة تقضى لهم . هذا على أنك ترى في إنجلترا مثلاً كثيرين يتبرعون بالوف ومئات الألوف لأعمال الخير والبر مدفوعين بعاطفتهم ومن غير أن يطلب إليهم أحد إحساناً . بل يأبى كثيرون من هؤلاء أن يعرف اسمه ، ويكتفى أن يضع المبلغ تحت تصرف هيئة موثوق بها تتولى إنفاقه في وجوه الخير التي يقررها هذا المحسن المحبوب . ثم إن العاطفة لذاتها نامية عند الجمهور الإنجليزي نمواً تغبط إنجلترا عليه . فمستشفيات تلك البلاد تدفع نفقاتها من الإحسان العام يشترك فيه الناس كافة

من طبقات الأمة كلها بغير تمييز بين بائع الصحف والتاجر الصغير والثرى الكبير . وهؤلاء جميعاً يدفعون إلى المكلفين بتحصيل التبرعات عن طيب خاطر ، بل مع الشعور بالغبطة لأداء واجب يؤمنون فى أعماق نفوسهم بأنه فرض يؤلفهم عدم أدائه .

فلو أن تربية العاطفة عندنا كانت نامية نموها فى الأمم الأخرى ، لكان أدائنا واجب الإحسان صادراً عن عاطفة تامة النمو كاملة الشعور تنغص علينا الحياة إذا هى لم تؤد هذا الواجب أداء كاملاً .

وعاطفة الرفق وما يتصل بها من عاطفة النجدة مثلها عندنا مثل عاطفة الإحسان سواء . وكثيرون منا من يمرون بحيوان ضعيف سقط إلى الأرض قد هذه الإعياء ، أو بأخ لنا من بنى الإنسان هوى به الشقاء فألقى به مضطرباً على قارعة الطريق ، فلا تتحرك فى نفوسهم عاطفة ، اللهم إلا أن تكون حمداً لله على ما أنجاهم من مصاب كالذى تقع عليه أعينهم ثم يمرون به معرضين . والذين يصنعون هذا رأوا عشرات المرات جماعة من الناس تهذب فيهم عاطفة الرفق ، وما تكاد أعينهم تقع على مثل هذا المنظر حتى تتحرك عاطفة الرفق فى نفوسهم فتدفعهم إلى النجدة . فإذا فرغ أحدهم من نجدة الحيوان أو الإنسان المستحق لها ، لم ينتظر من أحد جزاء ولا شكوراً ، وانصرف وكل جزائه طمأنينة نفسه وراحة ضميره إلى أنه أدى واجبه الذى تمليه عليه عواطفه .

وأستطيع أن أعرض بالمقارنة لكثير من العواطف غير ما قدمت . على أنى أود أن أشير إلى بعض العواطف الأولية التى يردّها الكثيرون ، ومن بينهم بعض العلماء ، مرد الغرائز . تلك عواطف الحب وما يتصل بالحب من عواطف الأبوة والبنوة . وما أحسبني أغلو إذا أنا قررت أن الحب عندنا ما يزال قريباً جداً من الغريزة الجنسية ، محصورة دائرته أو تكاد فيما تلهمها

هذه العريضة لتخليد النوع وتحسينه . فأما المناطق العليا التي يرتفع الحب المهذب إليها ، فأما الحب بمعناه الإنساني السامي من الاشتراك التام في تمثيل الحياة قوة وجمالاً وسناء ، فأما الحب على أنه عاطفة إنسانية سامية أساسها إنكار الذات والرقى النفساني إلى عالم الخير والجمال والحق لنخلع من كل ما في هذا العالم على نفس أخرى تحاول من جانبها ما نحاول من التعاون على استيعاب كل ما في الحياة من رضا ونعيم ، فذلك ما قل أن يفكر فيه أحد أو يتصور وجوده إنسان . هذا ، ولو ربيت العاطفة وهذبت وسمت إلى المكان الذي تستطيع إن هي حاولت أن تسمو إليه ، لرأينا في الحياة غير ما نرى اليوم ، ولشعرنا بأننا نستطيع أن نقص من مشاهداتنا فتوناً من الأدب هي القصة الضعيفة اليوم لضعف تربية العاطفة عندنا بما يجعل عواطفنا كلها هزيلة أنانية لا تستطيع أن ترتفع عن مقام الغرائز إلا بمقدار ضئيل . وقد نشأ عن ضعف عاطفة الحب عن السمو إلى المكان الإنساني الجدير حقاً بها أن أصبحت عواطف الأبوة والبنوة نفسها بعيدة عما يجب أن تكون عليه من جهاد كل جيل لیسمو بالجيل الذي يليه في عواطفه كما يسمو به في علمه وعقله ، بحيث يدفعه ليقطع شوطاً جديداً في طريق الكمال . وإن كثيرين يشعرون بأن الصلات المادية كثيراً ما تكون ذات أثر في هذه العواطف القوية التي يجب ألا تتأثر بشيء من هذا ، حتى لقد يعقّ أبناء آباءهم وقد يحقد آباء على أبنائهم لغير شيء إلا لصلات مالية كان من الطبيعي ألا تخضع لها عواطف مقدسة كالأبوة والبنوة بأقل مقدار .

ما هو السبب في ضعف تربية العاطفة وفي نقصها هذا النقص المعيب ؟ تعود كثير من أن يقولوا إن السبب في ذلك يرجع إلى تربية البيت لا إلى شيء آخر . وهؤلاء يريدون أن يقيموا حداً فاصلاً بين التربية والتعليم ، بحيث لا يلحقون على المدارس والجامعات أية تبعه عن هذا النقص . وعندى أن هذا

غلو فاحش . وبطلانه يزداد وضوحاً كلما ارتفع مستوى التعليم وسمت الغاية التي يقصد إليها من العلم . فقد كان العلم عندنا إلى زمن قريب وسيلة للارتزاق وكسب العيش ليس غير ، فكان بذلك صناعة من الصناعات التي يتلقاها الناس ليكسبوا من عرق جبينهم بها ما يقوتهم ويقوت عيالهم . وكان الكثيرون من المتعلمين لا يزيدون لذلك على صناع أداتهم القانون : لرجل القانون ، أو المشرط للطبيب ، أو ما إلى ذلك من الأدوات لغير هاتين الطائفتين من المتعلمين . وكان ذلك واضح الأثر في حياة تلك الطوائف التي يسمونها تجوزاً ، طوائف المتعلمين . فأنتم لم تكن تكاد تخرج إلا بالقليل منهم عن النطاق الضيق الذي يعمل فيه لكسب قوته ، وإذا به قاصر العرفان إلى حد مخجل ، وإذا بك تستطيع أن تقول في غير غلو أو مبالغة إن القانون في يد رجل القانون والطب في يد الطبيب مثله كمثل الفأس في يد الزارع والمشار في يد النجار ، لا فائدة منه لتهديب النفس أو العقل ، وإنما الفائدة لكسب العيش . فأما الذين يندون عن هذه القاعدة ويقصدون من العلم والتعليم إلى غاية أخرى فأولئك شواذ موهوبون لهم فضلهم كما لهم ما تقابل به العدالة الطبيعية الفضل من نقص في نواح أخرى . وما دامت غاية العلم كسب العيش ولم يكن يقصد به إلى الخلق لذاته أو الجمال لذاته ، ولم يكن أمام المتعلم أى مثل أعلى غير الأناثية الوضيعة ، أناثية كسب العيش ، فمحال أن تسمو عواطف الشخص فوق مقام الغرائز إلا بمقدار ، ومحال أن يحس بالحاجة الملحة إلى السمو نحو مراتب الإنسانية المهذبة الدائمة الطموح إلى الكمال .

وقد كان يظن إمكان التعويض عن هذه الحال في المدارس المدنية ، بتعليم أسمى غاية في المدارس الدينية أو بعبارة صريحة في الأزهر والمعاهد التابعة له . فالدين بطبعه داع إلى الكمال ، دافع إلى استدامة البحث للوصول

إلى الحق ، ليؤمن صاحبه به عن معرفة وازعة على عمل الخبر ، وتهذيب العواطف الدافعة له إلى غاية حدود التهذيب . لكن الواقع يشهد بأن التعليم الديني عندنا ليس فيه شيء من هذا على الإطلاق ، وأن غايته هو أيضاً إعداد رجال الدين ليكون العلم الديني صناعة في أيديهم يكسبون بها عيشهم كما يكسبه الصانع والزارع والتاجر . وأنت إذا قصدت إلى حلقات الدرس في المعاهد الدينية لم تكذ تسمع للمعاني السامية التي نزلت الأديان لتثبيت الإيمان بها في النفوس ذكراً ، بل رأيت كل هذا العلم الديني مقصوراً على تدريس العبادات والمعاملات بصورة مادية جافة ، لا تخاطب القلب ولا تتصل بالروح ، ولا تفقه معنى الكمال ، ولا تتطلع إلى جناب الله ، ولا ترجو من الحياة إلا أن يفتح الله عليها من أبواب الرزق وألا يقتر عليها فيه .

الغاية من التعليم في المعاهد الدينية كالأغاية إذن من التعليم في المعاهد المدنية لا تتصل بالعاطفة ولا تعنى في قليل ولا كثير بأى شيء له بها عن قرب أو بعد صلة . وهذه الغاية لا تتوخى الحق ولا تريد النور ، ولا تحاول أن تصل بين الإنسان والحياة وكل ما في الوجود ، وإنما تتوخى الغاية الوضيعة التافهة ، غاية ملء البطن وبلوغ ما يمكن بلوغه من الترف . في مثل هذه الحال يصبح ألا يكون مخطئاً من يقول إن تربية العاطفة من عمل المنزل ، وإنها ليس لها بالتعليم أى اتصال . لكن هذه الغاية الوضيعة لا يجوز أن ترضاه أمة غاية للعلم فيها ، بل يجب أن تكون غاية العلم أسمى وأنبل من هذا بكثير ، يجب أن يكون العقل وتهذيب الروح والنفس بهديتها إلى الحقيقة التي يجب أن تكون مطمح نظر كل متعلم . والعاطفة حقيقة يجب أن يحلوها العلم في مختلف صورها كما يحلو كل حقيقة أخرى . وهذا هو الواقع في بلاد العالم المتمدن كلها . وكل شيء جلالة العلم تهذب - وسماً -

حتى المادة الجامدة التي لا حياة فيها ، والتي تحتوى مع ذلك قوة لم يكن أحد يعبأ بها حتى كشف العلم عنها وجعل منها مهذباً لهذه المادة الجامدة . فإذا سمت غاية العلم على هذا النحو كان قميناً أن يعتبر بحق وسيلة صالحة لتربية العاطفة في الإنسان ، تربية أساسها اشتراك الإنسان باعتباره فرداً مع الجماعة كلها ومع سائر ما في الوجود للكشف عن الحق ، ولعمل الخير ، ولتجلية الجمال .

ولست أقصد إنكار ما للتربية المنزلية من نصيب كبير في تهذيب عواطف الطفل بمقدار ما لها من نصيب في تهذيب ذوقه وروحه . لكنى أعتقد تمام الاعتقاد أن الفصل بين التربية والتعليم على نحو ما يحاول بعضهم أن يفعل ، أمر غير ممكن . وتربيتنا في معاهد العلم إنما تكمل من بعد تربيتنا المستمرة الناشئة عن اتصالنا بالحياة . وهذه السلسلة المتصلة تجعل لتعليم الآباء في دور العلم أثراً في تربية أبنائهم في البيت قد يعادل الأثر الذي يحصل الأبناء عليه من بعد في دور العلم . ونحن إذا أردنا البدء الصالح المثمر وجب علينا أن نلتزمه في دور العلم أولاً بالسمو بغاية العلم إلى التماس المثل الأعلى على نحو ما قدمت . يومئذ تسمو نظرتنا للحياة ، وترتفع عواطفنا فوق الغرائز حتى تقرب من الكمال ، ثم نورث ذلك أبنائنا بتنشئتهم عليه في البيت ثم في دور العلم ، فيكون لذلك أثره في الحياة فتسمو سمواً يجعلنا أكثر بالحياة استمتاعاً وأكثر فيها سعياً وإنتاجاً ، ثم يكون له في الوقت نفسه أثره في بعث القوة والنشاط إلى فن القصص والرواية من فنون الأدب ؛ إذ تقع أعيننا يومئذ على جماعة إنسانية ازدادت رقياً وتهذيباً ، فكانت بذلك أقوى إلهاماً لرب الفن بما يطوع له أن يجد في متباين صور العواطف المهذبة ما يدعوه إلى كمال فنه .

يضاف إلى هذه العوامل عامل آخر يبعث على الفتور ويدفع إلى

الانصراف عن الكتابة وعن الأدب . ذلك مالا يزال متحكماً في أخلاق الشرق من الميل إلى هدم كل رجل ذى قوة وموهبة ، وهدمه لأسباب لا صلة لها البتة بقوته وموهبته . فهذا كاتب قدير ولكنه يختلف معنا في الرأى السياسى أو ينافسنا في صفقة من الصفقات أو يثقل علينا ظله ؛ إذن يجب علينا هدمه أمام الجمهور وإن اعترفنا له فيما بيننا وبين أنفسنا بالتفوق والمقدرة . وما دمنا لا نستطيع أن نهدمه من طريق النقد التزيه فيجب أن نحتال لذلك من كل طريق آخر .

وكثيرون ، مع شئ كثير من الأسف ، يضعفون أمام هذه المهاجمات غير الشريفة ، ويرون فيها جحوداً لمجهود أكبر همهم منه خدمة لغتهم وبلادهم أكثر من خدمتهم أنفسهم ، فيعدلون عن متابعة سيرهم وينزعون إلى ناحية آمن لكرامتهم ولشرفهم وأكفل بحياة أكثر طمأنينة ودعة . وإذا كان من بين الكتّاب من لا يحفل بهذا الجحود ومن يثور في نفسه الضياء الذى ملأ القدر به روحه فيدفعه غير مختار ليفيض منه على الحياة ما يزيدها جمالا وندرا ، وليؤدى للفن الرسالة التى ألقى القدر عليه أداؤها ، فإن صاحب الموهبة لا يستطيع من غير معاونة الأنصار والمؤيدين أن يرى في حياته تمام النجاح لرسالته ، وإن كان هذا النجاح قد كفل لها ولو بعد موته . ولو أن الهدم خفت في النفوس وطأته وحل محله التقدير التزيه لثمرات الأقلام ، لقوى ذلك من هذا الضعف الذى يلاحظه الكثيرون في القصة والرواية في الأدب العربى .

ولا نستطيع أن نهمل عاملاً آخر له أثر في الجناية على الأدب . ذلك هو العامل السياسى . فقد كان من نتائج الحرب والحركات التى قامت بعدها في الشرق والغرب أن انصرف الأذهان عن التأمل في الحياة وجمالها إلى صور من النضال والكفاح لكسب حقوق سياسية جديدة ، أو لتنظيم شؤون

اقتصادية زعزعت الحرب أركانها ، أو ما إلى ذلك من الشئون العاجلة .
ومن طبيعة هذه الشئون أن تلفت الناس إليها وتبهرهم عن كثير سواها .
وهي لهم أكثر لفتاً وبهراً إذا هم رأوا من ورائها لأشخاصهم مكانة أرفع ،
أو مجداً أشد بريقاً ، أو رخاء ورغداً لم يكونوا يطعمون من قبل فيه . وهذا
العامل الذى شمل العالم كله كان أبعد أثراً فى الشرق ؛ لأن الحرب بعثت
إلى الشرق هزة عنيفة أبقتته من سباته وفتحت عيونهم على نواحي الحياة المختلفة
المتباينة ، فجعلته من أجل ذلك فى شىء من الحيرة أى طريق يسلك ، ثم كان
الطريق الأول والأقدس هو التخلص من حكم أمم الغرب إياه . وهذا
التخلص يقتضى نصالاً لا يقل قوة ولا خطراً عن نضال الحرب بين الأمم
المسلحة ، فكما تستنفد الحرب جهود الأمم كلها ، كذلك استنفدت هذه
الثورات السلمية كل جهود أمم الشرق ، وتدفع بالكتاب والأدباء إلى أن
يضعوا قواهم ومواهبهم فى خدمة بلادهم . وقد جزتهم بلادهم عن ذلك
بمازادهم تشجيعاً عليه وحرصاً على المضى فيه . وهم لا يزالون كذلك حتى
اليوم . وقد يطول ذلك بالكثيرين منهم إلى مدى يتعذر اليوم تحديده .
هذه العوامل كلها مجتمعة تجعل من المستحيل على الكاتب الذى أوفى
موهبة فى فن القصص والرواية أن يختص فيه وينقطع له . بل لقد صار كل
ما يستطيعه هذا الكاتب أن يحاول وضع الأقصوصة تلو الأقصوصة فى أوقات
فراغه . فأما أن ينقطع لدراسة موضوع يكون قصة أو رواية كاملة فقد
يقتضيه ذلك السنين الطوال . وقد ينتهى به الأمر إلى ألا يتم قصته إذا كان
بدأ فيها . والتخصص فى القصص كالتخصص فى كل عمل من أعمال
الحياة ، هو مفتاح النجاح والوسيلة الوحيدة للخصب فى الإنتاج وللوصول
إلى الثمرة الصالحة الجيدة . وهو كذلك بنوع خاص فى عصرنا الحاضر الذى
انفسح فيه ميدان العلم الإنسانى إلى حد أصبح معه المحيط بهذا العلم كله

محيطاً بقشور قليل ما يتصل بها من اللباب ، والذي أصبح كذلك بحيث يصبح الإنسان بعد دراساته العامة ، وبعد تحصيله منها أوفر حظ تمكن منه الدراسات في المدارس والجامعات ، في حاجة إلى التوجه في الناحية التي يميل عليه ميله التوجيه إليها فيتخصص فيها ، بل في فرع من فروعها . وقد يعجب قوم إذا ذكرنا لهم أن ميدان الأدب القصصي والروائي قد أصبح لذاته فسيحاً إلى حد يحسن معه أن يتخصص الكاتب في أحد فروعها لتعذر الإحاطة بفروعه كلها إحاطة يتيسر معها الإتقان والاقتراب من الكمال .

لكن الأمر في الواقع هو هذا . وأنت إذا عدت إلى أكابر الكتاب القصصيين وإلى أكابر الكتاب الروائيين رأيت لكل واحد منهم نوعاً خاصاً يمتاز به ويغلب عليه حتى يعرف به . فأنت ترى في بورجيه غير ما تراه في أناتول فرانس ، وغير ما تراه في زولا ، وغير ما تراه في فلوبيير ، وغير ما تراه في موباسان ، وأولئك كلهم من القصصيين الفرنسيين في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وفي هذا الثلث الأول من القرن العشرين . وأنت ترى لكل واحد منهم ميداناً خاصاً يمتاز به وتخصص فيه وقصر مباحثه على التعمق فيه وعلى معرفة ما سبق به إليه في العصور الأخرى وفي الأمم الأخرى . وهذا التخصص هو وحده الذي يجعل الإنسانية ترجو بلوغ الكمال في ميدان الأدب والفن ، كما أنه هو الذي يجعلها ترجو بلوغ الكمال في ميادين العلم المختلفة .

ولا يعترض علينا بأن كثرة القصصيين وغازاة المادة التي يأخذون عنها في أوروبا هي التي تؤدي إلى هذا التخصص ، على حين أننا ما نزال في حاجة إلى الإنشاء حتى ليدعونا ذلك إلى تقليد الغربيين أكثر مما يدعونا إلى الظهور بشخصية ممتازة لنا في عالم التأليف والأدب . فهذا الاعتراض على وجهته الظاهرة ضعيف متداع بطبعه ، وهو إن حدث عن شيء فإنما يحدث عن

ميل إلى عدم البحث والاطلاع على صورة من الدقة العلمية تكفل تكوين المذاهب في القصص والرواية تكويناً سليماً . وقديماً قبيحاً مثل هذا في الطب والمحاماة ، فظلت الصناعتان ضعيفتين في مصر حتى تخصص الأطباء كل في فرع من فروع الطب ، أو في بعض فرع من فروعها ، وحتى صار المحامون يعرف أحدهم بامتيازته في ناحية المعاملات المدنية ، والآخر في المعاملات التجارية وهلم جرا . وإذا كان مظهر التخصص في الطب أوضح ونتائج هذا التخصص فيه أكثر ظهوراً ، فذلك لأن الحكم والقاضي في شؤون الطب هي الطبيعة التي لا تخطئ أبداً . وحكم الجمهور في الأدب كحكم الطبيعة في الطب وفي الميكانيكا وفي كل ما هو غير خاضع لأخطاء الإنسان وشهوته ، وكما نجح الطب في مصر نجاحاً يقر به الكل في مصر وفي غير مصر منذ تخصص الأطباء تخصصاً تاماً ، فإن لا أرتاب لحظة في نجاح الأدب القصصي والروائي إذا عاونت العوامل الكتاب والموهوبين منهم بنوع خاص على التخصص فيه ، أو إذا جادت الطبيعة على هذه البلاد التي تتكلم العربية بعاقرة من الكتاب الذين يقدرون تقديراً صالحاً عظيمة الرسالة التي يحملونها ليلغوها إلى مواطنهم وإلى العالم كله ، فتغلبوا على الصعاب وهزموا العوامل التي أشرت من قبل إليها ولم يتأثروا بشيء منها حتى يصددهم عن السبيل التي تكفل اقتراب هذا الأدب خطوة أو خطوات من ناحية الكمالات .

على أن انتظار جود الطبيعة بالناطقة الفلد الذي يستطيع أن يحطم كل القيود ويتغلب على كل الصعاب ويتخطى كل العقبات ، ليس من شيمة الأمم التي تجاهد ما تجاهد مصر وسائر بلاد الشرق العربي لتتبوأ المكان اللائق بها في زمرة الأمم ، بل الواجب على الذين يشعرون ممن يقرءون هذا الكتاب بأنهم يستطيعون أن يتقدموا بأية معونة للتغلب على عامل من عوامل الضعف

والفتور التي ذكرت ، أن يقدرُوا الواجب العظيم الملقى على عواتقهم ليمهدوا
 لرجل الفن في القصص والرواية طريقه وييسروا سبيل نجاحه . وكل واحد
 منهم ، رجلاً كان أو امرأة ، يتحرك ضميره فيدفعه لأداء هذا الواجب ،
 يقدم لبلاده أجل خدمة ويبقى في التاريخ مذكوراً ما ذكر الكتاب
 والقصصيون الذين اتصلوا به واستمدوا المعاضدة أو التشجيع أو الوحي منه .
 والذين يقرءون تاريخ الأدب في بلاد العرب حين كان الأدب مزدهراً ، والذين
 يقرءون تاريخ أدب الغرب في العصر الحاضر ، يرون كيف اقترنت أسماء
 أنصار الأدب والعاملين لإحياء نهضته بالأدباء والكتاب أنفسهم وبالتواضع
 والأفذاذ منهم بنوع خاص . وهذا جزاء وفاق وحق يجب أن يؤدي إلى هؤلاء
 الذين يعززون الأدب بنصرهم وبتأييدهم . وإني لعلّى يقين ، إذا وقع هذا
 الذي أدعو إليه ، من أن ترى مصر وبلاد الشرق نهضة للأدب في زمن وجيز
 يكون لها في مصر وفي بلاد الشرق ، بل في العالم كله ، أثر يبهّر الأبصار
 ويخطو بالشرق كله خطوات واسعة في طريق البعث الذي بدأ منذ زمن ليس
 بالقصير . إذ ذاك تثبت خطاه وتزداد سرعة عما كانت منذ حفزته الحرب
 الكبرى إلى أسمى معاني المجد والعظمة والحرية .

التأليف المسرحي

ليست لغة المسرح هي ما أقصد أن أتكلم عنه ، وإن كان الناس قد ألفوا قراءة بحوث مستفيضة يفاضل أصحابها بين اللغة الدارجة أو لغة الكلام وبين اللغة الفصحى أو لغة الكتابة ، وأيهما أصح لتكون لغة للمسرح . وليست ترجع رغبتى عن هذا البحث إلى استهانة منى بأمره أو اعتقاد أن ما يمكن أن يقال فيه قد نفذ كله . وإنما ترجع من ناحية إلى أنى أميل إلى الحرية المطلقة ، فلا أرى أى ضير فى أن يكتب مؤلف مسرحى باللغة الفصحى ، وآخر باللغة الدارجة ، وبأية لغة دارجة من مختلف اللهجات التى نسمعها فى مصر وفى غير مصر من البلاد التى تتكلم العربية ، والتى تصل لهجاتها أحياناً إلى أن تصير رطانة غير مفهومة عند أبناء بلد آخر يتكلم العربية . وترجع من ناحية أخرى إلى اعتقادى أن هذا الخلاف حول لغة المسرح صائر بطبعه إلى الزوال . فإن انتشار التعليم فى البلاد المختلفة انتشاراً سريعاً يقضى على الأمية ، من شأنه أن يقرب بين لغة الكلام ولغة الكتابة ، وأن يجعل اللغة التى تكتب بها الصحف ويكتب بها الأدباء هي لغة الحديث ولغة الكتابة فى وقت معاً ، مع فوارق بسيطة لا يقام لها وزن ، ويومئذ تصبح لغة المسرح كما تصبح غيرها من اللغات هي اللغة الفصحى فى متعارفنا نحن أهل هذا الجيل أو الجيل التى تكتب هذه اللغة فيه . فإذا أراد مؤلف بعد ذلك أن يختار لقطعة مسرحية لهجة دارجة كان ذلك تأنقاً فى الفن لا بأس به . ونحن فى هذا كغيرنا من الأمم . فأنتم تسمع فى إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا لهجات فى الشمال تختلف عن لهجات الجنوب ، لكن لغة المسرح هي لغة الكتابة للجميع من غير أن

يحول ذلك دون قيام مؤلف متأق بوضع قطعة بلهجة مقاطعة من المقاطعات أو ناحية من النواحي .

على أن هذا الحل لمسألة التأليف المسرحي من ناحية اللغة لن يحول دون ظهور مشكلة أخرى وموضوع جدير بالبحث ، كما كانت لغة المسرح جديرة بالبحث من سنوات ماضية . هذه المشكلة هي اللغة القديمة والشعر القديم ، وهل يجب أن تكون ثروتنا المسرحية الحاوية لطائفة من القطلع التمثيلية مكتوبة بهما . وقد أثير هذا البحث من ناحية عملية حين ترجم الأستاذ خليل مطران بعض روايات شكسبير في لغة عربية فيها من الفخامة والجزالة ما يتفق مع لغة شكسبير وما قد يعتبر من غير لغة الكتابة في عصرنا . وهو قد أثير حين وضع شوقي بك روايته الشعرية « مصرع كليوبترا » ورواياته التي جاءت بعدها ومثلت على المسرح ، فكانت صورة جديدة من اللغة المسرحية لم تؤلف من قبل . على أن هذه الإثارة العملية للبحث لن تكفي فيما أظن ، لسد حاجات اللغة على وجه يرضى أقطابها . وأعتقد أن البحث سيثار من ناحية نظرية أيضاً ليعرف : أمن الواجب أن يوجد في القطلع المسرحية العربية نوع من « الكلاسيك » الذي يصل الحاضر بالماضي ، أم نحن نستطيع نسيان هذا الماضي والاكتفاء ببذل كل جهودنا للتجديد للمستقبل . وسيصل هذا البحث وسيتفرع إلى بحوث أخرى ، منها : أيجب أن ترجع الصلة بين الحاضر والماضي إلى بلاد العرب فتتصل البلاد التي تتكلم اللغة العربية جميعاً بتاريخها وثقافتها وآثارها وتعاليمها ، على نحو ما اتصلت أمم الغرب كلها باليونان وروما القديمتين ، أم أن ترجع الصلة بين الحاضر والماضي إلى صلة كل أمة بماضيها ، فترتبط مصر بالفراعنة ، وطرابلس (برقة) بقرطاجة ، وبلاد الشام بفينيقية ، وأن تربط اللغة العربية السليمة بين هذه الثقافات المتصلة كلها ، وتجعل منها وحيّاً للأدب يقصد منه

إلى إحياء الأدب العربى فى ظل كل واحدة من هذه الثقافات المختلفة ؟
أحسب أن هذا البحث سيثار عما قريب ، وبخاصة حين تخرج المدرسة
الجديدة من طلاب الأدب الذين يدرسونه اليوم على طريقة علمية صالحة .
على أن هذا البحث ليس هو أيضاً غرضى من هذا الفصل عن التأليف
المسرحى . وإنما أقصد منه إلى ما يجب أن يتناوله هذا التأليف المسرحى ، من
ناحية أنه فن من فنون الاجتماع ، من موضوعات . وقد دفعنى إلى تناول
هذه الناحية من المسألة ما قرأت ورأيت من قطع مسرحية مؤلفة بعد الحرب .
فهذه القطع كلها ، أو الكثرة الظاهرة منها ، تتناول صور التطور الذى
اتجهت الإنسانية بعد الحرب وبسببها نحوه . وكلها ، أو الكثرة الظاهرة منها ،
تحاول توجيه تيار هذا التطور بهذيب شذوذه وردة قدر المستطاع ليندفع فى
الناحية الطبيعية ، أى فى الناحية الأكثر جدوى على الإنسانية فى رقيها وفى
سعادتها فى ظل الحضارة الغربية الحاضرة .

من بين ما تتناول هذه القطع التمثيلية من الموضوعات ما خلفته الحرب
من أثر فى شأن الرجل والمرأة واتجاه كل منهما فى الحياة ونظرتيه إليها وعلاقة
كل منهما على أثر ذلك . فقد كان من أثر الحرب أن أصبح الرجل غير مبال
للعمل المتصل والكدح المستمر ، بل صار ميالاً للمخاطرة والمجازفة يلتمس
من طريقهما الثروة وبعده الصوت ورفيع المكانة ، كما كان إبان الحرب
يلتمس من طريقها الظفر والنصر أو الموت والاستراحة من عناء الحرب والحياة .
أما المرأة فقد ألقت الحرب عليها أعباء ثقالاً خلال أربع سنوات متتالية ،
فكانت فى الدار الأب والمرعى والمجدد لرزق البنين والبنات والعامل لرفاهية
الأسرة كلها ، وكانت خارج الدار العامل الذى لا يمل فى الإسعاف
والتمريض وفى المعمل والمصنع . لذلك أفادت من الحرب حرية بمقدار ما
حملت من عبء التبعة ، وازدادت شعوراً بقوتها على الحياة بمقدار ما

استطاعت أن تكافح لها ولذويها ولوطنها في الحياة . وهي اليوم تحاول أن تستبقى هذه القوة وتلك الحرية بإزاء الرجل ، وأن تنظم علاقاتها معه على أساسهما . أما هو فقد أصبح يعتبر الهجوم سبيل النصر ، وانتهاز الفرصة وسيلة الغنيمة ، والمجازفة مفتاح التحكم والاستعلاء . على أن هذه الصفات الجديدة التي أكسبتها الحرب الرجل والمرأة لم تترع بطبيعة الحال ما فطر عليه من سلائق وعواطف تضطرب بين جوانحهما وتجيئ بها دخائل وجودهما . لهذا اضطربت العلاقات بينهما على أثر الحرب اضطراباً أشار الكتاب والاجتماعيون إليه ونظروا مبهورين يلتمسون الوسيلة إلى القضاء عليه . ومن بعض الوسائل تحليل أسباب هذا الاضطراب وردها إلى أصولها وإظهار الجماهير عليها ، حتى تسترد قوى التنسيق بين العقل والعاطفة وبين السليقة والشذوذ . وقد لفت نظري في هذا التحليل استفزاز عاطفة النبل والكرامة عند المرأة لمحاربة هذه الوحشية المفترسة في سبيل المال مما أصاب الرجال على أثر الحرب داؤه . فهاته فتاة مهذبة متعلمة قوية على الحياة شاعرة بحقوقها في الحرية ، يحبها رجل في مثل تهذيبها وثقيفها ، ولا تشعر هي نحوه بمثل العاطفة التي يشعر هو بها نحوها . ذلك بأنها وضعية المنبت ، وهي تريد أن تتخذ من شهاداتها وتهذيبها وسيلة للاستعلاء على منبتها . ويتصل بها شاب من المستمتعين باللقاب الشرف ، أو من « الدوات » إن شئت تعبيراً مصرحاً ، فترى هي في علمها وشهاداتها ما يوازي شرفه ، فتتعلق به وتود لو تكون دوقه ، جزاء لها على ما أنفقت في تعلمها . لكن الدوق لا يعنيه العلم ولا يهيمه التهذيب ولا يطمع في أكثر من أن يجعلها متعة هواه وفريسة ما أفادته الحرب من مغامرة . ويذكر لها صديقها المتعلم الذي يحبها ، أن الدوق لا يعنيه علمها ، وأنه إنما يحبها لو أنها أصبحت إحدى نجوم السينما أو إحدى ملكات الجمال . وبرغم فقرها من أن تظهر في هذا المظهر فإنها تنتهي بأن تعرض نفسها في معرض

الجمال وتصبح مس فرنسا ، فمس أوروبا ، فمس العالم . هناك يجن الدوق بها ويخطبها ويحدد موعد العقد عليها . لكنه قد أضاع ثروته ، فلا بد من أن يستفيد من ملكة الجمال في العالم يعرضها على مسارح أمريكا وأوروبا ويصبح وإياها نجماً مسرحاً أو نجماً سينما . هناك يثور شرفها وتثور كرامتها وتثور بها التعاليم التي تلقتها ، فتعلن في الصحف أنها انتحرت ، وتذهب إلى صاحبها الأول تعرض عليه ما حل بها من كارثة ، وتنتهي بأن تصبح زوجاً له تعيش معه في ركن ضيق من الأرض تتمتع بنعمة الأمومة وسعادة الزوجية بعيدة عن المغامرات المخجلة المزرية بكل علم وكل كرامة .

وتلك فتاة مهيبة متعلمة قوية على الحياة شاعرة بحقوقها في الحرية ، تزوجت رجلاً مقامراً يريد الثروة والغنى العاجل ، فيضارب في البورصة فتصيبه الخسارة تهوى به إلى حضيض الجريمة ، ثم يعلم أن زوجه هذه ورثت سبعة ملايين من الفرنكات مع ابن عم لها ورث سبعة ملايين مثلها . وكانت الزوجة قد سئمت هذه الحياة المادية الوضيعة التي لا ترمى إلى مثل أعلى ولا تطمع في غير المال تحتبله بكل الوسائل ومن مختلف الطرق . وزادها سأمًا أن أصبحت أمًا ، وأن صارت تخاف أن يفسد هذا الغارق في حضيض المادة كل المعاني الإنسانية في نفس ابنته . ثم كان ابن عمها الذي ورث مثلما ورثت قد وهب نفسه للفقراء والمحتاجين : يقوم على تربية أبنائهم وحسن توجيههم في الحياة إلى أسمى ما في الحياة . فلما علم بما ورث أبي أن يقتضيه لأنه لم يكن نقيّ المورد إذ كان لخالة ساءت زمناً ما سيرتها . وأعلنت الأم البائسة أنها تنزل عن سبعة الملايين التي لها هي أيضاً ، فجئن جنون زوجها وذهب يلتمس عون ابن عمها كي يردها عن عزمها . وبعد لأي قبلت أن تنزل له عن سبعة الملايين مقابل طلاقها وتسليمها ابنتها . فلما تمت الصفقة صاحت مبهجة : لقد باعني ابنته ! ووقفت حياتها على ابنتها تربيها

تربية سليمة وتوجهها إلى مثل أعلى .

ليست تقف موضوعات التأليف المسرحى عند هذا النوع من الإصلاح الاجتماعى . على أنها تحاول فيما تتناول منه تحليل أسباب الاضطراب النفسانى والاجتماعى الذى خلفت الحرب لتظهر الجماهير عليها كى تسترد قوى التنسيق بين العقل والعاطفة وبين السليقة والشذوذ . ثم هى تتناول كذلك أنواعاً أخرى اهل الفن وحده هو صاحب الإيماء فيها . على أنها بالرغم من ذلك تتناول جانباً من الحياة كما يراه الناس ، وتتناوله بالتحليل أو بالعرض أو بالنقد ، ثم إنها فى كل حال تتناول جانباً من الحياة على ما نراها ونحسها ، فتجعلنا لذلك نرى صور الحياة من أحد جوانبها حين نرى هذه القطع تمثل على المسرح . قد يكون هذا الجانب تافهاً ، وقد يكون ضعيفاً ، وقد لا يرى البعض أن يتوجه إليه بأية عناية خاصة . لكنه على كل حال من الحياة التى نحيا ؛ فهو لذلك يمسننا من ناحية الحس أو الشعور أو التفكير أو العقيدة ، ويحرك فينا واحدة أو أكثر من هذه النواحي بمقدار قل أو كثر . وفى اعتقادى أن هذا هو الهم الأول للمسرح . فأما ما يكون فناً للفن من غير أن يكون ماساً بالحياة ، فمن صور الكمال المستحبة ، ومما يجب أن يفكر الكتاب المسرحيون فيه تفكيراً جدياً ، ولكن مع هذا الاعتبار دائماً ، وهو أن هداية المسرح الجماعة فى الحياة يجب أن تنال أوفر حظ من العناية ، ويجب أن تكون عند رجال المسرح فى المكان الأول .

حاول بعض الكتاب المسرحيين فى مصر ، وفى مقدمتهم المرحوم محمد تيمور ، أن يجعلوا غايتهم من قطعهم المسرحية هذا التوجيه الصالح لتطور الجماعة إلى الناحية الأكثر على الإنسانية جدوى فى رقيها وفى سعادتها ، فانتزعوا من وقائع الحياة فى مصر صوراً أبرزوها على المسرح لتمس

من الجمهور بعض نواحي الحياة ، ولتستفز منه العقل أو العاطفة أو العقيدة . ولست أحاول أن أحلل أو أنقد بعض هذه القطع . لكن هذا المجهود الصالح لم يصل إلى غايته ولم تتداوله الأيدي بمقدار تتجلى معه من الحياة نواح كثيرة ، فتوجه في نفس المطلع على القطع التمثيلية المختلفة تيار التطور إلى الناحية المراد أن يتجه إليها . ولعل لا أغلو إن قلت إن كثيراً من هذه القطع كانت تنقصه روح الفن التي تضاعف الحياة على المسرح مضاعفة تجعل ما يتركه من الأثر في النفس قوياً عميقاً لا يتبخر ولا يزول بعد مغادرة المشاهد المسرح بسويغات . قد يذهب بعضهم إلى أن جانباً كبيراً من اللوم في هذا يقع على الممثلين الذين لا ينقلون إلى الجمهور كل ما يريد المؤلف أن ينقله إليه من صور الحياة ، ولا يوجهون هذا الجمهور إلى ما يريد المؤلف أن يوجهه إليه ليندفع تيار تطوره إلى ناحية خاصة . لكنني أعتقد من جانبي أن المؤلف جدير بمقدار من اللوم أكثر من الممثل ، وهو جدير بكل اللوم أن كان واجباً عليه هو أن يختار الممثل الذي ينقل قطعه المسرحية إلى الجمهور . وأكبر ظني أن لو اختيرت الموضوعات من واقع ما تضطرب به الحياة اختياراً يجعل الموضوع لذاته قوياً أخذاً ، لكان هذا الاختيار نفسه جديراً أن يسمو بالممثل إلى ما لا تسمو به إليه القطع التي تمثل اليوم والتي تعتمد أكثر أمرها على الخيال البعيد عن قوة تصويره ما في الحياة التي نرى ونحس .

نعم ! فإن كثيرين من كتابنا وممثلينا يظنون المقدرة غاية المقدرة في إبداع ما لا تستطيع الحياة إبداعه . وأنت أكثر ما ترى على مسارحنا مآسى ومهازل منقولة عن اللغات الأوربية . والغرض من أكثرها لا يعدو إلهاب خيال الجماهير الساذجة القاصرة الخيال ، والتي تريد لذلك أن ترى في المدهش وفي المعجب والمطرب ما يعوض عليها قصر خيالها . وهذا الضرب

من التأليف ومن التمثيل أقرب الضروب إلى ما يرغب الأطفال عادة في مشاهدته في خيال الظل و « القراكوز » ونحوهما . وإذا كان هذا النوع من الفن مما يثير إعجاب البعض فهو في نظري ليس بالفن ، الذي يؤدي للحياة رسالة الفن الجدير باسم الفن ، والذي يتصل بالحياة ويسبقها في تصوير سبيل الكمال لها وفي تشذيب ما بها من شذوذ يعوقها عن سرعة السير في سبيل الكمال هذه . وهذا الفن هو الذي ندعو إلى دراسته وإلى جعله موضع التأليف المسرحي .

وليست هذه الموضوعات بالقليلة أو التافهة في مصر . بل إن مما تنقل الصحف السيارة من أخبار وحوادث قد نمر عليها من غير أن تقف تطلعون عندها ، ما يجدر بالعناية والدراسة والبحث ، وما يصلح خير صلاح ليكون قطعاً تمثيلية إذا أتقنت من ناحية التأليف كانت من خير ما أخرج للناس في مختلف البلاد والأمم . لكن العناية والدراسة والبحث تحتاج إلى مجهود . وقد أصابتنا الحرب بما أصابت به أوروبا من السعي للفرار من كل مجهود متصل مضن ولكنه عظيم النتيجة عميق الأثر .

هل لنا أن نرجو التغلب على هذا الهمود الذي أصابنا في نواح كثيرة منها ناحية التأليف المسرحي ؟ وهل للمؤلفين المسرحيين عندنا أن ينظروا إلى هذا الفن نظرة جد ، وأن يعتبروه جديراً بمجهود مثابر منتج ؟ وهل لكتابنا الذين يعنون بهذه الموضوعات أكثر من عنايتنا ، والذين يعرفون لذلك أسباب ضعفها وقوتها أكثر مما نعرف ، أن يكشفوا عن الأسباب وعن وسيلة التغلب على الضعف واستثارة مقومات القوة ؟ إن النجاح في هذا وما قد يكون أثراً له من النجاح في التأليف المسرحي خليق بأن يوجه تطور الأمة توجيهاً صالحاً لم توفق حتى اليوم له . وهذه غاية سامية جديرة بأكبر الرعوس وأنضج العقول .

الأدب القومي

عرفت بباريس في ربيع سنة ١٩١٠ فتاة من كندا نزلت هي وأمها بالنزل الذي كنت به وأقامت فيه أسبوعين ، ثم غادرته هي وأمها إلى ألمانيا في واحدة من تلك الرحلات التي يعكف أبناء أمريكا عليها حتى لأحسبهم يعتبرونها بعض واجبات الحياة . وكنا أهل النزل جميعاً نقضى ما بعد العشاء في صالون بغرفة المائدة ، نتحدث أوتعزف صاحبة النزل لنا بعض قطع البيانو أن كانت تجيد هذا العزف إلى حد البراعة فيه . وقد وثقت هذه السويغات بيني وبين الفتاة الكندية أن كنت أقدر الحاضرين على التحدث إليها بالإنجليزية لأنها لا يجيد الفرنسية . وكنت يومئذ أكتب « زينب » ، وكانت لي يومئذ في الأدب وما أرجو أن أجدد فيه من آثار أوهام طويلة عريضة . وعرفت مس شلوك كاسلز ذلك من أمرى ، وعرفت مما كان يرد إلى من صحف مصر أنى أكتب في بعضها . فلما كانت الليلة التي اعتزمت مغادرة باريس فيها وجعلنا نتحدث بعد العشاء خاطبتني في ذلك المستقبل الذي كنت أرجو لنفسى ككاتب قصصى ، فقالت :
 - كم أود لو استطعت أن تكتب تاريخ مصر في صورة قصصية كما صنع سير والتر سكوت بتاريخ إنجلترا . إننى وإن لم أعرف مصر أشعر بأن فيها شيئاً كثيراً جميلاً ، وأن تاريخها وآثارها جديران بالكشف عنهما وتقريهما للناس في الصور القصصية المحبة إلى النفس ، ولعلك إن فعلت تجعل إهداء أولى هذه الروايات التاريخية لى .
 ولم أفعل ، ولم أقم بأكثر من محاولة لم تتم يتبينها القارئ في الفصول

الأخيرة من هذا الكتاب . لكنى أشعر من يومئذ كما كنت أشعر من قبل ذلك بأن حياة الأدب إن لم تتصل بنفس الأديب وروحه ، وإن لم يظهر وحيا في آثار حياته ، كان الأدب فاتراً ضعيفاً ؛ لأنه لا يصف الواقع ولا يجلو الحقيقة . ونخير ما يكفل وضوح ذاتية الأديب في أدبه أن يتصل ما يكتب بقلبه وعقله وكل حياته . وليس ذلك بمستطاع على أكمل وجوهه إلا حينما نصف حياتنا وحياة آبائنا والبيئة التي أنبتتنا والوراثة الكامنة فينا ، فنصل بذلك حاضرتنا بماضينا ، ونصور بذلك حياتنا وحياة قومنا ووطننا وكل ما توحيه هذه الحياة للعقل والقلب والحس والشعور مما لا تستطيع حياة أخرى أن تلهم أو توحى .

وعدت من باريس إلى مصر في سنة ١٩١١ بعد ستة وعشرين شهراً أقمتها بها وجست أثنائها خلال أوروبا . وعدت عن طريق سويسرا وإيطاليا ، وركبت البحر من برندينز إلى بورسعيد ، وكانت هذه أول مرة رأيت ذلك المرفأ المصرى . وما أزال حتى اليوم أذكر ما أثارته موازنتى بينه وبين مدن أوروبا من رغبة عنه وحرص على مغادرته . فلما ركبت القطار إلى قريتنا ونزلت منه في محطتها وامتطيت الجواد نحو نصف الساعة بينها وبين منزلنا ، وسرت على هذه الطرق وبين هذه المزارع التي شهدت طفولتى واستمتع بها صباى ، نسيت أوروبا وريفها وأهلها وكل ما فيها ، وشعرت بقلبي يتفتح ونفسي تنتشر في أرجائها السعادة ، ووجودى يكاد يطفر من فرط الطرب ، وأحسست كأنى عدت أختلط بكل فرع بل بكل ورقة من هذه الأشجار ، وبكل قطرة من هذا الماء المتقلب في التربة ، وبكل ذرة من هذا الهواء ، هواء قريتنا الصغيرة الجميلة . فلما انتهيت إلى بيتى وأهلى لم أستطع أن أحبس إحساسى فتركته يطفر فرحاً سعيداً ، وشعرت بما فى ذلك كله من وحى صادق لمن أراد الكتابة عنه .

١٠٧

وفي سنة ١٩٣٢ ، أى بعد أكثر من عشرين سنة من ذلك التاريخ ، وكنت أنتقل في ربوع الشام ، إذ مررت بمجرة النعمان ولم أقف عندها . مع ذلك تمثل لي في تلك الساعة هذا الشيخ أبو العلاء وارتسم أمامي تمثاله وفصلت أمام بصيرتي آدابه وحكمته وفلسفته ، وألفت قطعة من شبابي ترتسم أمامي بقوة ووضوح ، وشعرت كأن هذا البلد الذي لم أر من قبل قط يحتوى شيئاً من حياتي . إذ ذاك سألت نفسي : إذا كان هذا شأني ولم أدرس أبا العلاء دراسة بحث مخصص ولم أقرأ عنه قراءة متصلة غير كتاب صديقي الدكتور طه حسين « ذكرى أبي العلاء » ، فماذا تكون الحال بالقياس إلى من يدرسون تاريخ أسلافنا جميعاً في سائر البلاد التي تتكلم العربية دراسة تصل بين نفوسهم وهؤلاء الأسلاف وعصرهم وحضارتهم ؟ أولاً يكون ذلك مصدر إلهام لهم أصدق الإلهام ، ووحى في التاريخ والأدب أسنى ما يكون الوحي ١٢ والإلهام يكون ولا ريب أسنى كلما كان أوثق اتصالاً بوطن الإنسان وقومه . والأدب الذي يصدر عن الإلهام يكون لذلك أروع وأقوى إذ يكون أدباً قومياً صادقاً .

وكما يسمو وحى الوطن بالكاتب في الأدب القومي ، فإن هذا الأدب يخلع على الوطن في نفوس أهله جميعاً جلالاً وبهاء يزيدانهم له حباً وبه إيماناً وتقديساً وإياه إعزازاً . ولقد كان للأدب القومي وللفن القومي في كل الأمم أعمق الأثر من هذه الناحية . وضعف أدب مصر وفنها القومي له الأثر المقابل لذلك من هذه الناحية أيضاً .

ولأدلك على ذلك أذكر أنني زرت روما غير مرة . وكنت ككل مقمٍ بروما أو زائر لها أنخطي « نهر التبر » مرات . وفيما أنا أنخطاه يوماً ذكرت أبياتاً من الشعر الإنكليزي حفظناها حين كنا بالمدارس الثانوية ، فيها قصة لبطل لم يحضرني اسمه كما لم يحضرني اسم الشاعر صاحب القصيدة .

ولست أذكر أكان هذا البطل قد أحيط به فاضطر إلى أن يلقي بنفسه في النهر ؟ أم كان أراد مهاجمة خصوم لروما في الجانب الثانى من « التبر » فرمى فيه بنفسه ليعبره سابقاً . ولم يعنى من أمر القصة كلها شيء ، ولم أجهد ذاكرتى لاستظهار شيء منها . وإنما عنتى الأبيات التى قالها البطل ساعة ألقى بنفسه فى الماء ، وعنتى فيها نعمة المتعبد المقدس إذ يقول :

« أيها التبر ، يا أبانا التبر ومن يسبح الرومان بحمده ، إليك حياة روماني وعدة حربه خذهما اليوم فى رعايتك » . ذكرت هذه الأبيات وألقيت على النهر نظرة طويلة ، وجاهدت كى أجده فى ما يبعث لنفسى مثل القداسة التى كانت وما تزال تلك الأبيات التى حفظت صغيراً مبعثها عندى . وأعترف أنى لم أصل من جهادى إلى شيء ؛ لأننى لم أحاول إجهاد ذاكرتى لأستظهر ما عرفت من تاريخ الرومان ، ولأجده فى هذه القداسة التى أشاد الطل الرومانى بها على لسان الشاعر الإنكليزى . لكنى مع ذلك ما أزال أرى فى هذه الأبيات نفسها قداسة تجذبنى إلى ناحية التبر ، وتدعونى إلى أن أستشف من مجراه ومن تاريخه ما أوحى للمثمن من الشعراء والكتاب القصائد والصحف الخالدة .

وليس نهر « السين » فى اختراقه باريس أكثر بهاء من التبر فى اختراقه روما . لكنى إذ أقرأ ما يكتبه شعراء فرنسا وأدباؤها عنه أشعر فى أعماق نفسى بما يجعلنى أشارك هؤلاء الشعراء فى محبة نهر باريس وإجلاله . ذلك أنى عشت إلى جوانب السين سنوات ، وعرفت من مجراه وتاريخه ، وكان لى فوق لجته ما يجعل له فى حياتى أثراً يدعونى إلى الاشتراك فى شعور الشعراء والكتاب والمصورين نحوه ، وإلى التلذذ الصحيح المتجدد بكل ما أقرؤه عنه من شعر ونثر ، وبكل ما تقع عليه عينى من صور لأماكن فيه ، وبخاصة إذا كنت قد قرأت عنها شيئاً يجعلها فى حكم ما عرفته بنفسى .

١٠٩

وشهدت في سويسرا جمالا وروعة جعلاني أقرأ ما كتب عنهما لأزداد
 لهما تدوقاً وبهما سرورا . وأشهد لقد كنت ، كلما تزايد ما قرأت ، أشد
 لجمال سويسرا وروعها حباً . وليس في شيء من هذا كله أى عجب ؛
 فكلنا أكثر بالجمال في مختلف صوره استمتاعاً كلما كان معنا رفيق
 يشاركنا في المتاع . والمتاع يزداد كلما كان الشريك أكثر للجمال قدراً
 وبدقائه معرفة . فأنت في صحبة شاعر أكثر استجلاء لما في منظر من
 مناظر الطبيعة أو في حادث من الحوادث من شعر . وأنت في صحبة
 موسيقار ترى بعينيك أنغاماً يثيرها في الجو جمال الصور . وأنت في صحبة
 مصور تحس بما في الشعر وما في الأنغام من صور رائعة واضحة الحدود .
 ما بالك إذا كان ما تقرأه في قصيدة من القصائد أو كتاب من الكتب
 عن نهر التبر أو السين أو عن منظر من مناظر سويسرا الساحرة يجتمع فيه
 الشعر والموسيقى والتصوير وتلتقي فيه الفنون الجميلة كلها ! أنت إذن تود
 لو تعود إلى هذه المناظر . وأنت إذا عدت إليه واجد ولا ريب فيه حديثاً
 أشهى وأعذب من حديثه إليك قبل أن تقرأ عنه ما قرأت ، وقبل أن تسمع
 من تاريخه ومن روعة جماله ما سمعت .

وعدت إلى مصر من روما في العشرة الأخيرة من أغسطس سنة ١٩٢٩
 وأتيح لي يومئذ أن أشهد فيها منظرًا لم يتح لي المتاع به منذ سنوات ، ذلك
 منظر النيل في فيضانه . وأتيح لي أن أشهد هذا المنظر في أروع صوره
 وأكثرها مهابة وجلالا . فلم يبلغ فيضان النيل من العظمة والرهبة منذ عشرات
 من السنين ما بلغه ذلك العام . وما كادت عيني تقع على النهر حتى تحركت
 في نفسي كل عواطف الإكبار والتقديس ، وحتى ذكرت من مناظر النهر
 التي شهدتها بالأقصر وأسوان والسودان ما زادني بجماله وجلاله وروعته
 شعوراً ، وما وصل بهذا الشعور بين نفسي ونفوس أجدادنا الفراعنة الأقدمين

الذين كانوا يرون في « البحر الأعظم » معبودهم الذى أتاح لهم الحياة وأمتعهم معها بكل ما فيها من خير وبركة . ولذلك جعلت كلما سنحت لى الفرصة أذهب إلى شواطئه أملاً ناظري وقلبي وجوانحي إعجاباً به وتقديساً له ودعاء أن يكتفى من فيضانه بما يغمر البلاد من خصب ونعمة دون أن يحل بها غضبه فتكون هى وأهلها من المغرقين .

وأفضيت يوماً بخوالج نفسى إلى صديق من الذين زاروا أوروبا وتنقلوا فى مختلف نواحيها وتذوقوا جمالها فى تباين صوره واختلاف أوضاعه ، وذكرت له عميق شعورى بجلال النيل مما لم أشعر به حتى حين الشباب وتحفز العواطف لاستجلاء الجمال وروعته أثناء بدائع سويسرا فوق موج بحيراتها الهادئ وبين شوامخ جبالها الساحرة السفوح والقمم المغطاة بالنبات والشجر والثلج غطاء يزيد فى روعة جلالها بما يجعلها دائمة التغير والتموج كلما تغير الجو وتموجت السحب . وتبسم صاحبي ضاحكاً من قولي معتقداً أنى أمزح ، ثم كرر هذه الأنشودة التى نسمعها دائماً وقد نكررها أحياناً : وماذا فى مصر من جمال ؟ وماذا لطبيعتها من روعة وهى ليست إلا مسطوحاً من الأرض يُملك تشابهه الذى لا يعبس ولا يبتسم ولا يقطب جبينه ولا يقهقه ضاحكاً ؟ . وكيف تقرن هذا الوادى المحصور بين الصحارى الجذباء المحرقة إلى سويسرا جنة الله على الأرض ، أو إلى إيطاليا مهد الفن والجمال ، أو إلى أى بلد يكفيه دلالة على جماله أن ألهم الشعراء والكتاب ورجال الفن ، فى حين لم تلهم مصر أحداً ؛ إذ ليس فى تشابهها ما يلهم شعراً . أو يقيم فناً !

ليس صاحبي هو وحده ، مع شئ كثير من الأسف ، الذى يفكر هذا التفكير أو ينظر إلى بلاده تلك النظرة الخاطئة المملوءة غروراً وعقوقاً . بل إن الأكثرين من رجالنا وشبابنا المتعلم ليزهون بإعجابهم بما رأوا وما لم يروا

من بدائع الجمال في أوربا زهوهم بما تبعته مناظر بلادهم إلى نفوسهم من ملال . ثم إن كثيرين ممن لم تتح لهم أسفارهم وقراءاتهم المفاخرة بهذا الزهو ليحدثونك في أبلغ الإعجاب بجمال صحراء العرب وما أنجبت هذه الصحراء من حب وحماسة وكرم تجلى في الشعر العربي القديم ، وليزهون بهذا زهوهم بإملال بلادهم إياهم . وهؤلاء وأولئك هم الطائفة التي تسمى جماعة المتعلمين في مصر . وقد يكون هؤلاء وأولئك من العذر أنهم ليسوا شعراء ولا كتاباً ولا رجال فن . وأنه لم يحرك أحد في نفوسهم صور الجمال الظاهرة والكمينة في نهرهم وواديهم وفي صحارى بلادهم وواحاتهم المنقطعة النظير في بهر روعتها وسحر جمالها وقداسته جلالها . لكن العجب من أولئك الذين نسميهم شعراء مصر وكتابها ورجال الفن فيها . هؤلاء كذلك يشعر أكثرهم إزاء ما في بلادهم من جمال مثل شعور هؤلاء الذين يسمونهم جماعة المتعلمين في مصر . فقلّ منهم من تهتز عاطفته لمشهد هذا الجمال إلى حد يهز شاعريته أو خياله أو فنه اهتزازاً يخرج من نفسه صيحات صادقة كلها تأليه هذا الجمال وعبادته وتقديسه ، ويستثير من أوتار شاعريتهم أو حيالهم هذه الأناشيد التي تدفع بالفارس إلى أن يلقي بنفسه في غمار التبر متغنياً : « أيها التبر ، يا أبانا التبر ، يا من يسبح الرومان بحمده ، إليك حياة روماني وعدة حربه خذهما اليوم في رعايتك » . بل إن أحدهم ليحس أحياناً بأن من الواجب عليه أن يتحدث عن بلاده وعن تاريخها وعن جمالها ، فإذا قرأت حديثه وجدت فيه من جمال العبارة ما يخلبك ، ولكنك تجده خلواً من الشعور الصادق والإحساس العميق . وكل شعر وكل أدب وكل فن ليس صادراً عن شعور صادق وإحساس عميق لا حياة فيه ولا بقاء له .

وسر هذا الجمود في تقدير جمال بلادنا ضعف الإيمان في نفوس

شعرائنا وأدبائنا وكتابنا وذوى الفن فينا بالجمال . وسبب ذلك أنهم يستمدون شعورهم بالجمال من الكتب لا من الحياة . فالجميل هو ما تغنى به غيرهم على أنه جميل . أما ما لم يقفوا على أن غيرهم تغنى به فلا يمكن أن يكون جميلاً . وما دامت قرون قد انقضت بيننا وبين أجدادنا الذين كانوا يحبون جمال بلادهم ويقيمون لهذا الجمال أعياده ويقدمون له فيها قرايينه ، وما دامت الكتب التى فيها تلك الأغاني قد أصبحت فى غير متناول الأكثرين منا وأصبحت قراءتها لا تلد ، فبحسبنا أن نقرأ ما تعودنا قراءته تلاميذاً عن جمال صحراء العرب ، وأن ننتقل بعد ذلك لقراءة ما تعودنا قراءته طلاباً عن جمال أوروبا وروعة تاريخها . فأما ما بين ذلك فليس أمره ميسوراً ، وليست قراءته مستحبة . ومصر وجمالها تقع كلها فيما بين ذلك من فترة . وإذن فمصر لا جمال فيها ، وهى بلاد مسطوحة متشابهة كل ما فيها مملول وليس فيها ما يشبع النفس أو يلهمها آيات الفن والأدب .

ولعلك إن سألت الشعراء والكتاب عن سر بقائهم على التقليد وحسبهم نفوسهم على ما سبقهم إليه غيرهم ، رأيهم يحييوك بأن لا جديد تحت الشمس ، وكل ما تحت الشمس قد دُون وحوته المكاتب ، وأنهم لهذا يكفهم أن يقلدوا سابقيهم وأن ينقلوا عن معاصريهم من أهل البلاد الأخرى . هم فى ذلك متورطون فى أفحش الخطأ . وأى خطأ أفحش من إيمانهم بأن لا جديد تحت الشمس ؟ ! بلى ! إن كل ما تحت الشمس جديد لأنه دائم التجدد . والشمس نفسها تتجدد مطلع كل نهار ومغيبه . وكل إنسان منا جديد ، وهو كل يوم متجدد . وكلما ازداد بما حوله من صور الحياة امتزاجاً ازداد بهذا الامتزاج حياة وازدادت بذلك تجدداً . وإذا كان حسناً وواجباً أن يمتزج الإنسان بالماضى وأن يجد هذا الماضى طى الكتب ، فأحسن منه أن يمتزج بالحاضر فى كل مظاهر هذا الحاضر ، ليجمع

بين الماضي والحاضر كاملين ، وليجدد بذلك للمستقبل صوراً أقوى ما فيها من المظاهر الجديدة شخصيته هو الدائمة التجدد . وأنت أكثر ما تكون قوة على الامتزاج بالحاضر وبالماضي وعلى التجديد فيهما تجديداً تبرز فيه شخصيتك قوية ظاهرة إذا كان هذا الماضي ماضى بلادك ، وكان هذا الحاضر حاضر بلادك ، بلادك نفسها بما فيها من حياة وجدة وجمال . فإذا استطعت بعد ذلك أن تتصل بغير بلادك لتمثل ما فيها من جمال وتجليه على غيرك ، أو استطعت أن تكون أوسع مدى فاختلطت نفسك بنفس الإنسانية كلها وترنمت عن إيمان صادق بأناشيد الخلد في وحدة الوجود ، فقد بلغت الذروة من مراتب الإلهام . لكنك على كل حال لن تجد في قصرك نفسك على الكتب إلهاماً صحيحاً ولا وحيّاً صادقاً . إنما الإلهام الصحيح والوحي الصادق في اختلاطك بالحياة وامتزاجك بمظاهرها واجتلائك ما فيها من جمال هو الأساس الأول لكل إيمان صحيح .

وكيف لإنسان بالغة ما بلغت قدرته أن يعبر عن جمال لم يصل إليه عن طريق حسه هو ، وإنما وصل إليه من طريق حس غيره ! كيف له أن يعبر عن جمال لم يجتله ولم يحسه ، وإنما هو يذكره لأن غيره ذكره ، ويحس به لأن غيره أحس به . إن العواطف لتختلف مظاهرها ، وإن اتفقت في النفس مصادرها ، باختلاف الوسط الذي تبدو فيه . وعاطفة الحب نفسها تتجلى عند أهل الصحراء على صورة غير التي تتجلى بها عند أهل الشمال . ولذلك تختلف أناشيد الحب من بلد إلى بلد ومن عصر إلى عصر . ما بالك بالصور التي يقع عليها الجس ويتأثر بها في صور تختلف باختلاف الأشخاص أنفسهم ؛ لأن الأشخاص يختلفون في قوة كل حاسة من حواسهم وحس من إحساسهم وعاطفة من عواطفهم .

كنت أنصفح يوماً مجموعة من الشعر الفرنسي نشرت في مجلة الحوليات

Les Annales في ملحق لها وجعلت عنوانها « إلى جانب المدفأ »
 « Au coin du Feu » وقدمت لها بمقدمة صغيرة أشارت فيها إلى ما يثيره
 المدفأ في نفوس أكثر الشعراء بل في نفوسهم كلهم من الخواطر وما يجيش
 فيها من العواطف . وفي هذه المجموعة كثير من الغراميات الرقيقة يذكر
 فيها الشاعر كيف جاءت إليه صاحبتة في هدأة الغرفة التي يقيم فيها ،
 أو كيف ذهب هو إليها في غرفتها ، وكيف جلسا على مقربة من النار
 يصطليان في حين تهطل الثلوج وتكسو الطبيعة المحيطة بهما بثوبها الناصع
 البياض ، وكيف تبادلوا حلو الغرام وتناجيا بأغاريده ، وكيف تاهت عليه
 صاحبتة ودلت ، ثم زادت تيهاً ودلاً ، على حين زاد هو استعطافاً وضراعة .
 وكيف جثا عند قدميها راجياً آملاً ، ثم كيف تركته بعد ذلك تاركة وراءها
 جيشاً من الأحلام والمنى العذبة اللاذعة ، أو كيف جعلاً يقرآن ويتحدثان ،
 ثم إذا القراءة وإذا الحديث يقربان بين قلوبهما حتى يمزجها مزجاً ، وما
 إلى ذلك من صور حلوة يزيد بها حلاوة أنها تعبر عن إحساس صادق وشعور
 فياض ، وهي مع ذلك وفي تعبيرها القوى هذا بسيطة كل البساطة في نفسها
 وفي روايتها ، لا تكلف فيها ولا مبالغة ولا إغراب .

وذكرت حين قراءتي في هذه المجموعة من الشعر الفرنسي التي أهتمها
 جوار المدفأ ما كان لهذا الجوار من أثر في الفن وفي الأدب عند أهل أُم
 الشمال كافة . وليس أحد يعرف الأدب الإنجليزي شعراً ونثراً إلا يذكر
 جوار المدفأ The fireside وما أهتم الكتاب والشعراء . بل إن لجوار المدفأ لأثراً
 عميقاً في حياة هذه الأمم الشمالية كلها ، وهو لا شك له مثل هذا الأثر
 في الأمم الجنوبية حيث تسقط الثلوج كما تسقط في الشمال ، وحيث يضطر
 الناس للاحتباء بالجلدران ويدفعون غائلة البرد بالاصطلاء كما يفعل أهل
 الشمال سواء . وأنت إذ تقرأ شيئاً عن حياة أهل هذه البلاد ترى هذا الأثر

واضحاً ظاهراً في عيشهم وفي توزيع ثروتهم وفي ألوان طعامهم ولباسهم وفي صور سرورهم وملذاتهم . فإلى جوار المدفأ تجلس الجدة العجوز تقص على حفتها قصص الماضي وخرافاته وأساطيره . وإلى جوار المدفأ تجلس الأسرة تتناول طعامها في النهار وفي الليل . وإلى جوار المدفأ يجلس الرجال يقرءون والنساء يطرزن والأطفال من حول أمهاتهم وآبائهم في شغل بلعهم وما أعد لتسليةهم . وبجوار المدفأ يقرض الشاعر قصائده ويكتب الكاتب رواياته ، ويذهب القصاص والحكيم والفيلسوف كل في خيالاته وتأملاته ومنطقه وتفكيره . فلا عجب ، وذلك أثر المدفأ في حياة تلك الأمم ، أن يكون المدفأ وما يلعب فيه من بصيص النيران وما يرسل من ضياء لا يضيء ، لا عجب أن يكون مصدر وحى وإلهام للشاعر والكاتب والمفكر والفيلسوف ، وأن يكون بعيد الأثر في الفن والتفكير عند الذين يقضون حظاً عظيماً من وقتهم في جواره .

وليس جوار المدفأ إلا بعض مظاهر الحياة التي تلهم الشعراء شعرهم في بلاد الشمال . لكن الثلوج وقر الشتاء وبداءة الربيع وتفتح الأزهار وكل ما في الطبيعة المحيطة بهم يلهمهم أيضاً ، وهو يلهمهم بذاته عن طريق اتصالهم به . وليس إلهامه إياهم مقصوراً على ما يقرءون عنه في الكتب التي سبقهم بها غيرهم . بل ها نحن أولاء تحيط بنا طبيعة ساحرة ، ومع ذلك لا يظهر لها في شعر شعرائنا ولا في كتابة أدبائنا من الأثر إلا قليل . ولذلك تظل هذه الطبيعة لا يعرف جمالها أحد ؛ لأن الذين ألقت الطبيعة عليهم رسالة الكشف عن الجمال لا يرونه فيها ، بل نرى شعراءنا وكتابنا وذوى الفن منا لا يتصلون كما قدمنا ، بالحياة إلا عن طريق غيرهم ، ينظرون بعينه ويسمعون بأذنه ويحسون بحسه . وهم في هذا ينسون أنهم القيامة التي تنقل إلى آذان البشر أنغام الجمال ماثلة في مختلف مظاهر

الطبيعة ، ويقصرون همهم على محاكاة أنغام سبقهم غيرهم إليها وبذهم فيها ، وقضى على كل أمل في أن تكون لهم شخصية قائمة بذاتها حين يشدون هم بها ويحاولون تجديدها . وهم لا يكادون يجدون شيئاً لم يسبقوا به فيما قيل من شعر ونثر في وصف مصر والتغنى بسحر جمالها ؛ فهم لذلك لا يكادون يذكرون شيئاً من أمرها . فإن هم ذكروا منه شيئاً لم يزد على بريق حسن بدا لهم ، فلم يقفوا عنده ولم يحاولوا الامتزاج به ، واكتفوا بأن سجلوه في قراره ، كأنما ليس له في حياة مصر قرار . ولو أن ربة الشعر والفن والكتابة كانت تلهمهم لآمنوا بأن الفن ليس هو إثبات هذا البرق الفرار ، وإنما هو الوقوف عند الجمال والإعجاب به وأخذ به إلى مجامع النفس في مختلف صوره ، والعود إليه مرة ثم مرة ثم مرة ، والوصول بالنفس إلى حدود الفناء فيه حتى تمتلئ به وتجمع إليه ما تعيه الذاكرة مما سطر الآخرون عنه ، فإذا الجمال يفيض عن ذى الفن . وإذا القصيدة أو القطعة من الأدب أو القصة أو اللوحة أو التمثال قد خلعت على هذا الجمال الذى تمثلته نفس إنسانية ممتازة روحاً إنسانية تخالط النفوس كلها ، فتشعر في أعماقها بمثل ما شعر به رجل الفن ، ويحس في الأشياء بجمال ما كان لها أن تحس به لو لم يكشف هذا الرجل عنه ولو لم يخلقه في الحياة خلقاً يجعل للإنسان على الأرض من المجد مثل مجد الله فى العلى .

ولنعد إلى النيل ، إلى هذا « البحر الأعظم » الذى كان أنشودة العالم منذ القديم ، إلى النهر الذى تأله على الدهر وجل في كل العصور وتقدس عند كل الأديان . ألم يكن رباً من أرباب الفراعنة يرمزون له بإييس إله الخير والبركة ؟ ألم يذكر المسلمون أن منبعه الجنة ، وأنه فيها ينبع من أنهار العسل ؟ ما أشك لحظة في أن الشاعر أو الكاتب أو المصور يجد في هذا النهر إذا هو امتزجت به نفسه واختلط بدمه إجلاله ووجهه ، وحيّاً لا ينضب

والهاماً يكفيه مدى حياته ، بل يكفي شعراء وكتّاباً وأرباب فن على تعاقب الأجيال جميعاً . إن في تبدل مياهه وتغير مجراه في كل فصل من فصول السنة ، وفي ارتفاعه بالفيضان جباراً رحيماً ، يغرق ويسقي ويطغى ويخصب ، وفي خضوعه للسباحات من الفلك فوق ظهره تجرى بالتجارة حيناً وبالمسرة واللهو حيناً ، وفي هؤلاء الذين يتغنون في سكينه مطمئنة حين هو يحملهم في أناة ومن غير عجلة إلى حيث يريدون ، وفي تعاريجه وشلالاته وسدوده ، وفي انبعائه من هناك ، هناك عند خط الاستواء ماراً بأقوام يتغير لونهم كلما تقدم هو إلى مصبه ، وفي شواطئه المخصصة بطميه الدائمة الشكر للنعمة ، وفي شرايين الحياة الممتدة بمصر ترعاً وقنوات والمتصلة كلها به على أنه القلب الكبير الذى يمد بالحياة كل ما حوله ، وفي ألف مظهر غير هذه من سلطانه وقوته الدائمى التجدد والجمال - في هذا كله من الشعر ما تقصر عنه ألوف القصائد والكتب والصور ، ومالا يكون تاريخ مصر من أبعد عهودها إلى يوم أزلها إلا بعضه ؛ لأن مصر وتاريخها ليساً إلا بعض هدايا النيل وأعطيته .

وإن نسيت فلن أنسى لهذا النهر الإله كل ما ملأ به نفسى من تقديس وإجلال في كل مرة صحبته فيها ، ولن أنسى منظره الذى أشرت إليه حين عرج بفيضانه في صيف سنة ١٩٢٩ وحين أنخلنى إليه أخذاً إثر عودتى من أوروبا بعد مشاهدتى التيمس والسين والتبر في مختلف عواصمها في الساعات الثلاث التى قضيت ما بين الإسكندرية والقاهرة وبعد أن تخطينا النهر عند كفر الزيات وامتلاّت نفسى بروعة جلاله . يومئذ تحرك في نفسى الفلاح القديم الذى ورث من آبائه وأجداده حب هذا الثرى المقدس ، وإجلال هذا النهر المبارك ، والإعجاب إلى غاية حدود الإعجاب بجمال ما ينبت من زروع ملأى بحياة كلها البهجة والنضرة . نعم ! تحرك الفلاح

فى نفسى ، فصرت لا أبصر إلا بعينه ، ولا أسمع إلا بأذنه ، ولا أحس إلا بقلبه ، ولا أشعر إلا بشعوره ، فكنت خلال هذه الساعات الثلاث مأخوذاً بمنظر الوطن المحبوب وجمالها الساحر أكثر مما يأخذنى أى مظهر من مظاهر الجمال . وكان تقديسى على أشده لمشهد مياه النيل فى فيضانه تتقلب أمواجه الحمراء بعضها فوق بعض فى الترع وفى النهر العظيم . يا لها ذات جمالي لا يعدله جمال ، وروعة تسجد أمام جلالها كل روعة ! إني لأشعر أن هذا الماء المملوء حياة وخصباً يجرى فى حنايا نفسى ويمجرى فى عروقي مع دمي أكثر مما يجرى فى النهر وفى الترع المتفرعة منه . وإني ما أزال لذلك أراه أمام نظري وأنا أكتب فى غرقي أمام كتبي . نعم ! ها هو ذا يموج حلواً جذاباً بلونه الطامى وموجه المتدافع فى طمأنينة بين حروف الترع المخضرة بالحشائش تتخللها الشجيرات والأشجار ، وتنفسح من ورائها المزارع الخضراء المترامية إلى حدود الأفق يكسوها الذرة والقطن ، وتقوم فوقها هنا وهناك المنازل الترابية اللون ، تأوى إليها اليد العاملة التى تنبت من هذا الماء ومن هذا التراب كل هذه النعم التى يجود الله بها على أهل مصر . وها هو ذا يموج فى عظمة وجلال وقوة تدافع فى مجرى النهر الذى اتخذ منه أجدادنا الفراعنة إلهاً يعبدونه ، والذي جعل من مصر جنة فيحاء بدل أن يذرهما تندمج فيما يحيط بها من صحراوات جرداء . أين أنت يا أنهار أوربا وأنهار العالم كله من نيلنا السعيد المبارك الغدوات الميمون الروحات ! ومع ذلك يقدر سكان روما والتبروسكان باريس السين وسكان برلين الأسبرى وسكان لندرة التيمس ! ما أكبر ما لأجدادنا من عذر عن عبادتهم إياك واعتبارهم جنة النعيم منابك الإلهية !

أى منظر من مناظر بحيرة ليتمان وسحرها البديع يعدل منظر نهرنا فى سحره وبهره ! ! وأى جبال فى سويسرا أو غير سويسرا تعدل هذه المستويات

الذهابة إلى الأفق تكسوها زروع مصر وأشجارها ، وكلها النماء والقوة والحياة المتدافعة !! أنظر إلى مزرعة الذرة ما تزال في أول صباها زاهية خضرة أوراقها غضة سيقانها ، تلتف حولها عَقْلُهَا كأنها قصبات الناي ، يثير منظرها في أذنك ألحاناً لا تدرى أهى عيدان الذرة ترتلها أم هى أصوات الموسيقى المصرية الحنون تموج على أوتار فؤادك لتكمل في نفسك جمال هذا المنظر المصرى الفذ الجمال . ثم أنظر إلى أشجار القطن مناط آمال أهلنا الذين تراهم سمر الوجوه سود العيون حادى النظرات ، تلمع عيونهم ذكاء ، وتحدث نظراتهم عما جبلوا عليه من جد ومثابرة . وسط هذا الوطن الذى نشأت فيه والذى نسيت معه كل ما رأيت مما سواه ، ذكرت أننى أستطيع أن أجوب أقطار الأرض ما شئت ، وأشهد من صور الجمال في مختلف مظاهر الفن ما حلا لى أن أشهد ، وأن أسمع من موسيقى الغرب كل ما يلد ويطرب ، وأن أقرأ من أدب العرب وأدب الإفرنج كل ما يتسع وقى لقراءته — أستطيع أن أصنع هذا وأكثر منه من مثله ، ثم أبقي بعد ذلك وفوق ذلك مصرياً وأبقى أكثر من مصرى ؛ أبقي فلاحاً قحاً صميماً ، أقدس كل ما فى مصر ومزارعها من جمال ، وأقدس النيل الذى حبا مصر الحياة وجباها الجمال .

لو أن رهطاً من الشعراء والكتاب وأرباب الفن استلهموا هذا النيل ودونوا وحيه ، لرأيت صاحبي الذى هز كتفيه حين ذكرت له إعجابى بالنيل وجماله ، أشد بنيل بلاده إعجاباً منه بجمال سويسرا أو أية بقعة ساحرة من بقاع العالم . نعم ! فالفن يسكب الجمال حتى فى النفوس الجامدة أمام الجمال . وهو بما يصنع من هذا يدفع الناس إلى العمل للمزيد من هذا الجمال . ذلك بأنه يحجب إليهم الحياة ويدعوهم إلى زيادة تجميلها وإلى معاونة الطبيعة لاستظهار زيتها وبهجتها . وما أشك فى أن سويسرا

مدينة بكثير من رواء جمالها لعمل الإنسان بعد أن دله الفن وأربابه على مبلغ ما جملت الطبيعة به تلك البلاد . ولو أن الفن كشف للمصريين عن جمال بلادهم لعملوا كل ما في وسعهم لزيادة جمالها جلالاً وروعة ، ولراينا هؤلاء الذين لا يعرفون كيف يستشفون جمال الطبيعة في جلال سهولها وقد رأوه باهراً بارعاً من خلال ما عمل الإنسان لاستظهاره فأمنوا به إيمانهم بجمال سويسرا ، ولقدسوه تقديس ذلك البطل لنهر التبر ، بل كان تقديسهم وإيمانهم أقوى وأعظم ؛ لأنه تقديس جمال متصل بنفسهم مجرى الدم في عروقهم .

وليست طبيعة مصر وليس نيلها وواديها هي وحدها ذات السحر والفتنة ، بل إن تاريخها القديم والحديث ليحتوى من ذلك أكثر مما يحتوى أى تاريخ غيره ، كما سنبين في الفصل التالى . وهذا التاريخ وذلك الوادى وبهره كلها جديدة بأن تكون مصدر الوحي لأدب قومى يصور مصر في ماضيها وحاضرها صورة صادقة قوية تنطبع في نفوس أبنائها وفي نفوس الأجانب عنها ممن يقرءون هذا ، فيعرفون مصر كما هى حقاً ، لا مصر التى شهوت تشويها بالدعاية الفاسدة لغايات سياسية وغير سياسية . ويومئذ تنتقل النفس المصرية خطوة واسعة في سبيل الاعتزاز بنفسها وبوطنها ، وتنتقل كذلك خطوة واسعة في سبيل تمثيل الجمال والخير والحق ، وتسمو بذلك إلى المكان الإنسانى الصحيح الذى ألقى على عاتق الأدب في مختلف العصور أن يمهده له فيعد الإنسانية عن طريقه لبلوغ الكمال .

التاريخ والأدب القومي

بين مصر الحديثة ومصر القديمة اتصال نفسى وثيق ينسأه كثيرون فيحسبون أن ما طرأ على مصر منذ عصور الفراعنة من تطورات فى نظم الحكم وفى العقائد الدينية وفى اللغة وفى غير ذلك من مقومات حياة الأمم ، قد فصل بين هذه الأمة الحاضرة وبين الأمة المصرية القديمة فصلاً حاسماً جعلنا إلى العرب أو الرومان أقرب منا إلى أولئك الذين عمروا وادى النيل فى ألوف السنين التى سبقت المسيحية . وهم يعللون ما يحسبونه من ذلك بعظم هذه التطورات . فكيف ترى المصريين الذين يتكلمون العربية المصرية اليوم ، والذين يتصورون الأشياء على ما تريدهم لغة العرب أن يتصوروها ، تتصل حياتهم النفسية فيما يتعلق بالتصوير والخيال بحياة الذين كانوا يتكلمون الهيروغليفية بما كانت تحمله ألفاظها وعباراتها المتوارثة إلى القلوب والعقول من صور ؟ وكيف ترى المصريين الذين يدين أكثرهم بالإسلام وأقلهم بالمسيحية والذين تكونت عقائدهم على ما فى كتب الإسلام والنصرانية المقدسة - وبين هذه الكتب المقدسة صلة متينة قوية - كيف تراهم يعتقدون ما كان يعتقد عباد آمون ورع وآلهة مصر القديمة المتعددين ؟ ! بل كيف تراهم ترتبط عقائدهم بتلك العقائد القديمة أى ارتباط ؟ ثم كيف ترى المصريين الذين خضعوا لنظم الرومان ، ثم لنظم المسلمين ، ثم لنظم الديمقراطية الحاضرة فى صور الحكم ، يفهمون من الحكم ما كان يفهمه أولئك الذين خضعوا فى سكينه واستسلام لبناة الأهرام والكرنك وهذه المعابد الضخمة العظيمة الخالد على التاريخ

بمجدها ، والتي ما كانت مع ذلك لتشاد لولا استسلام الشعب لألوان الاستبداد التي فرضت عليه ١٢ أو ليس القول ؛ وهذه هي الحال ، بوجود الصلة النفسية بين مصر الحديثة ومصر القديمة ، أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة التاريخية ١٢ . ولئن أرضى هذا الخيال فكرة قومية تريد أن تصل مجد مصر الحاضرة بمجدها القديم فإنه لن يرضى الواقع الذي يجب الاعتراف به ، والذي يفصل بين المصريين القديمة والحديثة فصلاً حاسماً .

كذلك يقول الكثيرون . ولقولهم ظاهر من الحقيقة لكنهم لا يعدون ظاهر الحقيقة في قولهم بانقطاع الاتصال النفسى بينك وبين أجدادك ، لأنك تعلمت غير تعلمهم ، وفهمت الحياة غير فهمهم إياها ، وخضعت لنظام من الحكم غير الذى خضعوا له ، وصرت تتكلم بلغات غير اللغة التى كانوا يتكلمون ، وتنظر إلى العقيدة بغير العين التى كانوا بها ينظرون . أنت فى الظاهر تختلف عن هؤلاء الأجداد جد الاختلاف . وقد يحسب من رآهم ويراك أنك لست بينهم وأنهم ليسوا منك . لكن ذلك لا يزيد على أنه الظاهر . أما الحقيقة العميقة التى تشعر بها أنت ويثبتها العلم فهى أن بينك وبين أجدادك اتصالاً وثيقاً لا سبيل إلى إنكاره وإن جهله الناس ، وإن جهلته أنت . فهذا الدم الذى كان يجرى فى عروقهم يجرى فى عروقك ، وهذه الانفعالات النفسانية التى كانت تدفعهم فى حياتهم هى التى تدفعك فى حياتك . وأنت محكوم عليك طائعاً أو كارهاً أن تخضع بحكم قانون الوراثة لما أورثوك إياه .

فإذا أنت دخلت يوماً إلى نفسك تحاسبها على أعمالها ، وإذا أنت امتحنت يوماً خلقك ، وحللت فطرتك ، وتعرفت سجيكتك ، إذن لرأيت جوهر أجدادك قد انتقل إليك . فإذا خضعت بحكم الحياة المحيطة بك

لصورة غير صورتهم وظاهر غير ظاهرهم ، فسك الذهب عملة مختلفة الأشكال لا يغير من أنه ذهب ، وأن المعدن الأصيل باق فيه بقاء معدن أجدادك فيك .

وبعد ، فهل تحسب هذه المظاهر التي يظنونها كافية لقطع الاتصال النفساني بين مصر القديمة ومصر الحديثة من الجسامة بما يكفي لقطع هذه الصلة بل لإضعافها ؟ أليست هذه الأديان التي تنابت على مصر ، وهذه النظم التي خضعت لها ، وهذه اللغات التي تعاورتها ، هي الأديان والنظم واللغات التي تداولت على مصر وعلى البلاد المجاورة لها ؟ ! أليس الإسلام والنصرانية واليهودية هي الأديان التي يعرف كل واحد منها الدين الذي سبقه ويعترف به ؟ أليست جميعاً قد نزل الوحي بها في مصر وفلسطين وبلاد العرب وكلها متجاورة أقرب التجاور ؟ أليست اليهودية ، وهي أقدمها جميعاً ، تتصل بالفراعنة وبمصر القديمة اتصالاً متيناً ، والنصرانية تتصل باليهودية وتعترف بها ، والإسلام يتصل بالنصرانية وباليهودية ويعترف بهما ؟ ... ثم أليست لغات الفراعنة والعرب والشام تصور حياة هذه البلاد المتجاورة ، وهي حياة متشابهة في التاريخ القديم قريبة التشابه في التاريخ الحديث ؟ وأما نظم الحكم فلا تغير من الحقائق التاريخية شيئاً ، لأن نظم الحكم تتأثر بالزمان الذي تكون فيه في مختلف أنحاء العالم ، فهي أضعف من أن تترك في نفسية الأمم أثراً عميقاً .

فإذا ذكرت كذلك أن الوسط الطبيعي لم يتغير في وادي النيل منذ آلاف السنين ، وأن هذا الوسط الطبيعي هو الذي يصقل اللغات والعقائد والنفوس ، وأن الذين أغاروا على مصر ثم استوطنوها أجيالاً فقدوا كل صفات أجناسهم القديمة وخضعوا لحكم الوسط الطبيعي ، وأصبحوا كأنما آباؤهم وأجدادهم في مصر منذ عهد الفراعنة - إذا ذكرت هذا أيقنت إذن

أن بين مصر الحديثة ومصر القديمة اتصالاً نفسياً وثيقاً ، وأنه من الواجب على المصريين أن يبحثوا عن مواضع هذا الاتصال ، وأن خير ميادين البحث العلمى هى الأدب وكتبه والعقائد وطقوس العبادة .

ولقد يدهشك أن تعلم أن كثيراً من طقوس العبادة فى مصر هو اليوم كما كان منذ ستة آلاف سنة وكما كان من قبل التاريخ لم يتغير بتعاقب الأديان المختلفة على مصر . وأنت ترى أن كثيراً من الحفلات التى تعتبر دينية عند الأقباط وعند المسلمين كحفلات الزواج وحفلات الجنائز تشابه أشد التشابه ، وبخاصة فى بلاد الأرياف حيث الوراثة سليمة لم تعصف بمظاهرها أعاصير الحضارة ، هذا مع أن هذه الحفلات تختلف عند مسلمى الدول الأخرى كالمغرب وتركيا ، وتختلف عند أقباط مصر عنها عند نصارى الدول الأخرى . فهل تستطيع أن تجد لذلك تفسيراً إلا أن هذه الحفلات سابقة فى مصر على المسلمين وعلى الأقباط وعلى الإسلام وعلى المسيحية ، وأنها ترجع إلى تواريخ ربما كانت سابقة على كل ما كشفت عنه التواريخ .

أشار بعضهم إلى أن تلقين الميت عند مسلمى مصر عادة ليست شائعة عند أكثر المسلمين . وأشار إلى أن عبارة هذا التلقين وما جاء فيها عن منكر ونكير وسؤالهما وتحديد الأسئلة والتحدث إلى الروح والنصح لها بالجواب على صورة معينة ، كل ذلك يعيد إلى النفس صورة طقوس الدفن والحساب عند قدماء المصريين وما كانوا يتحدثون به إلى الروح لتنجو . ولست واقفاً على تفاصيل هذه الطقوس القديمة لأؤكد ما يؤكدون من مشابة بينها وبين التلقين . لكن هذه المسألة تدل على كل حال على أننا ورثنا حتى فى العبادة طقوساً تسلمت إلينا من الأزمان القديمة ، وأنا اقتبسنا من الدين الإسلامى

ما أسبغناه على هذه الطقوس وصبغناها به . ومن يدرى ! لعل عند إخواننا الأقباط مثل ما عندنا من ذلك أو أكثر منه .

ومظاهر الحزن على الميت عند المصريين المسلمين تختلف اختلافاً عظيماً عنها عند أهل الأمم الأخرى ، ولكنها تتفق والمظاهر التي عند سائر المصريين ، كما تتفق وما كانت عليه الحال عند قدماء المصريين . فكما ترى النسوة من أهل الميت وخدمته وتابعاته قد انتقلن مع جنازته في الأزمان القديمة نادبات مولولات لاطمات خدودهن مجلات بالسواد وجوههن وأيديهن ، إذا بك ترى مثل هذا تماماً عند المسلمين من المصريين ، وبخاصة في الأرياف التي ما تزال خاضعة لأحكام العادات القديمة . ولعلك إن بحثت عن سبب الإفراط في الحزن وعدم النظر إلى انتهاء الحياة بشيء من السلوى وجدته فيما كان يعتقد الأقدمون من بقاء الروح ، أو بعبارة أدق الشخص الباقي (الكا) يرقب ما سيحل بالجسد من ألوان الألم ساعات الحساب . وكأنما تجسدت هذه الصورة أمام المصريين القدماء ، فكانوا يرون بعين تصورهم هذا العزيز الداهب خاضعاً لآلهة الحساب وقسوتهم ، فيولولون ويندبون ويتألمون مع الميت لعل في ذلك ما يلين قلوب الآلهة ، كما يلين ألم النظارة والحاضرين قلب الحاكم الذي يحاسب رجلاً أمامه على سيئة اجتريها . ومع تداول الأديان بعد ذلك بقيت هذه الفكرة أشد حياة في النفس المصرية ، فكانت لذلك أشد فزاعاً مما بعد الموت من سائر الأمم الإسلامية . ولم ينهض من كتابها وأدبائها من تعشقوا الحياة ولذا نذها على نحو ما تعشقها عمر الخيام وغيره من المسلمين في الفرس وفي بلاد إسلامية أخرى .

بل لقد ترى من مظاهر وراثه المصريين اليوم لثراث أجدادهم الأقدمين ما هو أبلغ في الدلالة على متانة الصلة النفسية بينهما . ذكر غير واحد

من المشتغلين بدراسة الطقوس المصرية القديمة أن ما يخلعه المسلمون اليوم على بعض أوليائهم المحليين من مقدرة وسلطان وما يقومون به أو ذاك من طقوس وفرائض في « مولده » هو بعينه ما كان يقوم به الأقدمون في هذه المنطقة لإله محلي من آلهتهم من طقوس وفرائض يخلعونه عليه من مقدرة وسلطان .

ولا أريد أن أقرن إلى ذلك ما يوجد من شبه عظيم بين قصة السلام من حيث وضعه في التابوت وإلقاء أمه به في اليم والتقاط قصة أوزوريس وخيانة سخت له بوضعه في تابوت وإلقائه في إيزيس عليه عند جيل من أعمال الفينيقيين ؛ فقد لا يكون دليلاً على أن القصة واحدة اختلفت عليها أيدي الرواة ، وقد الإلقاء في اليم بعض عادات ذلك العصر ، فأصاب أوزو المصريين القدماء الأعظم ، كما أصابت موسى عليه السلام على النحو المبين في الكتب المقدسة .

* * *

لا سبيل إذن إلى إنكار ذلك الاتصال النفسي الوثيق ال تاريخ مصر منذ بداءته إلى عصرنا الحاضر ، وإلى العصور الم يمكن أن يعرفها التاريخ . ولئن تبدلت أسباب العيش ما تبدل قربت السكك الحديدية والبواخر والطيارات وكل ما يمكن أن عنه خيال العلم من وسائل المواصلات بين أجزاء العالم ما قربت تهدمت الحدود الدولية وفنيت العاطفة الوطنية ، فسيقى أبدأ هذا النفسي الوثيق الذي يجعل مصر وحدة تاريخية أزلية خالدة فيما عقلنا من تصور الأزل والخلد ، بما أورث أجداد هذا الوادي وما سكبته طبيعة الوادي في وجودهم من حياة نفسية إن تأثرنا

العيش وألوان التفكير وصور الحكم فستظل أبداً طبيعتهم التي لم تتغير منذ خلق الإنسان إلى يومنا هذا ، ولا شيء يدل على أنها ستتغير ما دام الإنسان إنساناً .

وإذ كان الإنسان أقوى سلطاناً على الحياة وحكما لها كلما تمثل ماضيه في شخصه ، وكلما تمثلت الأمة تراث آباءها وأجدادها جميعاً بالغاً ما بعدوا في غيب الماضي أى مبلغ ، فمن حق المصريين ومن الواجب عليهم أن يستثيروا دفائن أجدادهم جميعاً ، وأن يربطوا بين حاضرهم وماضيهم ربطاً ظاهراً لكل عين . وإنهم إذن ليضيفون إلى قوتهم قوة ، وليضاعفون مجدهم أضعافاً ، وليزدادون لذلك بالحياة استمتاعاً ولها ذوقاً . ولقد رأينا نحن أبناء مصر اليوم من ذلك مالا يدع مجالاً للشك فيه . فكلنا صفق طرباً لاستكشاف آثار توت عنخ آمون . وكلنا ملأ ماضيه فخراً بمدينة هذه الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية على ما بيننا وبينها من آلاف السنين . وكلنا حدثته نفسه : إذا كان أجدادنا قد تسنموا هذه الذروة السامية من ذرى المدنية فلم لا نتسمنها نحن كما تسمنوها ؟ ولم يك منشأ هذا الطرب والفخر والأمل ما لهذه الآثار النفيسة من قيمة لذاتها ومن قيمة على التاريخ وكفى ، بل كان منشؤها في غور النفس وأبعد أعماقها : كان منشؤها اعتزاز النفس بذاتها واعتقادها القدرة على ملك الحياة بعد يأس من هذه القدرة . أرأيت إلى الفقير البائس الذى لا يعتز من آباءه بجاه ولا بمال كيف يجاهد الحياة ويجاهده ولا أمل له إلا في الحظ الحسن وهو من غدر القدر دائماً على حذر . ثم أرأيت إلى المعتر بجاه بيته وماله كيف ينظر إلى غدر القدر باسماء وهو دائماً يؤمن بأن له آخر الأمر الغلب . هذه العواطف هى التى تحرك الأمم بقوة مضاعفة ملايين المرات أكثر مما تحرك الأفراد . ولذلك يعتمد المستعمرون الذين يريدون أن تذلل لهم أمة إلى أن يلقوا في روعها أنها كانت على التاريخ عبدة

ذليلة ، فحتم عليها أن تظل عبدة ذليلة .

فإذا جاز لنا أن نأمل ما يأمل المعتز بجاه بيته وماله ، وكان لنا من آثار الأقدمين المتصلين بنا هذه الصلة النفسية الوثيقة ما يطوع لنا أن نجدد مصر القديمة ، كما جدد الغربيون اليونان والرومان ، وكان لنا من وراء ذلك مطعم في أن نقر في مصر حضارة قوية فتية كالحضارة التي أقرها الغربيون في أوروبا ، فمن الجريمة على أنفسنا وعلى الوطن أن نني في ذلك أو نقصر فيه أى تقصير .

والسبيل إلى ذلك كله هو البحث عن موضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة في ميادين الأدب وكتبه والعقائد وطقوس العبادة . ولقد فتح الغربيون أمامنا الباب واسعاً في هذا المضمار . فمند كشف شامبوليون عن سر الهيروغليفية حين حل طلاسم رموز حجر رشيد ، لم تن البعثات الغربية من أوروبا وأمريكا في البحث والتنقيب عن الآثار المصرية وبعث ما تنطق به أحجارها الصامته وما تنطوى عليه أوراق البردى القديمة . وهذا الفضل لهم يجب الاعتراف به وشكرهم عليه ، لكنه يحملنا نحن وزراً كبيراً ، وزر الإهمال في تمثل هذا التراث المجيد الذى يضم حضارات باهرة زاهرة يمكن أن تكون لنا اليوم نبراساً لإقامة حضارة لا تقل عن تلك بهراً ولا تقل عنها ازدهاراً .

وإني ليخيل إلى أن المصريين الذين يتقدمون إلى ميدان البحث في الشؤون المصرية القديمة أدنى إلى التوفيق فيه من أبناء أية أمة أخرى يتقدمون إليه . ذلك بأن غير المصريين إنما يترجمون ما لا يتصل بحياتهم وما لا تسرى روحه في قلوبهم وأفئدتهم ، فلهم إن أخطئوا عذر المترجم الذى ينقل من لغة إلى لغة . أما المصريون الذين يوفقون لمثل ما وفق له أولئك الغربيون العظماء من براعة في الوقوف على أسرار المصريين القدماء ، فإنهم حين

يترجمون آثار هذه العصور القديمة يشعرون في غور وجودهم بما يتفق وهذه الصور والأخيلة والمعاني فيؤدونها الأداء الأوفى .

ولقد وفقت في مطالعائي لمراجعة بعض كتب مما خطه بعض الأقدمين من اليونان عن المصريين المعاصرين لهم وعن عقائدهم ، فألفت فيها روحاً وحياة أكثر مما ألفت في كتب أخرى وضعت حديثاً . ولا عجب فالليونان ومصر متجاورتان ، وروح العصر كانت تربط الفريقين جميعاً بأوثق رباط .

ولست أقصد من ذلك إلى قصر التجديد في قوميتنا الأدبية على آثار الحضارة الفرعونية ، فذلك محال لأنه مخالف لخلد حياة الأمم . وإنك لترى هذه العصور الوسطى في أوروبا ، والتي يسمونها العصور المظلمة ، ذات أثر في تاريخ الأدب الغربي غير منكر . والذين يزعمون أن مصر خضعت من بعد الفراعنة لحكم الأجانب فتاريخها لذلك ليس تاريخها ، يزيفون التاريخ . إنما خضعت مصر لناموس ما تزال أكثر الأمم الملكية خاضعة له يجلس أسرة أجنبية عنها على العرش الذي يعتبر تاجها وعنوان مجدها . ثم إن مصر أيام اليونان والرومان والعرب وإلى عصر قريب جداً كانت ذات أثر كبير في سياسة العالم وفي توجيه دفة حضارته . وكل هذا الماضي المجيد تراث يحق لنا أن نفخر به وأن نعبد إلى حياتنا وحياة أبنائنا ذكره ، لتزداد به على الحياة قوة وعزة ، وليزيدنا بالحياة متاعاً وفيها سعادة . وإنما أريد ألا يقل النشاط في الكشف عن حضارة الفراعنة وتمثلها وإحيائها عن نشاطنا في الكشف عن كل عصر آخر من عصور تاريخ مصر ، وأن يعمل مؤرخونا وكتابنا وأدباؤنا ليمثل ابن اليوم هذا الميراث المجيد ، فيجمع ذهنه وعقله وقلبه وفؤاده وتصوره وخیاله ما كان لمصر في ميادين العقل والعلم والخیال من مجد وعظمة تنقلت في تاريخ مصر على كاهل

القرون من الفراعنة إلى البطالسة ، إلى مقاومة مصر استعمار روما ، إلى الحضارة الإسلامية التي ازدهرت على شاطئ النيل وأضواءت العالم بنورها قرونًا متوالية ، إلى عصور التدهور أيام الحكم العثماني ومقاومة ما كان من ظلم تلك العصور ، إلى هذه النهضة الحديثة التي تنهض مصر كما تنهض الأمم الشرقية جميعاً . ولا ريب في جلال هذا التاريخ كله جلالاته يوحى للطالب ويلهمه أقوى إلهام في ميادين الأدب القومي بما يجعله يقيم من صروح هذا الأدب آثاراً شامخة باقية على التاريخ بقاء آثار مصر منذ الفراعنة إلى عهدنا الحاضر .

ولست أغلو في تقدير قوة هذا الإلهام القومي الذي ينبعث من تاريخ مصر لكل من عني بدراسة هذا التاريخ وأطواره ومواضع الاتصال بين مختلف عصوره . ولقد أشرنا في الفصل السابق إلى قوة إلهام الطبيعة المصرية وجلال وحى النهر الإله . وأحسب ما تقدم في هذا الفصل يزيد في قوة هذا الإلهام بما يصور من تاريخ من أقاموا إلى جانبي النهر يتعاقبون على ألوف السنين . ويضعاف في قوة هذا الإلهام كذلك خلد هذه الآثار الباقية منذ الفراعنة إلى عهدنا وإلى من بعدنا ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها . هذه الآثار التي ترك الأقدمون منذ بناء الأهرام الأولى إلى أن أقام الرومان مقابرهم بعد أن مهد لهم النين اليوناني حين دخل إلى مصر مع البطالسة ، وما أقامت المسيحية بعد ذلك من كنائس وبيع ، ثم ما كان بعد ذلك من آثار الفن الإسلامي الدقية، البديعة التي ما تزال تشهد بها المساجد والتكايا وسُبل الماء وما إليها . هذه لآثار وحدها قد ألهمت كثيرين من الأجانب عن مصر ممن زاروها ، فهي جديرة أن تلهمنا أبناء مصر أضعاف ما ألهمت أولئك . وهي ليست إلا مظهرًا لحياة آبائنا وأجدادنا من فجر التاريخ . فنحن وحدنا الذين نستطيعون أن يكشفوا عن صلتها بهذه الحياة ، وأن يمتثلوا من خلال

هذا الكشف حياة الروح المصرى الذى بعث إلى نواحي العالم فى غير فترة من حياته حضارات سعد بها العالم قروناً وقروناً ؛ وأينا لا يقف ، بوصفه مصرياً صادق الإخلاص لوطنه وتاريخه ، أمام أى من الأهرامات أو من آثار طيبة أو من الآثار الأخرى الكثيرة التى تعمر الشاطئين ، أو أمام أثر من الآثار الرومانية أو المسيحية ، أو فى مسجد من المساجد الإسلامية المملوءة هبة وقداسة ورهبة - أينا لا يقف بوصفه مصرياً صادق الإخلاص لوطنه وتاريخه عند أى من هذه الآثار أو عند أكثر من واحد منها يستلهمه صورة أهلنا الذى شادوه ، وصور عباداتهم ومعيشتهم ، ثم لا يخرج بعد وقفته هذه وقد تجسد الوطن بمعناه الكامل فى نفسه ، فدفع إلى قواده وروحه من صور الإلهام أرقاها وأسمائها ! وأينا يقف هذه الوقفة ثم لا يحس بنفسه جزءاً من هذا الوطن باقياً بقاءه ، خالداً خلوده ، ولا يدفعه ذلك إلى أن يتغنى بأناشيد بقاء الوطن وخلده فى رعاية الله وعنايته ! وهل أدب قومى يصدر عن هذا الإلهام كله يمكن أن يعدله أدب قومى لأمة من الأمم مما عرف العالم أو عرف التاريخ ؟ ! وقصص هذه الآثار وقصص آبائنا الذين شادوها وقصص حياتهم المادية والنفسية والروحية ، كل ذلك حاضر تحت أيدينا لمن أراد أن يكلف نفسه مشقة التنقيب فيه . فإذا تمثلنا هذا التاريخ ، واستنطقنا هذه الآثار ، وقدسنا كما يجب أن تقدر هذه الطبيعة المصرية الخصبة المحسنة ، وهذا النهر الذى أنشأ الله به مصر وأنشأنا بفضلها عليها فأنهنا ذلك الأدب الذى نرجو ، فلن يقف هذا الأدب عند تحقيق رسالة الأدب من تجلية الخير والحق والجمال . بل إنى لأعتقد أنه يصل إلى أكثر من هذا ، وأن قبساً من نور هذه الأديان التى شهدت مصر وتوجت بالإسلام ، سيضئ ظلمات هذا العصر المادى التى غمرتنا حضارة الغرب بآثاره ، وسيقدم للعالم بذلك غذاءً روحياً يلتهمه العالم اليوم فى مختلف

أنحائه في الشرق والغرب فيضل سعيه ولا يجد إليه سبيلاً .
ولا يحسبن أحد أن هذا النشاط المادى العظيم في الاختراع مما هو باد
اليوم في كل أنحاء العالم يجنى على فكرتنا هذه شيئاً ؛ فإن هذا النشاط
سيصل يوماً إلى فترة يستقر فيها . ويومئذ يشعر العالم بظماً ، أى ظمأ ،
إلى الحياة النفسية الفتيّة الممتعة . ولعله واجدها في هذا البعث الذى نطلب
إلى مصر أن تقوم اليوم به .

محاولات في الأدب القومي

منذ أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن نشأ حوار بين كتابنا ، وفي مقدمتهم كبارهم ، عن هذا العصر الذي نتخطاه منذ الثورة العراقية إلى وقتنا الحاضر : أهو عصر ترجمة أم عصر تأليف . وهو حوار من نوع الحوار الذي نشأ بين القديم والجديد في الأدب ، يرجع إلى مثل أصله ويقوم على مثل أساسه . وأصل هذا الحوار وأساسه في الحالين نضال ما بين الحضارتين : حضارة الغرب الحاكمة اليوم ، والحضارة الإسلامية التي حكمت العالم زمناً ثم جاء دورها في الاستجمام انتظاراً للبعث . فأنصار الجديد لا يرون مفراً من أن تغزو حضارة الغرب أُمم الشرق ، فهم يريدون أن يهيئوها لهذا الغزو حتى تستقبله مستعدة لتمثل آثاره متهيئة للوقوف أمامه في شيء من الكرامة والعزة . وأنصار القديم يقدرون ما آل إليه حال الحضارة الإسلامية ، وهم يخشون عليها كل جديد أن يفسدها وأن يقضى عليها . لذلك يريد أنصار القديم هؤلاء أن يظل العلم وأن يظل الأدب والتفكير كما كانت جميعاً في العصور الماضية . وهم يريدون ليكفلوا هذه الغاية أن يكون العلم والأدب وأن تكون الحياة العقلية والفكرية ملكاً لهم ، يقولون فيما شاءوا منها هذا حلال وهذا حرام ، وأن تكون لهم سلطة كسلطة الكهنة أيام قدماء المصريين تمكنهم من الحكم على من خالفهم بالقتل أو بالموت الأدبي . وهم بهذه الغاية يريدون أن يسبغوا على أنفسهم قداسة روحية وعقلية تلزم كل من سواهم أن يتبعهم . وهم ليسوا موقوفهم هذا يدعون بالسلف الصالح ، ويدعون أنهم وارثو تراثه ، وأنهم

باسم هذا السلف يحاربون من شاءوا حربته بأنه خارج عليه وعلى تعاليمه . ولا ريب أن في تعاليم السلف الصالح كثيراً من الحق . ولو أن خلفاء هؤلاء قالوه بخير مما يقولونه اليوم لازداد جانب الحق فيه وضوحاً وجلالاً . لكن أنصار القديم يريدون أن يقولوا هذه الحقائق بلغة وأسلوب فيهما من السقم شيء كثير ، وأن يضيفوا عليها ترهات وأوهاماً ، وأن يفرغوها مع ذلك في قالب رسمي لتصبح في حماية الدولة وليسبغ عليها القانون من القداسة ما يعاقب معه مخالفتها .

أما أنصار الحديث فيريدون أن يكون التفكير حراً والعلم حراً والرأي حراً والتعبير عنه حراً ، وأن تمتد الحرية في هذه الناحية إلى أقصى الحدود . وهم قد جعلوا سبيلهم ، أول أمرهم لتثبيت هذه الحرية ، أن ينقلوا عن الغرب وأن يترجموا علمه وأدبه وآراءه . وما دام كتاب الغرب وأدباؤه ورجاله هم أبطال هذه الحرية وحملتها لوائها ، فيجب أن ينشر هذا اللواء في الشرق كما هو منشور في الغرب ، ويجب أن نستعير من أساليب الغرب في الكتابة وفي التفكير ، ويجب أن نؤمن بالحقائق العلمية التي يديعها كتاب الغرب وفلاسفته ، ويجب أن نواجه بهذه الأسلحة القوية الحادة جمود القديم حتى تحطمه ثورة الحديث عليه ، فنكون من بعد ذلك أحراراً ننعم من حريتنا في بحبوحة السعادة العقلية والفنية ، ولا يقف هؤلاء الكهنة بمزاميرهم المملولة يفسدون علينا حياتنا . ويجب من أجل ذلك أن ننسى القديم كله ، وأن نقيم مكانه من علم الغرب وحضارته وتفكيره جديداً .

شيء من التمهيص يكشف عن أن جمود القديم كل هذا الجمود ، وثورة الحديث كل هذه الثورة ، إنما دفعت إليهما حرارة النضال ، وأنهما ما كانا يندفعان إلى الحدود التي اندفعا إليها لولا هذا النضال . وقد بينا

في الفصل السابق أن الخصومة بين القديم والحديث كالخصومة بين الوارث والمورث غير ممكنة ؛ لأن الحديث ينطوى على شيء من القديم بل على أكثره ، والقديم لا يمكن أن يتصل بقاءه إذا هو لم يتصل بالحديث ولم ينتشر في أرجائه . أليس فخار الأمم بماضيها لا يقلل عن فخارها بحاضرها ؟ ألسنا في مصر نفاخر بالفراغة وبالعصر الإسلامي أكثر مما نفاخر بالعصر الحديث ؟ فمحال إذن أن نتصور حديثاً لا يتصل بالقديم الذي أثمره ، أو نتصور قديماً لا يتطور مع الحديث وينضم إليه . فإذا اتصل القديم والحديث وتضامنا نشأت عن ذلك حيوية قوية وروح معنوية نشيطة هي التي تقوم أساساً لكل حضارة من الحضارات ، وبدونها تتداعى الحضارة وتنهار ، ويضطر أهلها إلى استعارة حضارة غيرهم والعيش في كنفها .

بهذا الروح حاولت منذ سنين عدة أن أكشف عن بعض جوانب مصر القديمة ، وأن أسلكها سبيل الأدب القومي ، وأن أحقق بذلك بعض ما اقترحت على مس شلوك كاسلر مما أشرت إليه في فصل الأدب القومي . وقد بدا لي في وقت ما أن أجعل من بعض عصور مصر الإسلامية موضع هذه الدراسة ، وكانت الحروب الصليبية أشد ما استهواني من هذه العصور . لكنني وقفت يومئذ متردداً : أفأقدم فأبحث فأؤلى البحث فأقدم للجُمهور ثمرة بحثي في صورة من صور الأدب القومي ، فإذا حركة مهاجمة عنيفة تفاجئني من غير أن تزن بالقسط ما إليه قصدت ، متأثرة في ذلك بخصومة سياسية أو غير سياسية مما أشرت إليه حين الكلام عن فتور القصص من الخير إذن أن أبحث عن ميدان لا يعنى بمهاجمة الباحث فيه أحد . وهو بعد ميدان طريف يلذ بحثه ويلذ اتخاذ مادة لأدب قومي شيء الثمرة خصب غاية الخصب . وليكن هذا الميدان ميدان الفراغة وآلهم . ولنطلق

لحرية الأدب غاية مداها في تصوير حديث هؤلاء الآلهة ، مستمدين أخبارهم من مختلف مصادرها ، موازين بينهم وبين آلهة الإغريق الذين ألهموا من فوق الأولب حضارة أوربا الحاضرة .

وقد بدأت مباحثي عن أبيس العجل الإله ونشرتها ، فلم أجد من أحد نفوراً منها أو ازواراً عنها ، مما أثبت لي أن في النفوس إلى هذا الأدب القومي ظمناً ، وأنها صادية لورده إذا هي وجدت من يقدمه إليها . وكنت قد جعلت بحثي عن أبيس في صورة قصة لإخوان ذهبوا إلى المتحف المصري فوقفوا أمام تمثال أبيس ، وجعل أحدهم يقص عليهم من تاريخ عبادته ومن الأساطير الميثولوجية التي أحاطت به شيئاً غير قليل . ولأميز هذا المحدث عن بقية أصحابه دعوته بجي أبيس . وكان من بين هؤلاء الأصحاب شاب وخط الشيب رأسه قبل أن تؤذن السنون بهذا البياض في الشعر ، فدعوته الأشيب وجعلت منه رجل صلاح وتقوى . وكان من بينهم شاب غير مؤمن بادي الرأي بعبادة أبيس وأساطير الميثولوجيا المصرية القديمة ، فاكتفيت تمييزاً له عن إخوانه بأن أطلقت عليه اسم الشاب . وقد ظل الإخوان في مناجاتهم لأبيس وفي مناقشة النجى أقواله زمناً ، ثم خرجوا فانطلقوا مارين بشكنات قصر النيل إلى فندق سميراميس ليتناولوا الشاي فيه إجابة لدعوة أحدهم الذي تسمى من بعد باسم الذي دعانا إلى الشاي . فلما آتست ظمناً النفوس إلى هذا الأدب القومي فكرت في متابعة بحثي . وما دام القوم قد دعوا إلى الشاي في سميراميس فليكن حديثنا بعد أبيس عن هذه الملكة الإلهة التي جلست على عرش بابل والتي غزت مصر وحكمتها زمناً . وتحدث القوم وهم في بهو الفندق وقد جلس إلى جانبهم جماعة من السيدات والسادة المتقبعين ، من بينهم فاتنة ذات دل ساحر عبث بالأشيب أشد العبث وبدله من ورعه وتقواه جنون الهوى وفتك اللوعة ، وجعله يسائل

في حديث القوم عن سميراميس مقدساً للجمال حيث يكون ، سعيداً بحكم النساء الرجال ، سامياً بشأتهن إلى ما استهوى إليه رقة الفاتنة وما جعلها ترنو إليه بنظرات معسولة زادته هوى ووجداً . وفي خلال ذلك كانت قصة سميراميس تُقص بدقة تاريخية تزيد الفاتنة إعجاباً ودلالاً . ونشرت هذه القصة أيضاً وكنت لما أطبع كتابي « في أوقات الفراغ » . وقد وجدت من الجهد في كتابة هذين الفصلين بعد التدقيق في بحثهما ما جعلني أشك كل الشك في وقتي أهو يسمح بمداومة البحث والكتابة وتدوين « حديث الآلهة » على ما كنت قد اعتزمت أن أسمي الكتاب الذي يجمع بين دفتيه هذه الأساطير ؟ لذلك نشرت حديث أبيس وحديث سميراميس في كتابي . « في أوقات الفراغ » . لكن هذا البحث استهواني من بعد ، وعاد يجذبني إليه بقوة زادها إمعاناً تكرار زيارتي للأقصر وأسوان ومشاهدتي مختلف آثار الفراعنة في وادي الملوك وفي صحارى مركز الدر وجماله الممتدة ما بين أسوان وحلفا . وإجابة لدعوة أجدادنا وأهلتهم عدت أبحث ودونت حديث إيزيس وهاتور وأفروديت . وفي هذا الحديث يتصل البحث على لسان نجى أبيس ، والشاب ، والذي دعانا إلى الشاي ، والأشيب ، وفاتنة سميراميس ، ويتصل به حديث هوى وصبابة كنت أرجو أن يظل متصلاً بباركه آلهة مصر القديمة كلها مجتمعة . لكنني عدت فوقفت من بحثي عند هذه الفصول الثلاثة التي تتصل أوثق اتصال بفصلي أبيس وسميراميس وتتابع حوادتهما . ولولا ما سبق لي من نشر هذين الفصلين لكان موضعهما ولا ريب هنا في هذه المحاولة التي قمت بها في سبيل الأدب القومي . أما وقد سبق نشرهما فإنني أكتفي بنشر فصول إيزيس وراعية هاتور وأفروديت هنا ، راجياً أن تعود إلى الآلهة الأقدمون تحدثني وأحدثها وتوحي إلي ما بقي من قصة الأشيب وفاتنة سميراميس . ولست كفيلاً بأن تستجيب الآلهة

إلى دعائى وقد انجبه ذهنى واتجه روحى وجهة جديدة فى البحث ، وفى بحث ليس دون بحث الآلهة الأقدمين مشقة ، ولكنه أجلُّ منها مقاماً وأروع فيما ينطوى عليه من حق ونور وجلال وجمال .

وأعتقد أن الذين يعنون بمطالعة الفصول الثلاثة التى تلى هذا الفصل سيقدرّون ما كان للفراغة الأقدمين من حكمة وفلسفة قويتين عميقتين محيطتين بالحياة محبتين إياها أشد حب وأخصبه . ولعل منهم من يتابع هذا البحث الذى بدأت فى الصورة التى تلذه من صور الأدب القومى . ولعله يشعر حين يبحث وحين يدون آثار هذا البحث بما شعرت أنا به من أن تغير طرائق البحث تبعاً لما حدث فى أوروبا ، واتباعاً لديكارت ومن جاء بعده من الكتاب والفلاسفة ، ليس معناه إهدار تراثنا بوصفنا مصريين وشرقيين ومسلمين ، والانتقال إلى تقليد الغرب فى أدبه القومى كتقليدنا إياه فى لباسه وفى طعامه ، كما أن ابتكار طرائق جديدة فى الزراعة ليس معناه أن أترك الأرض المملوكة لى لأذهب أجيراً عند الذى ابتكر هذه الطرق الحديثة ، ولكن معناه أن أقف أنا على هذه الطرائق وأعمل على مقتضاها فى الأرض المملوكة لى . كذلك يجب أن نستعين بطرائق الغرب فى بحث تاريخنا وإقامة أدبنا ، وفى ابتكار علم يتصل بعلمنا وصناعة وتجارة تتصل بطبيعة بلادنا . عند ذلك تبقى لنا شخصيتنا ، ولا نصبح عيالاً على غيرنا ننال من فئاته وننال أضعاف ذلك من زرايته ومن احتقاره .

هذا وقد أثبتّ بعد البحوث الفرعونية الثلاثة قصتين مصريتين من واقع حياتنا الحاضرة ، نقلت حوادثهما بما شهدت دور القضاء وما قصه على بعض زملائى المحامين حين كنت أشتغل بالمحاماة . وهما صورة من أدبنا القومى عن حياتنا الحاضرة . وهما من نوع الأقصوصة التى ازدهرت فى هذا الزمن الأخير . وقد نشرتا فى مجلة الهلال فى سنة ١٩٢٦ ، وإنما أذكر أن

وقائعهما نقلت إلى مما شهدت دور القضاء ؛ لأن هذه الدور تشهد من المآسى الوجدانية الشيء الكثير الذى يصلح مادة للقصص ويطبعه طابع مصرى صميم ، ويجعل الأدب الذى يستلهم مادته أدباً قومياً بكل معنى القومى . وليست دور القضاء هى وحدها مسارج الوجدانيات وغير الوجدانيات مما يلهم الكاتب القصصى ويلهم الأديب أياً كان نوع الأدب الذى يريد أن يضع ، بل إن فى الحياة المصرية فيضاً من مصادر إلهام الأدب فى مختلف نواحيه أغزر وأخصب مما فى غيرها . والمقاصير تنطوى من ذلك على مالا يقل عما تنطوى عليه الحقول والمزارع . وما على الكاتب إلا أن يستمع ويبحث ويحلل ليجد من غزارة هذا الفيض خير مادة لما يريد من صور الأدب القومى فى الحياة الحديثة .

وها نحن أولاء الآن نعرض على القارئ محاولتنا فى خمسة الفصول التالية ، راجين أن يجد شبابنا فيها مثلاً لطليعة من طلائع الأدب القومى المصرى .

إيزيس

« ولد أوزوريس من الإله جب (الأرض) ومن الإلهة ناوت (السماء) حين أدرك هذين الإلهين الهرم فعمّجا عن قمع وحشية الناس وشرهم . ولا كبر تزوج من أخته إيزيس ، وجلس على عرش المصريين وصار ملكاً على الآلهة والناس جميعاً . وقد استطاع بفضل الجمال والعلم والصلاح أن يتغلب على شر الناس وأن يردّهم إلى السلم وأن يعلمهم صناعاته .

وكان « ست » إله الشر أخاً لأوزوريس . ولا رأى من آيات حكمته أدركته الغيرة ، فدعاه إلى وليمة أعد فيها صندوقاً فاخر الصنع ووعد أضيافه بأنه مهديه لأى منهم طابق الصندوق حجمه . فدخل إليه الضيوف واحداً بعد الآخر ، حتى إذا كان دور أوزوريس واستوى فيه - وكان قد صنع على حجمه - أسرع شركاء إله الشر وأقفلوا الصندوق وألقوا به فى النيل ، فدفعه التيار إلى البحر ، وقذفت به الأمواج إلى شاطئ الشام ، وبقي عنده تحوطه شجرة أنماها القدر لتحميه من الأعين ، إلى أن جاءت به إيزيس إلى مصر بعد حزن وبحث . لكن « ست » عثر بأخيه ثانية فى إحدى جولاته جوف الليل فمزق جسده أربعة عشر جزءاً ألقي بكل منها فى مكان . فعادت إيزيس إلى بحثها واستعادت أجزاء الجسم ، واستعانت بأختها وبابنها الإله هورس وبطقوس الدين ، فردوا إليه حياة شابة خالدة لا يحياها على الأرض بل فى السماء . وكذلك بعث « الإله الملك » ووعد بالبعث كل من يفعل الخير فى حياته .

(أبيس - ص ٢٨٦ و ٢٨٧ من كتاب فى أوقات الفراغ) .

« لقد حدثتكم بحديث إيزيس فرأيتم مبلغ وفائها لأخيها وزوجها أوزوريس . قتله أخوه إله الشر تيفون ، فاستقلت البحر باحثة عن جثته . فلما عثرت بها وعاد تيفون إلى تقريق أجزائها عادت تبحث حتى جمعت الأجزاء الأربعة عشر ، ثم حبست نفسها لتعيد إلى إله الخير حياة الخلد . وعملها هذا آية في الوفاء من امرأة ، وهو خير مثل لما يجب أن تكون عليه الآلهة .

... . وقمنا إلى نزهتنا فأقلنا زورق وسعنا جميعاً . ودار حديثنا حول عبادة إيزيس في مصر وروما واليونان :

(سميراميس - ص ٣٠٦ من كتاب في أوقات الفراغ)

تخطينا أبواب سميراميس فإذا أضواؤها طرحت على الرصيف أمامها وعلى الطريق بعده ضياء مبهماً اختلط بضوء القمر السابح في السماء ولما تكتمل دائرته ، فهو ثلاثة أرباع ، تعرج طرفه المشطور فجعل له ذقناً وأنفاً وجبيناً وضياء . وكست الأشجار الرصيف المقابل للفندق ظلاماً . فلما بلغنا الشاطئ ألفينا صفحة النهر صقلها القمر بشعاعه الندي فجعل منها مرآة له وحده ، ونزلنا على الدرج إلى مرسى الزوارق وقد اصطفت بعضها إلى جانب بعض ومنها الصغير يسير بالمجداف ولا قلع له ، ومنها ما طويت قلوعه في انتظار من يستقله ، ومنها ما أحاطت بجوانبه ستور هيات منه معبداً للزهرة وآلهة الهوى جميعاً . ووقفنا وتقدم الذي دعانا إلى الشاي يتخير لنا زورقاً لا ستور على جوانبه ؛ فليس حديث الرجال في حاجة إلى ستر وإن تناول الجمال وآلهته والهوى ورياته . وتنادى أصحاب الزوارق كل يكشف من فضائل زورقه عما يحسبه مرغباً إيانا فيه ، وجعل كل منا يدير نظره في هذه السوايح ليتخير أطفها وأظرفها . فأما الأشيب فوقف في شبه ذهول برهة لا ينظر إلى الزوارق ولا إلينا . وتخبرنا زورقنا وجاء

صاحبه يعاوننا على التخطى إليه . فلما كان دور الأشيب وأمسك رب
الفلك بيده سمعت الأشيب يهمس في أذنه :

- إلى أين ذهبت السيدات الإفرنج والسادة الذين سبقونا إلى هنا
منذ هنيهة ؟

فابتسمت وعجبت لفعل جمال فاتنة الفندق بالأشيب ، ونظرت إلى
« الرئيس » فإذا به يجيب في جد من يدرك قداسة الهوى مشيراً إلى ناحية
جسر عباس :

- هم سألوا عن ذهبية أحد البكوات هناك ، وأحسبهم يقصدونها .
أخذنا أما كننا ، ونشر الرئيس قلع زورقه بعدما دفعه فوق لجة الماء
والنور بمجدافه . وسرى إلى نفوسنا نسيم عذب ليل زاده القمر رقة وعذوبة .
وجرى الزورق يدفع ذلك النسيم في قلعه وقد وجهه الرئيس إلى ناحية
جسر عباس ، كأنما هداه سؤال الأشيب طريقه . وسرحت بصرى نحو
الجزيرة ، فاستوقفته إحدى الذهبيات وكأنها بعجها لها قدس هوى أنبته
الماء وانبت فيه أنوار الكهرباء المظلة من نوافذها الرشيقة الضيقة . وأدبرت
نظري إلى سميراميس ، فإذا هي بأضوائها الكثيرة منارة هدى لفلك النهر
جميعاً . وأشركت أصحابي فيما جال بخاطري ، فكان الأشيب أسرعهم إلى
إجابتي :

- هي منارة هدى للقلوب والأبصار .
وابتسمنا . أما هو فلم يبتسم ؛ لأنه كان في شغل بالذهبية التي
ذهبت إليها الفاتنة وأصحابها .

ثم قال الذي دعانا إلى الشاي يداعبه :
- لعلك لا تشير إلى فندق سميراميس بل إلى سميراميس الإلهة التي
جعلت الفندق منارة هدى ومعبد هوى : ولعل الذي هدانا إلى الفندق

والإلهة فيه ، يهديننا إلى الإلهة حيث تكون .

وابتسم الأشيب لهذه الدعابة ، وابتهل إلى الله أن يجيب الدعاء .
ثم توجه إلى نجى أبيس بقوله :
- وأنت يا صاح خذ بنا في حديث إيزيس . فلعل الإلهة التي عثرت
على أخيها وزوجها أوزوريس تهدي هذا الزورق فيعثر على صاحبها
الإلهة السيدة سميراميس .
قال نجى أبيس :

- لا يكن قولك عبثاً بمعبودتنا القديمة التي امتد سلطان ربوبيتها من
مصر إلى أثينا وروما ، ولتؤمن بأن لاسمها سرّاً تعنو له القوى حتى اليوم .
وإذا كانت قد تغلبت إبان حياتها زوجة لأوزوريس على كل العقبات
بالجمال والعلم والطيبة ، فإنها ظلت بعد ما ارتفعت إلى أثير الخلد تؤتي
عبادها المخلصين من روح قوتها ما يتغلبون به على كل عقبة ، لكنها
تطلب إليهم أن يكونوا مثلها ذوى صبر وإيمان . فلا تحسب يا صديقي
أنها عادت بأوزوريس في صندوق الخيانة الذى حبسه فيه أخوه إله الشر
من غير عناء . بل لقد ركبت في سبيل ذلك من الأهوال ما تضعف دونه
همم الرجال . ولولا ربوبيتها وحرصها على أن يدفع الخير الشر ، ويغلب
الرجاء اليأس ، لأسلمت للقدر وعنت لنكد الحظ . وقد كادت تضعف
أول ما عرفت الخبر ، وكاد الهم والحزن يقعدان بها دون النضال . وكفاها
يومئذ أن قصت خصلة من شعرها وأن لبست الحداد . لكنها عافت أن
تستسلم لتيفون ، وأن تدع الخير دفيناً في محبسه غير مخلص في السماوات .
وسارت فألفت على شاطئ النيل عند مدينة قفط أطفالاً سألتهم عن الصندوق
وهل رأوه ؟ والأطفال كما تعلمون ، أحباب الله . وهم لذلك ملهمون من

أمر الغيب ما لا يلهم الرجال . فلما عرفت منهم سير الصندوق تبعته حتى مصب النهر وإلى جيبيل في الشام . وكان أهل جيبيل قد بهروا بنمو الشجرة التي أحاطت به وحفظته في جذعها . فلما بلغ ملكهم (مالكاندر) أمرها أمر بها فقطعت وجعل منها عماداً لبهو قصره . وأحاطت الرياح المقدسة إيزيس بذلك كله خيراً ، فجلست عند مورد ماء مكتئبة لا تكلم إنسياً . فلما مر بها خادومات الملكة عشتروت ، حيثن وتحدثت إليهن ومشطت شعورهن وعطرت أجسامهن بالعطر الذي يفوح من شذا شخصها المقدس . وعدن إلى سيدتهن ، فتاقت إلى معرفة الغريبة التي ضوَّعتن بالشذا العذب ، وبعثت في طلبها ، فبهرها جمالها وحكمتها ، واتخذت منها صديقة لها ، وعهدت إليها في تربية ولدها وشفائه . وكذلك أُتيح للإلهة الحزينة أن تقيم على قبر زوجها الدفين في عماد البهو تشدو حوله كلما سجا الليل بأغنيات الموت والأسى . فإذا فرغت من شدوها عادت إلى الطفل تحرق من جسمه كل أسباب المرض والفناء . . وفطن بعض من في القصر لها وأبلغوا الملكة خبرها ، فراقبتها ليلة ، حتى إذا رأت النيران تخرج من فمها صوب الطفل صرخت جزعة مرتاعة . فسلبت الإلهة من الطفل ما كان قد أصاب من أسباب الخلد وإن أبقته له صحته . وخافتها الملكة وحسبتها ساحرة ، فعرضت عليها أن تأخذ ما تشاء وأن تغادرهم . فاختارت إيزيس العماد ، وشقته وأخرجت منه الصندوق وما كادت تراه حتى علا نحيبها ، ثم حملته في قارب وبعدت عن جيبيل وفتحته وقبلت أوزوريس وألصقت وجهها بوجهه وبكت أمراً بكاء . ولما بلغت مصر نحت الصندوق في مكان تبحث عن ابنها هورس وعن أختها نفتيس ليعيدوا للملك الإله حياته .

« فلعلك ترى يا صديق أن إيزيس تجشمت في سبيل العثور على جثة زوجها أوزوريس من المشقة ما لا تتجشم النسوة في سبيل البحث عن أشلاء

أزواجهن ، بل عن أزواجهن الأحياء . وإنما هو الوفاء الذى جعلها تستمرئ المشقة ، وحرصها على غلبة الخير للشر هو الذى هون على ربوبيتها أن تخضع « للملاكندر » وامراته .

ولما عثر « ست تيفون » أثناء صيده بالصندوق وبه جثة أخيه مزق الجثة أربعة عشر شلواً وألقى كلا منها فى مكان . وليس من اليسر تصور ما تجشمتة إيزيس فى سبيل العثور من جديد بالأشلاء جميعاً . واجتمعت لها أعضاء أوزوريس كلها خلا عضواً فرداً كان الشرقد ألقى به فى النهر طعماً للأسماك ، مما اضطر إيزيس إلى أن تصنع مكانه صورة له من الشمع ليتم لها الرجاء فى إعادة الحياة الكاملة لإله الخير الذى عبث به الشر وأعوانه شرعبث . وكأنا كان الخير فى عصور الآلهة مثله فى عصور الناس هيئاً للشر ، متحاشياً إياه ، قاصراً عن دفع هجماته ، عاجزاً من مهاجمته . فإن إيزيس خشيت بعد الذى لاقت من نصب فى بحثها أن يعثر تيفون بالخير مرة أخرى ويعبث به ، فأقامت أربعة عشر قبراً فى أربع عشرة قرية من القرى التى عثرت بالأشلاء فيها ، وزعمت أن كل واحد منها قبر أوزوريس ، لتضل بذلك أخاه فى مطاردته إياه . وما تزال هذه القرى تدعى إلى يومنا بهذا الاسم . فأبو صير ليست إلا « بوزيرى » أو قبر أوزوريس . وإقامة هذه القبور جهد مضمّن أشدّ إضناء ، وهو بعض الوفاء الذى تميزت إلهة مصر القديمة على غيرها من إلهات الجمال اللائى ازدرين الوقار وسخرن من العفة .

قال صديقنا الشاب :

— ظريفة أساطير القدماء ! وأقر لكم الآن بخطئى حين سخرت من عبادة أبيس . فما دام للجمال آلهة وللوفاء آلهة وللخير وللشر وللنور والظلام آلهة ، فمن حق ثمرات الأرض أن تكون لها آلهة . وللثور كما للنيل وللشمس

حظ في إنبات هذه الثمرات . فمن حق الثور أن يكون إلهاً كالشمس والنيل ،
ومن حقه أن يكون أوزوريس أو غير أوزوريس من أكابر الآلهة رمزاً له .
وقال الذى دعانا إلى الشاى باسماً :

— ما أسعد جماعتنا بعودك إلى ذوق أساطير أسلافنا ! وما أشدنا سعادة
بإجلالك عبادة أبيس ! فهو وحده الذى اختص مع النيل والشمس بعبادة
مصر القديمة منذ أقدم عصور تاريخها . أما سائر الآلهة فكان لهم شأن
غير شأنه وحديث غير حديثه . كان لكل منهم اختصاص لا يتخطاه .
وأحسب أن توزيع الأختصاص بين الآلهة في مصر القديمة وفي اليونان
وروما ، ونسبة الخير إلى أحدهم والعلم إلى غيره والشر إلى ثالث وهلم جراً ،
لم يكن إلا بعد تطورات سياسية واجتماعية مرَّ بها عبَاد هذه الآلهة . وأحسب
أنهم أول نشأتهم كان كل منهم إلهاً طائفاً له كل صفات الربوبية عند
أهل طائفته ، كما كانت أوثان العرب قبل الإسلام آلهة كل منها لقبيلة ،
ولكل في نفوس عباده كل ما كانت تتصوره هذه النفوس الساذجة الضالة
من صفات الربوبية . ثم كان أن تغلبت طوائف على أخرى أو امتزجت
طوائف بأخرى ، فكان إله الطائفة المغلوبة على أمرها شقياً مثال النقص
والفساد ، وكان إلهاها الطائفتين الممتزجتين صنوين في الفضل بلغ من
تشابه صفاتهما أن امتزج كل بصاحبه . وأذكر على سبيل المثال أن آمون إله
طيبة لم يكن أول أمره ذا مكانة عند غير عباده ، وكان رع هو الإله المقدم
في أنحاء مصر الأخرى . فلما آل إلى طيبة عرش مصر وكان لزاماً أن يصير
لآمون مجد طيبة ، لم يكن إلا أن امتزج برع فصار الإله آمون رع .
ولما أصبحت مصر مملكة واحدة توزعت جهود الألوهية بين آلهة عشائرها
المختلفة ، وخص كل منهم بعمل من الأعمال ووصف به . وأعمال
هذه الآلهة هي ما قضت حاجات عبادها النفسية أن تكون ، وهي لذلك

١٤٧

مظهر من مظاهر شهوات الإنسان ومخاوفه وآماله . على أن التاريخ المعروف
ضنين بأن يحدثنا متى تم هذا التوزيع . وكل ما نعرفه عن ثقة أن رع
كان كبير الآلهة منذ كان للآلهة كبير ، وأن هورس كان إله الشمس
في هليوبوليس . ولقد ظل له ولفتاح إله منفيس أكبر السلطان ، حتى
جعلت طيبة إلهها آمون قريباً لرع وإلهاً للشمس كهورس وفتاح . وكان
لكل من هؤلاء الآلهة ممثل له من حيوانات الأرض .

قال الشاب :

— وما حكمة اختيارهم الحيوان ممثلاً لآلهتهم ؟ ! أولم يكن خيراً أن
يرسل كل إله للناس رسولاً منهم من أن يرسل حيواناً أعجم ؟
وأجاب الذى دعانا إلى الشاى :

— ما أحسب المصريين القدماء كانوا قوماً فى بداءة الحضارة ، حتى
أصدق الرواية التى تفسر عبادتهم الآلهة الحيوانات بأن الناس كانوا
أول الخليقة أكثر من الآلهة عدداً وخبثاً حتى خشيتهم الآلهة ، فتقمصوا
أجسام الحيوان لينالوا عطف الناس عليهم وليطفثوا من نار شرهم . بل
إلى لأميل لتصديق ما يروى من أن جنود مصر هزمت غير مرة فى وقائع
متعاقبة بسبب اختلاط أفراد فرق جيشها بالفرق الأخرى ، فأنخذت لكل
فرقة علماً جعلت عليه رسم حيوان كى يهتدى الجند به . فلما تم
لهم هذا النظام سار النصر فى ركابهم مما أعز أعلامهم عليهم . وكما يقدر
أهل هذا الزمان رمز وطنهم ، وكما يفتدون بالروح علمه ، كذلك قدس
قدماء المصريين أعلامهم وما عليها من صور ، وقدسوا تبعاً الحيوانات
التي تمثلها هذه الصور . وبمر الزمن أصبح هذا التقديس عبادة لهذه
الحيوانات وتأليها لها على نحو ما يفعل عامة الناس فى كل بلد وكل دين
بإزاء أوليائه المقربين .

« ويضيف المؤرخ القديم ديودور الصقلي سبباً ثالثاً في تأليه قدماء المصريين للحيوان يدل على أنهم كانوا في ذروة حضارة كاملة ؛ ذلك أن هؤلاء المصريين إنما كانوا يقدسون في الحيوانات فائدتها للحياة الإنسانية . والإنسان لا يقدس إلا فائدته ولا يؤمن إلا بها . فالبقرة تحرث الأرض وتنسل ثيراناً وأبقاراً للحرث والنسل ، ومن صوف الغنم يلبس الناس ، ومن ألبانها يصنعون الزبد والجبن . والكلب حارس أمين ورفيق في الصيد بارع . ومن الطيور ما عبده المصريون لقتله الثعابين والحشرات الضارة بالناس وبالزروع . أما صاحب الجلالة القدسية أبيس فقد كانوا يعبدون فيه قوة إخصاب الأبقار لتنسل والأرض لتثمر . وفي ثمر الأرض متاع للإنسان وفائدة أى فائدة .

« لم تكن الحيوانات إذن رسلاً للآلهة بل كانت هي الآلهة نفسها » . أتم الذى دعانا إلى الشاى قوله ، وأراد نجى أبيس أن يتم حديث إيزيس ، لكن الشاب استمهله بابتسامة وبإشارة لطيفة من يده وقال : - ليس أشهى يا صديق من حديثك عن آلهتنا الأقدمين ولا أعذب . ولست أقول لك ذلك مجاملة ولا تمليقاً . فقد رأيت حتى أول الأمر على عبادة أبيس ومقاطعتى لقصصك عنه استخفافاً بأمره . أما وقد ملكتُ شجون هذا الحديث الشجى على نفسى وفتحت أمام بصيرتى آفاقاً جديدة للفكر ، فأستأذنك وأستأذن إخواننا فى أن أقطع نغم قصة إيزيس لألقى بفكرة استثارها الآن عندى ما رواه مضيفنا الكريم عن ديودور الصقلي . وإنى بعد ذلك لآذانُ كلِّ تلتهم رواية إيزيس التهاماً .

« عبد قدماء المصريين آلهتهم لأنهم كانوا علم النصر وغلب الأعداء ، ولأنهم كانوا يقدسون فى آلهتهم ما تفيض على الحياة الإنسانية من خير . أليس هذا المعنى هو خلاصة الإيمان الإنسانى فى مختلف مظاهره ؟ ! أليس

هو إجلال القوى الظاهرة والخفية التي تمكن للإنسان في الحياة ، تدر عليه خيرها وتكفيه شرها ؟ ! وهل هذا المعنى إلا السليقة الفطرية لكل حيوان ، سليقة الاحتفاظ بالحياة في خير ظروفها . فهل لهذا نتيجة إلا أن الإيمان يحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان ، وإنما الفارق بينهما أن الإيمان يتطور لأن إدراك الإنسان مرن يتشكل بمختلف صور الحياة ، على حين قد تعجز السليقة عن هذا التشكل ، فيؤدى عجزها إلى فناء الحيوان الذى لم يوث من فضل الطبيعة مرونة في السليقة .

« هذه فكرة طرأت الآن على أرجوان تعينونى على تمحيصها . ويخيل إلى أن جانب الحق فيها أرجح . فمن الحيوان ما مرتت سليقته فأمكن تألف الإنسان إياه . ولئن ظل قرار السليقة ثابتاً في الحيوان الأليف وحيوان مثله لم يتألف ، فإن اختلاف سلوك كل منهما في الحياة واختلاف معاملته لما حوله ومن حوله واختلاف بقطة المشاعر المختلفة عند كل منهما ، يدل على مبلغ مرونة سليقة نوع من الحيوان أو جمودها . فأنت قد تألف أسداً أو نمراً ، وقد ترى سلائقه الوحشية تخفى . لكن هذه السلائق أغلب عنده مما أدخلته عليها من تحوير . فما يكاد محرك يحرك السليقة حتى ينسى الأسد أو النمر ما طبعت أنت عليه ، ويعود الحيوان المفترس بكل شرسته ووحشيته . فأما إن تألفت كلباً أو جواداً كان لتألفك إياه أثر في سليقته ، فلا تتحرك فيه الغرائز الأولى إلا أن يدفعه لذلك دافع شديد . ولا ينهض اعتراضنا على هذا أن الأجيال التي مرت على هذه الحيوانات الأليفة هي التي جعلتها كذلك . فلو أن الإنسان وجد في الحيوانات الأخرى التي ما يزال يعتبرها عدواً مثل ما وجد في الحيوانات الأليفة من مرونة في السليقة ، لتألفها أيضاً ولجعل منها عوناً له في الحياة . والإنسان أمرن الحيوان سليقة ، وقد تشكلت سليقته هذه على الأجيال ، وكانت القوالب الأولى التي

سبكت فيها لتَهْدَب وتَنْقَى هي قوالب العقيدة . لذلك أرى جانب الحق أرجح في قولي : إن العقيدة تحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان . بهتنا جميعاً هذه الفكرة الجريئة المفاجئة ، واشتملنا الصمت زمناً . ثم قال الذي دعانا إلى الشأى :

- لعلك يا صديقي بعد سماعك بقية حديث إيزيس أن تمحص فكرتك الطارئة . ولعلنا بعد سماعه نكون أقدر على معونتك في هذا التمحيص . وأوماً إلى نجى أبيس :

- عد إذن بنا يا صاح إلى حديث إلهة الجمال والوفاء . قال نجى أبيس :
- نعم هي إلهة الجمال والوفاء . ولن يضير وفاءها أن خدعها الظلام يوماً فحسبت تيفون زوجها وأسلمت إليه نفسها وأعقبت منه . ولولا علم أوزوريس بأنها خدعت لما غفر لها خطأها .

كان الأشيب إلى هذا الموضع من الحديث شارد اللب يفكر في جميلة سميراميس ويمد بصره إلى الذهبيات كلها يريد أن يعرف أيها قصدت ؟ فلما طرقت العبارة الأخيرة سمعه تبسم وقال :

- ولن يضير وفاء أية حسناء أن يخدعها ظلام معبد الحب فينسلها جميلة مثلها ترث عرش الزهرة من بعدها وتبعث في الحياة من ضياء حسنهما ما ينير جوانبها المظلمة . وهل الوفاء إلا مظهر تجارى لعقد مالى أساسه الفائدة ؛ هو عقد الزواج ! وهل هو إلا جناية على الجمال وآلهة الجمال ! ابتهج نجى أبيس بهذا الدفاع الذى أوحته جميلة سميراميس إلى الأشيب فأضلته ، وعاد إلى حديث إيزيس فقال :

- استعادت إيزيس بمعونة ابنها هورس وصديقها الإلهين توت ونوبيس أشلاء زوجها أوزوريس ، وجعلت همها أن تعيد إليه الحياة . وكانت كلما عثرت بجزء من الجسم صنعت لأوزوريس تمثالاً من الشمع ووضعت

الجزء الذى عثرت به فى مكانه . فلما اجتمعت الأجزاء كلها أقامت إيزيس وأختها نفثيس حول الجثة وقد لبستا ثياب الحداد ، وحلتا شعورهما ، ودقتا صدورهما ورءوسهما بأيديهما ، كما لا تزال النائحات اليوم يفعلن ، وجعلتا تناديانه مستعيتين بزملائهما الآلهة لبعثه . فأما إيزيس فجعلت تقبل أقدام جثته نادبة : « عد إلى بيتك فأعدائك ليسوا هنا . عد إلى بيتك وانظر إلى فانا أختك التى تحب . لا تبتعد عني وعد إلى بيتك حالاً فإنك كلما غبت عن ناظرى اضطرب قلبي وحارت عيناى تبحثن عنك وجريت فى كل ناحية لكى أراك . عد إلى من تحب . عد إلى أختك . عد إلى زوجتك . أواه ! يا من وقف قلبه فلا ينبض ، عد إلى بيتك ولا تبتعد عني أنا أختك ابنة أمك . إن الآلهة والناس سيكونك جميعاً ، أما أنا فأدعوك معولة فى صراخ يشق عنان السماء . أفلا تسمع صوتى ؟ أنا أختك التى أحبيت على الأرض بما لم تحب مثله » . وأما نفثيس وكانت عند رأسه فأعولت نادبة : « أيها الأمير الجميل عد إلى بيتك لتسرى عن نفسك فليس أحد من أعدائك ها هنا . إنهما أختاك إلى جانبك تحرسان سرير موتك وتدعوانك نادبتين . قم من سريرك لترى أختيك . لقد هزم أعدائك وهأنلى حارسة أعضائك . قم انظر إلى ابنك هورس ملك الآلهة والناس . إنه يقيم الطقوس من أجلك ؛ فتوب ينشدك ويدعوك بتراتبه ، وأبناء هورس يحرسون جثمانك ، وروحك تودى لها طقوسها كل يوم إذ يجيء الآلهة يحملون الأوعية المقدسة لتعميد صورتك . عد إلى أختك يا أميرنا يا مليكننا ولا تبتعد عنا » .

وأمسك نجى أبيس عن القصص برهة كأنما غلبه التأثر بحزن إيزيس ، فقال الشاب :

— ما أشبه نواح إيزيس ونفثيس بنواح مصرات اليوم ! أو ليس حل

الشعور ودق الصدور والصراخ الذى يشق عنان السماء من طقوس حزن نساءنا على اختلاف طبقاتهن ؟ أقرانا مع تناسخ العصور والأديان والحكام والأجناس التى قطنت الوادى خاضعين لحكم ما أنبت الوادى من عقائد وعادات وتقاليد ؟

قال الذى دعانا إلى الشاى :

- وما طقوس الحزن إلى جانب ما نزال نؤمن به على أنه دين القبط أو المسلمين ، وهو ميراثنا عن أجدادنا من قدماء المصريين ! روى هيرودوتس أن الرجال فى غير مصر يقصون شعورهم آية الحزن على حين يرخيها المصريون من أقارب الميت علامة الأسى . وذلك ما نصنع اليوم . وأن المصريين وحدهم يحتملون أن تعيش الحيوانات على مقربة من الناس وفى دورهم ؛ وما يزال ذلك شأن مزارعينا ، وأنهم دون غير يختنون أبناءهم ، فعنهم ورث اليهود والمسلمون الختان . وذكر غير هيرودوتس طقوساً كان يقوم بها أجدادنا لبعض آلهتهم يقوم بمثلها اليوم عامتنا لبعض الأولياء . وفى ذلك مصداق ما ذكره كثيرون من أن العقائد لا ينسخ بعضها بعضاً ، بل يضاف بعضها إلى بعض . وأن كثيراً مما نسميه خرافات العامة وأوهامهم إنما هو بقايا متخلفة من أديان قديمة هى فى النفس الإنسانية أشبه بآثار الحيوانات البائدة المتحجرة فى الصخور ، والتى لا يسهل لذلك زوالها .

« وربما رأيت فيما سيجلوه صديقنا تنمة لحديث إيزيس وبعثاً لأوزوريس ما يعيد إلى ذهنك كثيراً غير ما ذكرت من عادات أهل هذا الجليل وعقائدهم » .

اتجهت الأنظار إلى نجى أبيس ، كأنما يريد كل أن يعرف ما لا يزال فى نفسه من آثار الفراعنة العظام . واستطرد هو فى حديثه :

- ولما أدت إيزيس فرائض الحزن استعانت بهورس وبنفتيس وبالآلهة ، فتلوا من الأدعية والأوراد لروح أوزوريس ما كفى لعودها إلى جسمه تمهيداً لبعثه . وهنا تختلف رواية البعث : فمن قائل إنه كان بعثاً زراعياً ، ومن قائل إنه كان حيوانياً . والذين يذكرون البعث الزراعى يرون أن الجثة حملت بعد الأوراد والأدعية إلى شجرة جميز ووضعت خلال ورقها ، وهناك تم بعثها بعد سبعة أيام إلى حياة خالدة تحياها في السماء . والذين يذكرون البعث الحيوانى يرون أن الجثة وضعت بعد الأوراد والأدعية في صورة بقرة صنعت من الخشب ظلت فيها سبعة أيام كذلك ، ثم تم بعثها إلى الخلد .

« ثم عاد أوزوريس من العالم الآخر يوماً وسأل ابنه هورس عن أجمل الأعمال في نظره ، فكان جواب الإله الشاب : أن يثار لأبيه وأمه ممن أساء إليهما . وأعلن الحرب على إله الشر . وكانت بينهما موقعة دامت أياماً وانتهت بهزيمة الشر ووقوع تيفون أسيراً في يد إيزيس . لكنها بدلاً من أن تقضى عليه أو تسجنه أطلقت إيساره . وقد أحفظ ذلك هورس حتى انتزع عن رأسها تاج الملك » .
هنا تدخل الأشيب معترضاً :

- يا لهورس من ساذج ! أحسب أمه نسيت يوم خدعها الظلام وألقى بها في أحضان تيفون فأخصبها ! فهل تراها وهى إلهة الخصب تقسو بتيفون لأنه الشر ، منكرة ما للشر في أحيان كثيرة من فضائل وحسنات ؟ !
وعجبنا لضلال الأشيب بعد سحر الفاتنة إياه ، واتجهنا لسماع قصة إلهة الوفاء :

انتزع هورس تاج الملك من رأس أمه ، فغضب لذلك الإله هورس وأبدل إيزيس من تاجها خوذة على صورة رأس بقرة تمثل الإلهة هاتور رمز إيزيس

نفسها . ويذهب القصاص إلى أن هورس ازداد لذلك غضباً فقطع رأس أمه . لكن هذه الرواية موضع شك عند المؤرخ اليوناني فلوطرخوس . وهو يذهب إلى أن الأم والابن تصالحا وعادا يحاربان الشر وانتصرا عليه في موقعتين نصراً حاسماً ، وصارت إيزيس بعد ذلك إلهة الخصب وهورس إله الخير ، ولعلهما ارتقيا بعد ذلك إلى السماء راضيين .

« هذا حديث إيزيس في مصر ، أما حديثها في اليونان وروما . .
هنا أشار الأشيب من جديد معترضاً :

أمسك بربك وحق أبيس هنية . ألا ترون إلى ذلك الزورق المرخاة سدوله من حوله ؟ اقصد بنا إليه ياريس . إنى لأنحس فيه همساً من نجوى الهوى لا أشك معه في أنه معبد سيدتنا سميراميس . وهذا هو يتجه صوب ذهبية صديقنا الخليل . فإذا صدق ظني فما قولكم في أن نسبق السيدات والسادة إليها حتى لا يحسب أحد منهم أنا تأثرناهم لغاية ؟

وبدا على حديث الأشيب من الجدل الذي تلهب به الزهرة دماء عباها ما ردنا عن مخالفتها . وردنا كذلك أنا شعرنا بالغبطة لرؤية الفاتنة من جديد ، فأشرنا إلى الريس أن يقترب من الزورق المرخاة سدوله . فأخبرنا هو أنه حقاً الزورق الذي استقله السيدات والسادة ، واستحثه الأشيب كي يسبقهم إلى الذهبية . وألفينا الخليل واقفاً على ظهرها كأنما ينتظر أحداً . فلما رأنا سابحين نحوه أشار إلينا منادياً :

تقدموا فشاركوني في ليلة ساهرة هي جديرة بمثلكم ظرفاً وأدباً .
ولما رأنا السيدات والسادة حين ارتقوا الذهبية بدورهم دهشوا ، وألقت الفاتنة على الأشيب نظرة معسولة ردت إليه صوابه . وكانت ليلة ساهرة أرخى كثيرون فيها لأنفسهم العنان ، وإن أبي نجى أبيس إلا أن يتم حديث إيزيس في مصر وروما واليونان .

راعية هاتور

صعدنا إذن إلى ذهبية صديقنا الخليل ، ثم أدركنا السيدات والسادة ومن بينهم فاتنة سميراميس إليها . وألقت الفاتنة على الأشيب نظرة معسولة ردت إليه صوابه . وتلقى الخليل الفاتنة وأصحابها باسماً قرير العين ، وتقدمهم إلى أماكن وثيرة أعدت على ظهر السابحة . وأدريت طرفي فيما حول فالفيت مقصفاً بلغ من الكمال أن كان بشيراً بليلة قَصَفٍ تثير في النفس أحلى المنى . وأخذنا من السيدات والسادة مجلساً كمجلسنا منهم في الفندق ، ثم كنا معهم أقل كلفة بعد ما قدمنا صديقنا لهم وأتم التعارف بيننا وبينهم . وسألت الفاتنة صديقنا الأشيب باسمه : هل نسي من تاريخ الآشوريين حديثاً أو خبراً . وكان أصحابها من جيراننا الشرقيين المتقبعين أباً عن جد حتى لا يتميز الإفرنج عنهم في قليل ولا كثير ، وحتى صارت عربيتهم إلى العجمة أو كادت . وبينما نحن نتحدث أقبل علينا آخرون صعدوا من زورق ، وآخرون جاءوا من ناحية الشاطئ . ومع هؤلاء جاءت جماعة يحمل أحدهم قيثارة والآخر رقا والثالث عوداً والرابع كمنجا . وعرفنا في العواد مغنياً رقيقاً تعرفه مجامع الأصدقاء ولا يعرف المحافل العامة . وفي أثر هؤلاء أقبلت فتيات ذات ظرف وقسامة وذل ، هن الساقيات الراقصات المحييات في لجة القمر وفوق لجة الماء خيالات عذارى البحار . ولما تكتمل الساعة حتى كانت الذهبية في عالم يموج بالرجال والنساء تغمرهم جميعاً غلالة رقيقة من ضياء فضي وهواء عذب يحمل معه قرأ . وفي مثل هذا العالم يتسرب إلى النفس إحساس الرضا والمسرة ، وتجري في العروق

آمال حلوة مبهمة ، ويستشعر الإنسان بما سيكون من أسباب الطرب
والنعيم . ويزيد في هذه الأحاسيس والآمال والمشاعر ما يكون بين الجمع من
تبادل ابتسامات وتحيات ونكات . والحق أنك كنت ترى الأشيب قد
ملكه كل شبابه ، فضحكت عيناه واقتصر ثغره ونضح بالبشر محياه ،
ووقفت نظراته عند فاتنة سميراميس لا تتحول عنها إلا لترتد إلى قرارة نفسه
تزيده ذوقاً لسعادته ونعيمه . أما صديقنا الشاب فكان لا يستقر في مكان ،
بل كان دائم الانتقال يحيى من عرف ويقدم نفسه لمن لم يعرف ، ويتبرع
بأجمل الثناء لكل ذات دل وسنى . وأما نجى أبيس فجلس إلى أصحابنا
السيدات والسادة يسمرون . وفيما هم في سمرهم دلف إليهم الخليل يكرر
ما يتوجه به لكل زائريه من شكر ومديح . قال صاحب السيدات والسادة
محدثاً الخليل ومشيراً إلى نجى أبيس :

- لقد كان صاحبنا وإخوانه يتحدثون في سميراميس بحديث آلهة
آشور وآلهة مصر الفراعنة . فليتنا عرفنا شيئاً من أمر حديثهم قبل اليوم ،
فجعلنا من ليلتنا هذه ليلة فرعونية ، أو ليلتنا يتاح لنا ذلك في وقت قريب .
قال الخليل :

- ولم لا تكون ليلتنا هذه الليلة الفرعونية ؟ إن لدينا في هذه الذهبية
من العدة ما يجعل منها إن شئت معبد الكرنك ، أو إن شئت قصر الفرعون ،
أو ما تشاءون من صور حياة آبائنا الأقدمين . وبين أولئك الفتيات اللاتي
حضرن من تمت بروحها وبقسمات وجهها وبنظراتها وبكل ما فيها إلى عباد
آمون بأمن نسب . وإليها يرجع الفضل في عدة الذهبية ، كما يرجع إليها
الفضل في غرام تأصل في نفسى بكل حياتنا المصرية . وسترون أنا لن
نجد نصيباً في إعداد ذهبيتنا إلا ما يجد معد المسارح في تهيتها لرواية
جديدة .

قال الخليل هذا وأجال بصره في الحاضرين حتى استقر في ناحية ،
ثم نادى :
- إلى يا راعية هاتور .

- لبيك يا حبيب آمون ورع والآلهة السالفين ! هل لنا في ليلة فرعونية ؟
وكأنما كان نداء الخليل إشارة ذات معنى ؛ إذ أقبلت إلينا تشق موج
الحاضرين فتاة هيفاء سمراء ذات دل وحوور وذات قسامة تعيد إلى النفس
صورة الفرعونة نفرتيتى ورأسها الساحر . وألقى نداء الخليل وجواب الفتاة
وإقبالها صمماً خيم على الجمع الذين التفتوا كلهم إلى ناحية راعية هاتور
في نظرة إعجاب من الرجال واستيعاب نقاد من النساء . واستقبلت الفتاة
القمر في طريقها إلينا ؛ فكانت أشعة عاشق السماوات هالة زادت ابنة
الفراعنة رقة وسحراً . وتلفت الأشيب إلى ناحيتها مع من تلفتوا ، ودارت
حدقتاه معها في بطاء دل على ذوقه جمالها . وأدرت ناظري لحظة فإذا فاتنة
سميراميس تحدج الأشيب والراعية ، وكأنما دب من الغيرة إلى نفسها
ما دعاها إلى أن تلفت غيرها عن هذا المفتون بها ، حتى لتعشى أن تفتنه
عنها . والصمت مخيم ، والفتاة تقبل ، والأعين مشدودة إليها ، والخليل
يفكر في الليلة الفرعونية ، ويكاد ذلك يطول لولا أن بدأت الفتيات والنساء
حديثهن وتهاتفهن كأشهى ما يستطعن ليصرفن الأنظار من جديد إليهن ،
ولكى لا يحسب أحد من الرجال أنهم أقل من تلك الراعية سلطاناً .
قالت إحداهن :

ما أعظم سرور الراعية بدعوة الخليل لليلة الفرعونية ! فهي لا تتقن
رقصاً كالذى تقوم به في دورها هذا . وأكبر الحظ في إتقانها إياه أن
ملابسه تخلع عليها شيئاً من الجمال .
وأجابت جارة لها :

- يجب أن نحمد للخليل على كل حال . فالضيف أسير الحلّى .
وأردفت كل واحدة عبارتها بابتسامة تجلت خلالها ثناياها الحلوة العذاب
فأمتعت النظر ، كما أمتع صوتها السمع ، واستعاد هذا وذلك التفات من
حولهما ، كما استعادت غيرهما التفات من حولهن .

وتداول الخليل والراعية. وجيرانهما فيما يصنعون ، ونادى هو بالخدم
وسار معهم خلفها إلى الطابق الأسفل ، ثم إذا بهم يصعدون من جديد وإذا
ستور تمد ، وإذا عيوننا تشهد صورة قصر فرعونى مشيد ، وترى خلال جدر
هذا القصر عمداً تذهب إلى اللانهاية كأنما هو يطل على معابد الكرنك من
ناحية ، كما ظل يطل من الناحية الأخرى على النيل ورياضه النضرة . ودعانا
الخليل أن نهبط وراءه ، وأشار إلينا جميعاً أن ندخل إلى غرف الذهبية
كى يلبس كل منا الرداء الفرعونى الذى يصادفه . وعدنا إلى القصر المطل على
الكرنك ، فإذا الحاضر الذى عرفنا يختفى ، وإذا عصر سلف يبعث ،
وإذا الحفدة تتقمصهم أرواح الأجداد وإن ظلوا فى ريعان الفتوة وإهاب
الشباب . وجلسنا إلى موائد ألقى عليها بنسيج العصور الغابرة أيضاً .
ومدت عليها ألوان الشراب فى أباريق من فضة . وبقي صدر المكان خالياً
تخطر فيه أوانس زانتين راعية هاتور وقد اتشحت بثوب أبيض انعقدت
أطرافه بين ثديها فى صورة الورد ، وظل بادياً من خلاله تخطيط جسمها ،
ولبست على رأسها شارة إيزيس قرص الشمس مقتعداً قرنى هاتور ،
وأمسكت بيدها مفتاح الحياة . واحتذت حذاء راقصة شد إلى رجلها
بسيور من فضة . ودار الخدم يصبون الشراب فى أكواب من بللور
صنعت على صورة زهرة اللوتس ، وسارت وراءهم فتاة أمسكت بيدها
صندوقاً صغيراً على صورة صندوق مومياء ظهرت تحت غطاءه موميأؤه ،
وجعلت الفتاة تكشف عنها كلما وقفت إلى مائدة فرغ الخدم من صب

الشراب في أكوابها للمحتسين .

قال الأشيب وقد لبس لباس الراهب :

- ما أكثر ما يحيط بحياة أجدادنا من أسرار يحتاج فهمها إلى التفكير ! فما بال هذه المومياء تدور بها الغادة الفياضة بالحياة بين جمع مسرة وطرب ؟ وما لهم يذكرون الناس وهم في ذرا نعمة الحياة بمصير الحياة المخيف المزعج ، بهذا الفناء فاغراً فاه يبتلع فيه إلى غير عودة كل من ألقى به يم الحياة إلى ناحيته ؟ ! أو ما كان خيراً لو أنهم تركوا ساعات المتاع القصيرة لا تشوبها صورة مريرة ؟

وسمع نجى أبيس سؤال الأشيب ، فأسرع إلى جوابه خيفة أن تظل حكمة الأجداد خافية على الحفدة ، أو أن يحسب أحد أنهم في كمال حضارتهم كانوا يعرفون الفزع أو يهابونه ، قال :

- إن أمر هذه المومياء لا يحتاج ممن عرف حياة السلف إلى تفكير ، فأبسط معانيها في مجلس شراب أنا صائرون إلى مثلها ، فلنغنم كل ما في الحياة من متاع قبل أن تنفذ الحياة ومتاعها فنكون كهذه المومياء رغبة عن المتاع وزهداً فيه وطمأنينة إلى خلد السكينة الأبدية . وهذا معنى تناوله الناس جميعاً في شعرهم ونثرهم ، وتناوله الندامي في أسمارهم . بل لقد أحسب أنه كان لا بد أن سيدور بخلدنا لو لم تنبهنا الصورة الفرعونية إليه .

« على أتى أرتاب في أن يكون هذا المعنى هو ما قصد إليه الفراعنة . ذلك بأن عقائدهم تنفر منه ، وتدلنا على أنهم كانوا يقصدون إلى خير من هذا الخاطر الذي يرد إلى أذهان أبناء اليوم . فهم كانوا لا يرون الموت آخر مراتب الحياة ، ولا يحسبون الإنسان يحرم متاع الحياة لغير سبب إلا انتقاله منها . بل إنه ليجد في العالم الآخر مثل متاعه معنا أو خيراً منه ما بقى جسمه مصوناً من التحلل مستعداً لأن تعود إليه الروح الشقيقة . وهذا

سر تشييدهم المقابر كما نشيد نحن القصور . وهو سر وضعهم أدوات المتاع في قصور القبور . أما الروح الشقيقة (الكا) أو الضعف على ما يسميه المؤرخون ، فتعود إلى المومياء التي حفظها التحنيط ، فتسمح لها أن تلذ بمتاع كمتاعها في الدنيا من غير حاجة إلى أكثر من أن تقع باصرتها على أسباب هذا المتاع . وهي تبقى في خلدتها وتبقى أسباب نعمة الحياة إلى جانبها مستمتعة بها ما بقيت المومياء خالدة على الزمن . فلينهل الناس في الحياة كل ورد النعيم ، فلن يزيدهم ذلك إلا إمعاناً في المتاع بهذا النعيم بعد الحياة .

قال الأشيب :

- حكمة بالغة وحق إيزيس . إن لك بعد الحياة ما كان لك فيها . ولم لا ؟ ألسنا دائماً نعيش على ميراث الماضي ، وغداً هو ابن اليوم ، ومشينا ذكرى شبابنا ؟ فليس إذن عجباً يوم نذر الحياة أن نظل نحيها وإن على صورة أخرى .

وبينا كان السقا يصبون الشراب وكان الأشيب ونجى أبيس يتحدثان كانت راعية هاتور في شغل بتنظيم ليلتها . استعانت بعدد قليل من أصحابها الذين لبسوا لبس الرهبان والراهبات كي يؤدوا طقوس عبادة إيزيس ، وأوحت إلى غيرهم من ضيوف الحفلة أن يصنعوا صنيعهم وأن يتابعوهم في كل عملهم . واختفى الموسيقيون خلف ستار وبدءوا يوقعون أنغاماً أشعرتنا أنهم غادرونا وغادروا القصر ومن فيه واختفوا خلال عمد الكرنك يحيون فيه عبادة رع وآمون . فقد كانت بعيدة ، بعيدة ، هذه الأنغام ، وكانت تزداد حيناً بعداً ، ثم تقرب بعض الشيء لتعود فتبتعد من جديد . وكانت كلما قصت جذبت أفئدتنا معها وزادت في الصمت الذي مد رواقه على المكان مهابة ورهبة . وظلت في ابتعادها حتى امتلأت نفوس الحاضرين

جميعاً قداسة دينية . هنالك بدأ الصوت يرتفع شيئاً فشيئاً مقرباً بذلك منا . وهنالك قام عديد من الحضور في صفين راهبات ورهباناً ، وارتفعت تراتيل لم تزد على آهات ولكنها كانت متأثرة برهبة المكان ، وكانت بامتزاج أصوات الجنسين مثيرة في النفس قداسة المعالي الإنسانية جميعاً وفي مقدمتها معاني الخصب والإنتاج .

وتقارب الصفان ، فإذا الأشييب إلى جانب فاتنة سميراميس ، وإذا هو لذلك أشد إيماناً بإيزيس ورع وآلهة أشور وكل من كان له في معرفة الفاتنة إياه فضل . وتباعد الصفان وختمت التراتيل ، وتابعت الموسيقى أنغامها شجية في استسلام وحنان ، واندفعت راعية هاتور بين رهبانها راقصة رقصاً دينياً ، مقدساً هو أيضاً ، بدت قداسه على أتمها حين رفعت ذراعيها فتشابهت أصابعها في دعاء واستغفار ، وخطرت في لجة لجين الضياء يستشف من خلال شقوق ثوبها قواماً لدنا يتثنى في موج مطمئن مع كل خطوة من خطواتها وخطورة من خطراتها . وكان كافياً أن تقف الراقية لتكون تمثال جمال ورشاقة تتناهبه الأعين فلا يزداد إلا رشاقة وجمالاً . لكن خطراتها بين صفى الراهبات والرهبان على أنغام الموسيقى الشجية زاد الجمال حياة ودفع إلى النفوس أقدس معاني العبادة والإذعان . وأولئك الفتيات اللواتي نفسن على الراقية سحرها في الرقص الفرعوني كن أكثر الحاضرين نهياً إياها بنظرات الإعجاب والإكبار ، أليس لكل امرأة ما تسحر به الرجال ؟ فلم لا تكبر كل امرأة في غيرها سحرها لتنال هي أيضاً من إكبار ما لديها ما يزيد الرجال سحراً وافتتاناً ! .

وبقينا في عبادتنا هذه زمناً ولت الراقية وجهها أثناءه صوب المعبد ، فإذا صوت ذلك العواد يرتفع منشداً في نغمة كنسية بنشيد إيزيس يختم به هذا المنظر الأول من مناظر ليلة الخليل . وعاد الرهبان والراهبات إلى

موائدهم ، وعاد السقاة يصبون الشراب تتبعهم غادة المومياء ، واكتملت حلقتنا وحلقة أخواتنا السيدات والسادة عدا صديقنا الشاب الذى بلغ من عبادته مبلغ الذهول ، وأعلن على أثر انتهائها أن لا مقيل له من ذهوله إلا أن تباركه الراعية وتتلو عليه الأدعية والأوراد جميعاً . أما نجى أبيس فقد وجد فى الحفل الفرعونى المحيط به ما دفعه إلى أن يعود إلى الحديث عن إيزيس وعبادتها وأعيادها ، قال :

— ها نحن أولاء نمثل صورة غير دقيقة من عبادة إيزيس فى ساعة متأخرة من الليل ، مع أن عباد إيزيس كانوا لا يعرفون سهراً ولا قصفاً . بل كانوا يذهبون إلى معبدها كل يوم لصلاة الفجر قبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود . وكان رهبانها ينتظرون العباد وعلى رأسهم الإمام الأعظم رواق الطلعة حليق الرأس والذقن مرتدياً ثوباً من التيل الأبيض بسيطاً كل البساطة . وكان هذا الإمام الأعظم يقضى حياته ناسكاً لاهم له إلا أن تطهر روحه بالعلم وبإدمان التفكير فى القدسيات وبتعليمها . وكانت أولى المراتب بعد الإمام مراتب الأنبياء المقربين إلى الآلهة المحدثين عنهم والمتحدثين إليهم . أما الرهبان والراهبات فكان شأنهم أن يعنوا بتمثيل الآلهة يلبسونها ويخلعون ملابسها المكونة من أقمشة نصفها أسود والنصف الآخر أبيض لامع ، للدلالة على أن ما نعرفه من أمر الآلهة يختلط فيه الضياء بالظلمات . وكان هؤلاء الرهبان يلبسون ثياباً أكثر بساطة من ثوب الإمام الأعظم ، تبقى بادية من خلالها أذرعهم وصدورهم ورءوسهم الحليقة . أما الراهبات فكن يلبسن معاطف تنعقد أطرافها على صدورهن كما صنعت راعية هاتور ، تحمل كل منهن فى إحدى يديها وعاء فيه الماء الطهور وفى الأخرى « السستر » آلة القدماء الموسيقية ، يهزونها ليوقظ صوته الكائنات من سباتها . فإذا جاء عباد إيزيس إلى قدسها

١٦٣

ووجبت الصلاة صعد الإمام الأعظم الدرج إلى تمثالها ، فأزاح عنه ستوره ، فظهرت باهرة في وقفها بما عليها من حلى الجواهر الوضاء ، تمسك بإحدى يديها مفتاح الحياة وبالأخرى الماء الطهور . وأمام التمثال يتوضأ الرهبان بالماء ويمسكون به على الأتقياء ، ثم يوقدون النار لتحرق ما في المكان من شر . فإذا طهر كل ما في المعبد دعا الإمام الأعظم الآلهة فلبت الدعاء . فقدم لها عبادها ما شاءوا من قرابين وضحايا .

« فإذا كان العصر أذن الرهبان للصلاة الثانية كما يؤذنون لصلاة ثالثة هي صلاة ختام اليوم يسدل الإمام الأعظم على أثرها الستور على إيزيس لتطمئن في لباس الليل حتى صلاة الفجر .

« أما أعياد إيزيس فكانت تقام في أول الربيع وفي أول الخريف ، وكانت غاية في البهجة والجمال لولا ما كان يخالط عيد الخريف من أيام أسي على مصرع أوزوريس . ففي الثالث عشر من نوفمبر (السابع عشر من شهر آتور أو هاتور الفرعوني) كان الرهبان يلبسون على رؤوسهم صور الطير والحيوان مما يعبد المصريون ، ويذهبون إلى معبد إيزيس فيمثلون أمام الشعب المأساة الإلهية الفاجعة ، يقهر فيها الشر الخير ، وتقوم على أثرها معركة إيزيس وهورس ونفتيس مع سخت ، لتنتهي إلى بعث الخير من جديد دون أن يقهر الشر أو يقصى عن الأرض .

كان الخليل قد جاء إلى جمعنا يحيننا مستصحباً صديقنا الشاب معه حين كان نجي^١ أبيس في ختام كلامه يتحدث عن أعياد إيزيس . فلما سمع عبارة النجي الأخيرة أراد مشاركتنا في الحديث فقال :

— ما أكثر ما يفسرون به مدلولات الآلهة القدماء ! أفحق أن إيزيس وأوزوريس وجماعتهما كانوا الخير والشر والصلاح وبما إلى ذلك من

صفات ؟ أم كان تيفون البحر ، وأوزوريس النيل ، وإيزيس الأرض وخصبها ، وهورس النبات الذى تمخض عنه ذلك الخصب ؟ وإن أصحاب هذه الرواية ليؤيدونها بأن مصر كانت فى الماضى يغمرها البحر حتى ما يزال يوجد فى جبالها ومناجمها أصداف وآثار حيوانات بحرية ، وأنه ظل يغمرها حتى دفع النيل بمياهه وبطميته البحر إلى الوراء فأخصب الأرض وأثمرها . أم لهذه الآلهة معان فلكية ، فتيفون هو الشمس المحرقة ، وأوزوريس هو القمر الرقيق المحسن ؟ وأصحاب هذه الرواية يذهبون إلى أن ضوء القمر مخصب يثمر الحيوان والأرض فى حين تحرق الشمس الحرث والنسل ، ويصلون ما بين الشمس والبحر قائلين إن البحر هو الذى أوقد للشمس نارها ولظاها ، حين تبعث مياه الينابيع والأنهر أغنياتها إلى القمر وضياؤه . أم أن أوزوريس هو النهار ، وتيفون الليل ، وإيزيس القمر وهورس الشمس ؟ أم هذه كلها صفات الربوبية مجتمع للآلهة متعددين ، وهى بعض صفات الإله الأعلى ذى الجلال ١٩ .

وما فرغ الخليل من حديثه حتى صاح صديقنا الشاب :

- والأرباب جميعاً ! إني لعلى حق حين قلت لكم إن الإيمان يحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان . فأرباب من الحيوان ؛ لأن فى الحيوان للناس خيراً ومتاعاً . وأرباب هم علم النصر وغلب الأعداء ؛ لأن فى النصر احتفاظاً بكل ما فى الحياة من نعمة وحرية . وأرباب هم عناصر الطبيعة صاحبة السلطان الأول على الحياة وأطوارها ، وأرباب هم الخير والجمال ولذة الروح فى الحياة . وبهؤلاء الأرباب وبغيرهم من مثلهم آمن أجدادنا ثم آمن آباؤنا . واليوم وقد سخر الإنسان لنعمته غير الحيوان وراض من قوى الطبيعة الكهربا والجو والأثير ، وراض هذه وغيرها من طريق العلم ، فهو يؤمن بالعلم وبها ، وهو فى مظاهر إيمانه جميعاً إنما

يبحث عن مكانة بين كل ما في الوجود تحفظ عليه الحياة في أنعم صورها المادية والذهنية والروحية . وليست سليقة الحيوان وفطرته في الاحتفاظ بالحياة إلا هذا الذي يتناوله إيمان الإنسان . ذلك بأنه هو الآخر يريد الاحتفاظ بالحياة في خير صورها . فمن الحق إذن أن الإيمان يحل من الإنسان محل السليقة من الحيوان .

كانت فاتنة سميراميس قد ألقت السمع أول ما حدث نجى أبيس عن إيزيس وعبادتها وأعيادها . فلما رآته بعيداً عن مثل حديث سميراميس وجمالها ، ثم لما رأت الشاب يتناول بحث السليقة والإيمان ، شاحت عنا بوجهها ، كأنما رأت فيما يقصه المتكلمون حماقات لا تغنى . أحس الأشيب انصرافها عنا فلم يشاركنا في الحديث ولا أعارنا سمعه بل اندفع يهمس في أذنها بعبارات رقيقة يصف لها بها رقة هذا الليل وجماله . فلما أتم الشاب حديثه كانت أكواب الشراب تطلب الساقى ليملاها . فأشار إليه الأشيب ، وسرعان ما حضر تتبعه غادة المومياء . فلما فاض الرغاء على حافات أكواب اللوتس قال الأشيب : - إن لك بعد الحياة ما كان لك فيها . فلنتبادل النخب من هذا الشراب الشهى ، ولنذكر إيزيس بوصفها جميلة يبهز جمالها أفئدة يطير بها الشراب ويطير بها مجلسنا الحلو الظريف ، ولا نضيع هذه الفرصة السعيدة في قصص الأساطير وفلسفة الإيمان . وإذن هات يا نجى الآلهة حديث الجمال وسحره .

وكانت من الشاب أثناء حديث الأشيب التفاتة فإذا راعية هاتور مقبلة ، فأسرع إليها وارتمى عند قدميها قائلاً :

- صدق صاحبنا الأشيب . لا خير في قصص الأساطير ولا في فلسفة الإيمان ، وإنما الخير كل الخير في الجمال وحديثه . وطلعتك ومشيترك وحديثك أدعيتك وكل ما ينبعث منك هو حديث الجمال ، بل هو أنغام

موسيقاه القدسية الساحرة . بالله يا نجى الآلهة إلا ما ذكرت لنا من أمر هاتور وجمالها ما يطرب له الجمع ويهش له جمال ساحرات الليلة فيزداد ضياء وإشراقاً . وحق عليك وأنت نجى العجل المقدس أن تعطف وأن تستعطف ربك الأعلى على البقرة المقدسة .

قال النجى ملبياً دعوة الصاحبين جميعاً :

— لا تحسب يا صاحب أن الرمز بالبقرة لهاتور معناه أن هاتور كانت بقرة بالفعل . وإنما كان ذلك رمزاً إلى أن هاتور كانت ربة الخصب كما كانت ككل ربات الخصب ربة الجمال . بل هى فى رأى أكثر المؤرخين صورة من إيزيس غير صورة الوقار وصورة الأمومة وصورة الطيبة . هى من إيزيس صورة الزهرة عند الرومان ، وأفروديت عند اليونان ، وسميراميس عند آشور . وحجتهم فى هذا أن اسم هاتور معناه بيت هورس ، فهى إذن من هورس ما كانت إيزيس فى أمومتها له . بل إن بعض المؤرخين ليرون أن هاتور أقرب فى نسبها لآلهة السماء من إيزيس نفسها أن كان الجمال مصدر الخصب والخلق . ويذهب بعضهم إلى أكثر من هذا ، فيراها أقدم الآلهة ومنيع الحياة ، بل يراها إلهة الطبيعة وكل ما فيها من صغير وكبير . لذلك كانوا يسمونها أم أبيها وبنت أخيها ، وكانوا يقرنونها إلى الآلهة جميعاً فى كل المعابد ، على أنها فى كل حال كانت عند المصريين زهرة جمالهم المطمئنة نظرتة ، اللدن قوامه ، الثابتة أردافه وسيقانه ، كما كانت إلهة الزينة والتحلّى . ولذلك كانت فى كثير من الأحيان تصور امرأة ممسكة بيدها أطواقاً هى أطواق الحب ، ولابسة من الحلّى عقوداً وأساور ومشابك وغيرها من أدوات الزينة مما يزيد الجمال براعة وبهراً .

وأمسك النجى برهة ، فإذا الأشيب قد تحركت نفسه إلى حديث الجمال مثلما تحركت من قبل ساعة تناولنا الشاى ، فقال :

— هاتور في مصر ، وأفروديت في الإغريق ، والزهرة في روما ، وسميراميس آشور ، كل أولئك كن في الإنسانية رمز الجمال وتمثال المرأة البارعة . فهل قى الناس منذ القدم غير المرأة وتمثالها للجمال رمزاً؟ وهل مصدر لإلهام الشاعر حتى المفكر وفن الفنان ولكل ما يأتيه الرجل من عظيم غير المرأة الجميلة ؟ حسب المرأة أن تكون جميلة ليغمر جماها كل ما سواه من صفاتها . وكانت راعية هاتور قد أخذت مكانها إلى جانب الخليل ، وكان صديقنا باب قد أخذ مكانه إلى جانبها والخليل محقق لذلك يكاد يتميز من الغيظ ' حقوق ضيافة يجلبها ويرعاها . على أنه إذ رأى الشاب يدنو من الراقية س في أذنها لم يملك إلا أن همس هو في أذنه :

— لا يملك الشراب يا صاح عليك لك فيحسبك أصحابك مخموراً .
ونالت هذه الكلمة من أنفة الشاب ، فأراد ألا يلاحظ أحد على وجهه برأ ، فاندفع معقبا على حديث الأشيب :

— هاتور والزهرة وأفروديت وسميراميس كلها أسماء لمعنى واحد صاغ خيال الأقدمين بدائع الأساطير . وإيزيس في مصر كانت هي عشتروت في فيقية وقبرص ، وكانت هي سيرس في روما . وتوت المصرية هو المريخ وناني . هكذا أذكر أني سمعت . أوليس هذا دليلا على اتفاق الناس في موير صلة ما بينهم وبين الوجود لاتفاقهم في طرائق النظر لما في الوجود ؟ لقد أحسب مما سمعت عن انتقال إيزيس إلى جبيل بالشام باحثة عن جثة زوريس أن عبادة هذه الإلهة انتقلت معها إلى فيقية وقبرص ، وأنها انتقلت ، هناك إلى اليونان ثم إلى روما ؛ فكان هذا سبب تشابه الأساطير حول بحيرة الكبيرة التي أسموها بحر الروم ونسبها البحر الأبيض المتوسط . وإذا اختلف هذا التصوير للوجود باختلاف طرائق النظر ، فما نحن أولاء اليوم نعرف من أمر أساطير الميثولوجيا القديمة إلا أنها أوهم خيالية تحلو في

الشعر ولا ظل لها من الحقيقة . مع أنها كانت تمثل الحقيقة الثابتة في تلك العصور . أو لو بعث ميت من أبناء العصور الفرعونية الليلة وحضر مجلسنا هذا أترأه يشك في أن هذه الستور التي تمثل الكرنك وعمده وتماثيله إنما هي تماثيل وعمد من حجر ، وأنه في طيبة لا بين أحضان القاهرة ؛ وفي مكان هذه الأوهام التي كانت حقائق أهل تلك الأجيال أقمنا نحن حقائقنا لتكون أوهاماً عند أجيال تخلفنا . وكل جيل يؤمن بما يصوره لنفسه على أنه الحقيقة ؛ لأن هذه الصورة هي التي تكفلطمأنينته في الوجود واحتفاظه بالحياة بين عناصر الوجود الدائمة التفاضل والتجدد . وإذا صح أن بقى شيء من الإيمان القديم لم يتغير - وهذا ما أشك أكبر الشك فيه - فلن يكون إلا ما يمس حياتنا المادية من طعام وشراب أو يمس آمالنا المهمة في خلد هذه الحياة .

استراح الخليل إلى عود الشاب إلى فلسفته في الإيمان أن صرفته عن الرعاية وصرفت عنه الجميلات جميعاً . ولم يعباً الأشيب بهذه الفلسفة أن كان في شغل بأحاديث حلوة تافهة مع السيدات والسادة وبالمتاع أعمق المتاع بجمال فاتنة سميراميس زادها لباس الراهبة براعة وسحراً . وأعان على حلو متاعه أن انصرف صاحب السيدات والسادة إلى شرابه ، فأنساه الغيرة وأنساه الافتتان بغير الشراب . ولما رأت الفاتنة من صاحبها هذا الانصراف وألفت في حديث الأشيب الشهي ما ملق زيتها وجمالها ، زادت عليه عطفاً بأن زادت عليه دلاً . ولم يصنع إلى حديث الشاب إلا نجى أبيس . وإذا رأى فيه تجديفاً سببه عدم التعمق في إدراك حكمة الأقدمين قال :

- لا تصدق يا صاحبي بما تسمع عن كل هذا التطور في تصوير الإيمان ، ولا تحسب أن الناس انتقلوا في بضع ألوف السنين القليلة التي يعرفها التاريخ بمقدار ما رويت . فلو أنك عدت إلى فلسفة الأقدمين وقرنتها إلى فلسفة اليوم لرأيت مذاهب الإيمان والشك والإلحاد يعرفها حكماء الفراعنة والإغريق كما

يعرفها مفكرو اليوم وفلاسفته . ثم إنك لو استعرضت عقائد السواد اليوم لرأيت فيها أكثر مما تسمعه في أساطير الأقدمين وهمماً وخيالاً . وبين هذه المذاهب الفلسفية والأوهام المحسنة للسواد في حياته كانت الحقيقة وما تزال ، وإن كانت لا تسلم نفسها إلا لمن أخلص في البحث عنها حباً فيها وحرصاً على طمأنينة نفسه إليها . وأنت إذا رجعت إلى رأى حكماء الأقدمين من الفراعنة والآشوريين والإغريق والرومانيين رأيتهم جميعاً يقولون إن الحقيقة المجردة وحدها يجب أن تكون غاية حياة الحكيم . وكثيرون من المخلصين دلهم إلهامهم على هذه الحقيقة ، فأذاعوها في الناس منذ تلك العصور البعيدة ، ثم لم تغير مباحث العلم مما أذاعوا كثيراً ، وأحسب أن الناس ما داموا أناساً ومادامت أدواتهم في البحث هي حواسهم ، فلن تتغير الحقيقة العليا أمامهم وإن اتسع ميدانها ، وإن عرفوا من أسرارها ما كان معجزاً لهم .

كان أهل القصر الفرعوني بعد نشيد إيزيس قد اطمأنوا إلى مجالسهم ، وعكفوا على شربهم ، وشغلوا بالحديث الرقيق مع الراهبات ، وكنت لا تسمع لحديثهم أول المجلس إلا هسيساً لا تكاد تميزه . فلما دب ما احتسوا في أكواب اللوتس إلى خفايا نفوسهم صرت تسمع ضحكات رقيقة محتشمة ، وتسمع نكات تتبادل بين مائدة ومائدة . وأدى هذا إلى زيادة في التعارف والتفاهم ، وإلى تقارب بين بعض الموائد وبعضها الآخر . ونخشيت راعية هاتور أن يطول هذا ، فأومأت إلى الخليل فتركنا فتبعناه بنظراتنا ، فإذا به يهمس في أذن العواد ، وإذا بفرقة الموسيقى تختفي وراء الستور من جديد . ولفتت هذه الحركة الحاضرين ، فجعل كل منهم يصلح من ملابسه ليعد نفسه للمنظر الثاني من مناظر الليلة الفرعونية ، وإن كان لا يعلم ما سيكون هذا المنظر ولا مادوره فيه إلا كما يعلم ما تنجي الحياة من مفاجآت ، وإن كان في مفاجآت الحياة ما يفجع ، على حين كان الجمع ينتظر في مفاجآت هذه الليلة ما يلذ البصر والسمع .

أفروdit

اختفت فرقة الموسيقى وراء ستور ذهبية الخليل التي انقلبت معبدًا فرعونياً قديماً ، وجعل كل من الحاضرين يصلح من ملابسه للمنظر الثاني من مناظر هذه الليلة الساحرة . وسادت برهة صمت لم تطل أن حل فعل الشراب عقدة الألسن ، وبعث إلى النفوس من معالي الابتهاج ما أعجزها عن السكينة . . وأضاف ضياء القمر الذى ازداد نحولا ورقة إلى بهجة النفوس هياماً بالجو السائح ، وهياماً أكثر منه بدّل الراهبات الباسمات بسماوات نعيم ورضا . ولبثنا على ذلك برهة لم تطل ، ثم إذا بنا نحس بادئ الأمر ثم نستيقن بعد ذلك أن أصواتاً موسيقية بعيدة تجيء إلينا مبطئة مبطئة ، كأنما هى تهبط من سابعة السموات . ووقفت راعية هاتور مبطئة مبطئة هى أيضاً تستقبل هذا الصوت السماوى الهابط إليها مع شعاعة من ضوء القمر . فلما كادت قامت تنصب تقدمت برجلها اليمنى ورفعت يديها إلى ناحية الصوت ، كأنما تستجدى من الآلهة مزيداً فى سعادة الليلة . وفى ضراعة استجداء الآلهة رقصت الراقية رقصاً قدسياً ، فلم تترك وسيلة لاسترضاء أهل السماء أو للتأثير فيهم بها ، إلا لجأت إليها . وما أحسب أن هذا القوام اللدن المتثنى استعطافاً الواهب نفسه للأرباب هبة حلال ، إلا نال رضاهم وما يطمع فيه من نعيم . فلم يكد هذا الرقص ينتهى حتى كانت دقات الموسيقى ترتفع فى أنغام طرب وسرور وبهجة لم يستطع الجمع معها إلا أن يقوموا مبتهجين يشكرون للآلهة أنعمهم . وما دامت الآلهة قد بعثت من سماواتها رقص الطرب فإنما يكون شكرها بالإذعان لمشيئتها وبالإيمعان فى الطرب . على أن القوم لم ينتظروا طويلاً ليعرفوا هذه المشيئة ؛

فقد ارتفع من خلف الستور صوت العواد منشداً :
 « شكراً للأرباب ، أرباب السماء . قد منحونا غبطة وهناء ، فانعموا
 بالعيش في لج القمر ، عاشق القبة الزرقاء وهَّاب الثمر ، ثمر العشق لمن جن
 غراماً . شكراً للأرباب . . » .

وعلى أنغام هذه الأنشودة انتقلت الراعية من رقص الاستجداء إلى رقص
 الشكر ، ومن التثني في ضراعة إلى القفز في مرح ، كأنما تريد أن تطير إلى
 آلهة أجدادها الفراعنة تقبلهم تقييلاً ، أما الجمع فاندفع يغنى : شكراً للأرباب
 أرباب السماء . وفي نشيده اختلطت أصوات الرجال القوية بالأنغام النسوية
 المشجية ، وإن تميزت هذه الأنغام كما يتميز الماس المركب على الذهب
 الأبيض . وأمسى القوم في أنشودتهم وفي رقصهم زمناً ، حتى انقلبت الموسيقى
 مرة ثالثة إلى أنغام ردت النفوس إلى الشعور الديني ، وعادت بالمنشدين إلى
 احترام معنى لباس الرهبان . ودعا القوم شبهها بموسيقى المنظر الأول إلى أن
 يقفوا صفين رهباناً وراهبات لتخطر بينهما راعية هاتورة راقصة رقصاً دينياً هو
 رقص التوبة والاستغفار خرت في ختامه ساجدة وقد علا بالنحيب صوتها .
 وما كان أشد دهشتنا حين ألقيناها ، بعد ما فرغت الموسيقى من عزفها وبعد أن
 اتجه كل إلى مقعده يريد أن يعود إليه ، ما تزال دمعتها تنهل على وجناتها
 الخمرية اللون فلما سكن روعها قال الذي دعانا إلى الشاي :

- كذلك الحياة : ضراعة إلى النعيم فهل منه فزهد فيه وتوبة عنه .
 صباً يتوثب ، وشباب يستمتع ، وشيخوخة تخشى وتستغفر . رجاء ما نكاد
 نحسبه تحقق حتى نراه حُلماً يتطاير . هذا معنى نراه كل يوم بأعيننا ، لكنه
 لا يترك من الأثر في نفوسنا ما كان لدموع الراعية التي أذابت قلوبنا وفتحت
 على هذا المعنى نظراتنا التي لا ترى كثيراً مما تقع عليه .

وعادت كل جماعة إلى مكانها ، وعاد الأشيب مع السيدات

والسادة فجلس إلى جانب فاتنة سميراميس كما كان . أما الشاب فقد ظل على مقربة من راعية هاتور يسألها عما بها وإن كره الخليل هذا التحكك الذى أثار من غيرته . على أنه فى رعايته حقوق الضيافة لم ينس أن ينادى السقا ليدوروا على الجمع بالشراب ، وسرعان ما امتلأت الأكواب أترعها السقا تتبعهم غادة المومياء . فلما عاد القوم إلى شرايهم استصحب الخليل الراعية إلى مجلسنا مع السيدات والسادة آملا أن ينصرف الشاب إلى حديث غير حديث الهوى . ولم يخطئ الظن ، فما كاد يستقر به المقام حتى انبج إلى ناحية اللى دعانا إلى الشاى قائلا :

— حق ما ذكره صديقنا نجى العجل المقدس . إن الناس اليوم هم الناس منذ بضعة آلاف السنين التى يعرفها التاريخ من تفكيرهم . لكنى بإزاء ما رأيت منذ لحظة أسائل نفسى ، أصبح أن الحقيقة المجردة وحدها يجب أن تكون موضع عناية الباحث وغاية حياة الحكيم ؟ وهل صحيح أن فى الوجود حقيقة مجردة غير هذه الحياة التى نحيا بما فيها من شهوات وأوهام وآمال وبما تنتهى إليه من تفران وتجدد ، يهبط بجيل إلى غيابات الفناء ، ليطفو بجيل آخر إلى عالم الشهوات والأوهام والآمال؟ وخير ما فى هذه الأوهام من حقيقة هو ما نحن الآن فيه من نعيم كنا ننهل منه وما يزال لنا أكبر الرجاء فيه بأن تعود الراعية الساحرة إلى الرضا عن الحياة لترضى الحياة عنا جميعاً .

فأسرع الخليل خشية أن يعود الشاب إلى ما يثير غيرته فقال :

— لقد ذكرت أن هاتور فى مصر هى سميراميس فى آشور وهى أفروديت عند الإغريق . وقد أسمعنا نجى أبيس من أمر هاتور حديثاً شهياً ، فهل لنا أن نسمع عن أفروديت مثل هذا الحديث ؟

وكأنما أراد الخليل بذكر أفروديت وبرواية قصصها أن ينسى الشاب وغير الشاب راعية هاتور لتبقى خالصة له من دون الرجال الحاضرين جميعاً ،

فلا يضطر أن ينبه أضيفه إلى فضل الراعية وجبه لها في إعداد هذه الليلة لمتاعهم ، وأن ينبه الشاب إلى ألا يخرج به الشراب عن صوابه .

وكان الأشيب قد نال من رعاية فاتنة سميراميس التي صدفت عن صاحبها الأول لنسيانته إياها في شرابه ما جعله يملق جمالها بنظراته دون أن يستطيع قولاً إلا همساً لا يرى من اللياقة أن يسمعه أحد غيرها ، لكنه إذ سمع دعوة الخليل إلى قصص حديث أفروديت ، وإذ كانت أفروديت إلهة الجمال والحب والرغبة والخصب وكل معاني الحياة محققة على الحياة ، فقد رأى في توليه قصص حديثها الوسيلة إلى مخاطبة صاحبته في شخص إلهة الرغبة . لذلك سارع إلى هذا القصص في لهجة مطمئنة تنطوي طمأنينتها على شيء من الإيمان بأفروديت يشبه إيمانه بسميراميس وفاتنتها . قال :

- ليست إلهة الجمال والرغبة أفروديت إغريقية الحسب ، بل هي فينيقية من قبرص . ولعلها تتصل صلة لم يحدثنا عنها التاريخ بزيارة إيزيس جبيل باحثة عن أوزوريس . على أن أزيود يذهب إلى أنها نشأت نشأة أخرى . ففي معركة بين الإلهين القديمين أورانوس وكرونوس قط الأخير رجولة الأول ، فسقطت هذه البقايا المقدسة على لجج الموج ، فحمل منها رغاؤه الذي ظل يجتمع حولها حتى كملت منه ساعة بلوغها قبرص الإلهة الساحرة ذات التاج الذهبي . ويذهب هوميروس إلى أن الإلهات أعجن بأفروديت ساعة رأيها ، فأنشدن في حضرتها أغنيات المرح ، وزين آذانها بأقراط الذهب ، وخلعن عليها ما كن يلبسن في أعناقهن وعلى صدورهن من أطواق ولبات . فلما تمت زينتها خرجن بها إلى الآلهة حافات من حولها . فما كاد الآلهة يرونها حتى هام كل بسحرها وتحركت فيه لواذع الرغبة وتقدم يريد منها زوجا له وزينة لمضجعه الإلهي وكمالا لربوبيته . وكيف كان لأى منهم سبيل إلى النجاة من سحرها وقد كان الحب والرغبة بعض تبعها ، وكان يتضور مع عذب شداها

سحر الحديد وسحر الابتسام وسحر الكذب وسحر المرأة جميعاً .
 « على أن إلهة الجمال والرغبة كانت من الذكاء بما طوع لها أن تنال من
 رغبة كل إله . وكانت من الكرم والفتنة بما دعاها إلى أن تصل بين الآلهة
 والناس بأوثق صلة . وعلى الرغم مما كانت تعرفه وتشعر به من كبرياء الآلهة
 وحرصهم على ألا تختلط أنسابهم بأنساب عبادهم ، فقد سخرت من هذا
 الحرص وتلك الكبرياء ، وجعلت تخدع الآلهة في الناس والناس في الآلهة ،
 فتدس في مضجع الإله جميلة من بنات حواء ، وفي مضجع الإله . . جباراً
 من بني آدم . وكأنما دفعته الرغبة آخر الأمر إلى تذوق ما أتاحت لغيرها ذوقه ،
 أو كأنما حقق عليها أبو الآلهة زوس ، فأراد أن يخضعها لما أخضعت هي له
 غيرها من الآلهة ، لذلك ما لبثت أن رأت أنشيز يرعى أبقاره على سفوح الأيда
 حتى امتلأ جسمها بجماله الساحر سحر جمال الآلهة غراماً ورغبة . فأسرعت
 إلى معبدها وأحاطت بها الشاريت حتى استحمت ثم عطرنها بالعطور الإلهية ،
 وازينت ولبست ثيابها النمامة ، وخرجت قاصدة سفح الأيда ، حتى إذا رآها
 أنشيز جنّ بها ما يجنّ كل من رآها من الناس والآلهة طراً . على أن الخوف
 ملكه أن تكون إلهة فيصبيه من الاقتراب منها أذى . لكنها خدعته بقولها
 إنها ابنة ملك فريجيا ، وإنها جاءت إليه بأمر أبيها لتصبح له زوجاً . ولم يطق
 أنشيز أمام جمالها صبراً . وكان له مخدع وثير كساه من جلود السباع والضباع
 التي صادها ، فذهب بها إليه وهي كاسرة الطرف تزعم الحياء . ولما أفاق
 من غشيته وبصر بها وقد ارتدت ملابسها لم تبق لديه ريبة في ألوهيتها ،
 فتضرع إليها ألا يصيبه ما يصيب من تخالط الإلهات الخالدات من ذهوب
 الشباب . فطمأنته وإن لم تخف عليه أنه مصيبه الهرم الذي لا يرحم حين
 يهدم الناس هدماً ، ثم إنه سيعتاض من هرمه ومن مشيبه أبناء من الآلهة
 تخلد فيهم قوته . أما هي ، أما أفروديت ، فسيصيبها من فعلتها معه سخرية

الآلهة إن هم علموا بشيء من أمرها . لذلك حذرت أنشيز أن يقول شيئاً أو يفخر بما صنع ، وإلا أصابته الصاعقة بإذاعته سراً يجب كتمانها .

« وإنما كانت صلة أفروديت بأنشيز عماية ساعة . لكنها أولعت حباً بأدونيس ، حتى لقد ذهب يوماً للصيد فاقتحمه حيوان مفترس وجرحه جرحاً مميتاً ، وكان هذا المنظر بمرأى من أفروديت ، فطارت إليه ناسية أن تحتذى ، فوطئت قدمها شجرة ورد جرحتها شوكتها فأسالت منها نقطة من الدم . وكان الورد إلى يومئذ أبيض اللون فاحمرَّ لونه من دم أفروديت ، وأقامت تبكي محبها زمناً أدهش الذين عرفوها صديقة الهوى والعابثة بكل معاني الوفاء .

« ولأفروديت غير هذا من قصص العبت بالآلهة والناس استيفاء لرغباتها ما يطول حديثه . على أن حكومتها هي وحيرا وهيلانة إلى الشاب البارع باريس لا يجهلها عالم بتاريخها . فقد تنافس النسوة الإلهات الثلاث في الجمال فاحتكمن إلى باريس . وكيف كان له أن يتردد في حكومته بعد الذي تضرع به جمال أفروديت الباهر الفاتن . ولما حكم لها أرادت العبت بمنافستها هيلانة زوج أجا ممنون ، فبعثت إلى نفسها عشق باريس حتى تبعته تاركة مضجع زوجها مرتضية الشاب الذي حكم عليها خليلاً لها . وكانت هذه الفعلة سبب حرب طروادة . وفي هذه الحرب برز كل من هذين الخصمين لصاحبه ، ففجر الزوج باريس من خوذته . لكن أفروديت أسرع إلى معونة من قضى لها بحكومة الجمال فأنقذته وفرت به . وأرادت هيلانة أن تكفر عن خطيئتها بعد الذي رأت من ضعف خليلها . لكن إلهة الرعد هددتها إن هي فعلت أفسدت عليها وعلى زوجها الحياة ، وأرغمها بذلك على أن تظل في أحضان باريس برغم احتقارها إياه لضعفه وحقها على نفسها .

وكذلك يملك الجمال أفئدة الآلهة والناس جميعاً إناثاً وذكراناً . وكذلك

حكمت أفروديت آلهة الأولب كما حكمت الناس بذكاء جمالها الساحر .
 وحق لكل من منحت ما منحت أفروديت أن تجلس على عرش الجمال حاکمة
 على القلوب والأرواح والأفئدة ، مسخرة لرغباتها الآلهة والرجال تسخيراً
 يستريحون له ويرضون عنه ، بل يرغبون فيه أعظم الرغبة » .
 في هذا الموضع من حديث الأشيب التفت الشاب إليه وعلى شفته بسمه
 الساخر فقال :

- تحدث أخى تحدث . هات لنا من مثل ما ذكرت عن الآلهة
 والجميلات . حدثنا عن أفروديت إلهة البغى والفجور ، وقل لنا بعد ذلك إنها
 إلهة تستحق العبادة ، وأن تقام لها الصلوات ، وأن يحرق لها البخور . ولك أن
 تذكر أكثر من هذا أن الإغريق القدماء الذين امتازوا بالفطنة والذكاء
 والذين ألف مؤلفوهم خير ما كتب في الأخلاق ، قد شادوا لبغيتها ولفجورها
 من المعابد ما لا أدري أى دافع يدفعك إلى التحدث عنه بكل هذا الإطراء
 والإعجاب .

أتم الشاب حديثه ، فأدار الأشيب إليه وجهه لحظة ارتسمت أثناءها على
 شفثيه ابتسامة ازدراء وإشفاق ، ثم شاح بوجهه وتوجه به إلى ناحية صاحبتة
 الفاتنة وقال :

- يخطئ الذين يحسبون أفروديت إلهة البغى والفجور . إنما هى إلهة
 الخصب ، تريد أن تهدي للعالم أجمل ثمرات الحب وأبهها . ولذلك كان
 الإغريق يباركون باسمها الزوجين أول زواجهما ليكون لهما من الأبناء فى مثل
 جمال أفروديت وذكائها . وكيف تريد بإلهة الجمال والرغبة ألا تهب من
 الفضائل لكل مختاريتها ؟ أو لو ضمن إله الحكمة بحكمته على الناس أبقى
 مع ذلك جديراً بالربوبية ؟ ! ولو ضمن إله الحصاد أو إله الخصب بالخصب
 وبالحصاد وترك الأرض جرداء قاحلة ليموت الناس جوعاً ، أو ليطعموا

الزقوم ، أياكون أيهما قميئاً بقليل أو بكثير من حب الناس واحترامهم ، والناس مطالبون بهما لكل إله ؟ ! فماذا يستطيع إذن أن ينقم ناقم من أفروديت أو من سميراميس أو من كل إلهة من آلهة الجمال والخصب إذا هي اتصفت بالكرم أول صفات الآلهة ، وخلعت من جمالها ومن رغبتها على العالم ، لتزيد العالم جمالا ، ولتزيد الناس في العالم رغبة ؟ ! ولسميراميس ولأفروديت في العالم رسل من بنات حواء هن مثل جمال أولئك الآلهة ، ويملكن من وحي الرغبة ما كانت الآلهة تملك . أولئك الرسل يباركن العالم ويبعثن إلى جوه شعراً ونعمة .

وفي هذا الموضوع من حديثه زاد توجه الأشيب للفاتنة ولعت حدقاته بندى بللهما وجعل منهما مرآة تسترد الفاتنة إليها لتردها إلى حنايا فؤاده . وشعرت هي منه بهذا ، فتنندت نظراتها هي أيضاً ، ونسيت صاحبها العاكف على شرايه فما يسمع مما يدور حوله من الحديث شيئاً ، ولا يتعفف عن أن يجيل عينيه في الراهبات حوله لا يفضل منهن واحدة على أخرى . وبدت من الفاتنة حركة دلت على حرصها على أن تبدى جمال ذراعها ، كأنما تريد أن تبين عنهما للأشيب المسحور بجمالها لتقول له : هما لك يطوقان كل جيدك فلا يعرف بعد تطويقهما شيئاً . وتابع الأشيب حديثه وقد تندی صوته كما تنندت حدقاته فقال :

— تبارك أولئك الرسل العالم ، ويبعثن إلى جوه شعراً ونعمة . وإذا هن لم يعنين بأن يكن أوعية خصب ، فحسبن فضلاً أن يوحين لغيرهن من تلك الأوعية حرصاً على أن يثمرن ثمرراً جميلاً . أُلستم ترون إلى كل امرأة لم تؤت من الجمال الحظ الذي ترضى عنه تجاهد لتبدو جميلة ، وتجاهد أكثر من ذلك لتنسل نسلًا يخفض من نسبة القبح في العالم . ولو اقتصررت رسالة أولئك الرسل من ذوات وحي أفروديت ، وعددهن على ما يزال عليه من قلة ، على أن

ينفحن العالم بشمرات جميلة ، ولم يكن المثل الذى تجاهد غير الجميلات ليكون ثمرهن مثله ، لكانت تلك الرسالة أقصر من أن تدفع بالعالم إلى نواحي الكمال كما تدفع رسالتهن الأفروديتية القدسية اليوم به .

ومع أن الأشيب كان متجهاً بكل حديثه هذا إلى فانتته فقد اقترت ثغور الراعية وحاسداتها عن بسمات الرضا لسماع قول هذا المفتون بالجمال ، ومالت كل منهن عند ختام الحديث إلى ناحية الصاحب الذى يملقها . وكان الخليل قد نسى الشاب ونسى أنه صاحب الليلة ، وترك نفسه لعواطفها ، وجعل يحدث الراعية حديث هوى ورغبة . ألم يكن قد أخذ هو أيضاً من الشراب الحظ الذى ينسى الحكيم قيود الحكمة ؟ ! ثم إنه لم يكن يخشى غضب أحد أن كان كل فى شغل بنفسه وبمن يستلين قوادها . وكان ذلك كله يحدث فى رهبة المعبد الفرعوني الذى ازداد رهبة أن أطفئت رويداً رويداً بعد انتهاء المنظر الثانى كل الأنوار الساطعة ، فلم تبق إلى جانب شعاعات القمر التى تخترق الستور سوى أضواء مستورة بحجب مختلفة الألوان تزيد جمال كل جميلة وضوحاً ، وتخفى ما أحدثه عبث الزمن بالوجوه ، فتلبس الكل حلة الشباب .

ونسيت فائنة سميراميس نفسها لحظة فى عذب حديث الأشيب وحلو ثرثرته ، ثم أجمالت النظر فيما حولها ، فإذا بها تجد صاحبها الأول قد غادر المجلس كأنما لم تبق له برؤية منافسه طاقة ، أو كأنما وصلت النشوة من غور نفسه حتى نسى كل ما حوله ، فهبط إلى إحدى غرف الذهبية ليتمطى فيها . وأحس الأشيب تغيراً فى بسمات الفاتنة لم يرتب فى أن الأسف ، على ما حل بهذا الصاحب ، كان سببه . لكن هذا التغير لم يدم إلا قليلاً ، وما لبث أن انقلب إلى زيادة فى إقبالها عليه وفى صراحة إعجابها بحديثه ورضاها عنه . وزاد هذا الرضا فى إشراق وجهها وضحك عينيها وفتنة ابتسامتها وضيء كل

جمالها ضياء زادته الرغبة ذكاء فضاعفت جماله . وعقد لسان الأشيب إزاء ما رأى . لكن عقدة لسانه جعلت صمته أكثر إيضاحاً عن كل ما يدور بنفسه من المعاني من كل كلام يمكن أن يعبر عنها . وأى كلام ولو أوقعت أنغامه على أوتار القدسية ، يمكن أن يعبر عن التفتاني في عبادة الجمال والإخلاص الصادق في العبودية لفاتنته ! وذلك الإخلاص وهذا التفتاني يتضاعفان إذ حلا نفساً كنفس الأشيب أولعت طوال حياتها بتقوى الله وتورعت عما عند عباده ، ولو كان ما عند عباده هو الجمال . وطال بهما الصمت وإن نطقت منهما النظرات أعذب منطق بكل ما تهتر به أعصابهما وأرواحهما وقلوبهما ونفوسهما من عواطف ورغبات ومعان .

وبعد زمن رفرق فيه إله الحب بجناحيه المضيئين على رهبان المعبد وراهباته ، بعد زمن لم يدرك هؤلاء الرهبان أطال أم قصر ، عاود الخليل رجوع من واجب المضيف ، فإذا به يهيب من جديد بالسقاة وبغادة المومياء ، وإذا به ينادى العواد وأصحابه :

— هلموا يارفاق فأوقعوا لنا دوراً . ولعل الصحب جميعاً يغتبطون أكثر الغبطة إن أنتم أنشدتم : « غننا في الشوق أو غن بنا » .
وأصلح الموسيقيون آلاتهم ، وغنى العواد أنشودة كليوباترة ، وعادوت الجمع يقظة للوجود بعد أن كانوا قد نسوا الوجود في أحلام آلهة الجمال والهوى .
وردد الليل الصامت على نواصمه الرقيقة وعلى أشعة عاشق السماوات أصوات الأوتار وألحان المغنى الذى استثار من طرب الحضور واستحسانهم ما زادهم عرفاناً لفضل الخليل . فلما انتهى الدور ووضع الموسيقيون آلاتهم جانباً ، قال الذى دعانا إلى الشاى :

— ألا يشهد هذا اللحن من ألحان كليوباترة بأن ملوك مصر القديمة وآلهتها كانوا يعيشون في حياة شعرية لا تقل عن حياة أفروديت كما وصفها لنا صاحبنا؟

قال نجى أبيس :

- كلا ، لم يخلق قدماء المصريين على آلهتهم كل هذا الشعر الذى خلعه الإغريق على آلهتهم . وإذا كانت ابنة البطالسة ذات الحديث الساحر قد جعلت من حياتها قصة خيالية ، فلعلها ، من بين ربّات عرش مصر وأربابه ، الوحيدة التى خرجت على حكمة الأقدمين . ولعل لها من العذر أن لم يكن دم آبائها مصرياً خالصاً ، ولم يكونوا عبداً مخلصين لآلهة الفراعنة الأقدمين . أما التاريخ فلم يحفظ لنا فى قصص إيزيس ولا هاتور ولا أية إلهة أخرى مثل ما يقص تاريخ اليونان عن آلهته وإلهاته . ولعل ذلك يرجع إلى الفرق الكبير بين طبيعة مصر وطبيعة اليونان . فبينما ما فى هذه من جبال وأودية يجعل سماءها عرضة لتغيرات كثيرة تبعث إلى النفوس ألواناً مختلفة من الشعور والحس وتطبع التفكير نفسه بطابع التلون ، إذا بمصر ساكنة إلى حياة واحدة هى الحياة على ضفتى النيل فى نضرة الوادى الدائمة ، تنفرج عنها الصحراوات إلى آفاق الآفاق وتظلها سماء دائمة الصفو . هذا النوع من العيش أدعى إلى التفكير فى القدسيات ، وأولها الموت ثم ما بعد الموت ، من تلك الحياة الإغريقية التى يُنسى حاضرها مستقبليها ، ويجعل أهلها يكون على المتاع بهذا الحاضر أشد إكباب . وليست قصة أفروديت وشهواتها وسحرها إلا صورة من نسيان المستقبل فى الحاضر . وليست حياة باكوس إله الخمر ولا دمر إلهة الحصاد إلا بعض هذه الصور . فأمّا آلهة مصر الفرعونية ، فكانت تزين جباههم جميعاً سكينه خلد الوادى المطمئن إلى حاضره طمأنينة تبعث بخياله وتفكيره إلى المستقبل الرهيب الذى ينتظرنا فى الأبدية . هاته السكينه ترونها على جبهة أبيس كما ترونها على جبهة أوزوريس وإيزيس وهاتور من آلهة الخير ، وترونها كذلك على جبهة إله الشر نفسه . جباههم جميعاً مطمئنة كجباه المصريين جميعاً ، فى حين تشتعل فى حناياهم نار المستقبل والتفكير

فيه . وهذا هو ما دعا الفراعنة الأقدمين إلى أن ينقروا في الصخر قبورهم وأن يعدوا فيها كل معدات الحياة الأخرى ، كي يكفلوا من طمأنينتها ما كفلوا من طمأنينة الدنيا . وهذا هو ما جعل صحارى مصر مأهولة في عصور كثيرة بمعزلة الصحراء ممن يقضون حياتهم صوماً وصلادة لينالوا الرضا في الحياة الآخرة . وهذا كذلك هو ما جعل مصر مهبطاً لوحى الحكمة أكثر منها مهبطاً لآلهة الشعر وشياطينه .

كان الشراب قد أخذ لب صديقنا الشاب . لكنه كان من قوة الإرادة بما يجعله يغلب فكره على نوازع غريزته كلما خشى أن يجد الناس في هذه النوازع موضعاً لنقد . لذلك ترك المحبين يعودون إلى التناجى بالأسرار ، واندفع معقّباً على قول النجى :

- لست أعتقد أن الفراعنة من أجدادنا قد قصرُوا أنفسهم على الحكمة وحدها ، وبخاصة على هذه الحكمة العبوس التى لا تعنى إلا بالموت وبما بعد الموت . فلقد كان لديهم إلى جانب آلهة الخير ، آلهة الزينة كهاتور ، وآلهة الشر وما يزين الشر للناس من ألوان الحياة . ثم إن فى القليل من القصص الذى قرأنا عنهم شيئاً كثيراً عن هذه الدنيا ونعمتها والمتاع بها . ولعلهم كانوا ككل العالم الوثنى فى حرصه على المتاع بالحاضر وفى تعلقه به تعلقاً اجتمع له من الحكمة حظ كبير . فنحن إذ نذكر المتاع على أنه أس من أسس الحياة ترانا ننتقل به إلى النظام الفكرى الذى ألفناه والذى نتوهم أن فى العالم حقيقة واحدة يجب التوفر عليها . فإذا كان المتاع هو هذه الحقيقة وجب التوفر على الحاضر إلى حد الإفراط فيه بما يخرججه عن معنى الخير الصحيح الذى له ، إلى النقيض منه ويجعله شراً بحتاً . أما هؤلاء الأقدمون الذين كانوا يحرصون على المتاع بالحاضر فكان لهم من سبل القصد فى المتاع ما تمليه غريزة الاحتفاظ بالمتاع نفسه . هذه الغريزة التى تدلك فى غير منطق ولا تفكير على أن دوام

المتاع لا يكون بالتوفر عليه توفر إمعان وإدمان ، بل بالنهل منه الفينة بعد الفينة لتدوم غبطتك به ، كما أنك إنما تدوم غبطتك باليقظة إذا قطعتها كل يوم بالنوم إلى الحد الذى يريح النوم جسمك فيه إلى يقظة جديدة . وكما أن اليقظة حقيقة والنوم حقيقة ، على أنهما ضدان متناقضان ، فالمتاع حقيقة والامتناع حقيقة ، وهما ضدان . وأنت فى حاجة إلى الامتناع وإلى المتاع حاجتك إلى النوم وإلى اليقظة . وهذا شأن كل حقيقة إنسانية يجب أن تجتمع من الضدين اللذين يكونان الحياة ، أى إنها يجب أن تكون الحياة فى كمالها . فأما هذه الأمور التى نسميها حقائق لأنها ترضى منطق العقل وحده فحفظها من الحق ضئيل ، أو قل إنها ليست من الحق فى شىء .

ومضت بعد حديث الشاب برهة صمت أعقبها ضحكة حلوة جاءت من إحدى نواحى المعبد لعلها كانت سخرية الحياة من العقل وتفكيره . ثم عاد التهامس إلى مثل ما كان تكلؤه أفروديت برعايتها ، وكان الليل تولى مدبرة أعجازه . وكلما ولى بعضه ولى معه بعض الحاضرين ينحدرون إلى حيث يخلعون لباس الرهبان ثم يستقلون السيارات إلى حيث ينتظرون مطلع ضياء الفجر . ولم يكن أحد يدرى فى أى سيارة جاء ، وإنما كان يعود إلى حيث يريد فى السيارة التى يدعى إلى العودة فيها .

واعترضت فاتنة سميراميس لأصحابها عن العودة معهم بأن صاحبها مضطجع فى الذهبية ، ولا بد لها من انتظاره . لكنها لم تكد ترى المكان خالياً إلا من الخليل والراعية ، وترى رجال الخليل ينزلون ستور المعبد الفرعونى لتعود الذهبية كما كانت ، حتى أشارت إلى الأشيب قائلة فى ابتسام :

— هل لك فى أن ترى مطلع الشمس على وجه أى الهول عند سفح

الأهرام ؟

ولما أجابها فى طرب واغتيباط إلى ما أرادت ، استأذنا الخليل والراعية

١٨٣

ونخلعنا لباس العبادۃ ، ثم استقلنا سيارة صاح الأشيب بسائقها :

— هيا بنا إلى الأهرام .

وصاحت الفاتنة :

— هيا بنا ، إلى بيت منّا .

حُكم الهوى

كان لنا في قرية . . . من قرى مديرية الغربية صديق ذو كرم وشهامة تكتظ داره دائماً بمشايع الفلاحين ومن سواهم من أصحابه وغير أصحابه ومن العظماء وذوى الحاجات . وكنت وجماعة من أصحابى نمضى عنده كل عام أسابيع نطمئن فيها إلى نفوسنا وننسى فيها متاعب الحياة . فإذا ذهبنا إليه استقبلنا بالبشر والترحاب ، ونزلنا منه في رجب وسعة ، وقضينا وقتاً بين التنزه في رياض حدائقه ومشاهدة ملاعب الخيل التى تقام لمسرتنا ، وبين المزارع الواسعة نقطع شاسع مسافاتها سعياً على الأقدام أو ممتطين متون الجياد . ولقد غرس صاحبنا في مزارعه كثيراً من الشجر أعان خصب الأرض على نموها وكثرتها ، فكانت للسائرين تحتها ظلاً ظليلاً يبعث إلى النفس أنساً ومسرة ويقيها حر الشمس أيام القيظ .

وكان لصديقنا ثلاثة أبناء لا يزالون ، على تقدم سنّ أبيهم ، يتمتعون بلذات الطفولة ويرتعون في نعمة حريتها . وكان أبوهم يحبهم حب العباد . فإذا وقعت عينه على أحدهم رأيت نظرات ملؤها الحنان والعطف ، ورأيت على ثغره ابتسامة الغبطة والنعيم . وإذا اقترب أحدهم منه أدخله إليه في تلمظ وقبّل جبينه النقى وهدق إليه طويلاً ، ثم أجلسه على ركبته ومسح شعره ، وشمله من حنانه بما لا يبدو من أم لابنها الوحيد . وكذلك كان غلوه في محبة أولاده موضع دهشة الكثيرين ممن يحلون فناءه .

وقد انتقلنا يوماً ونحن عنده من غرف الضيافة إلى فناء رحب لنشهد ملعب خيل، اجتمع إليه شبان البلاد المجاورة على أثر عودتهم من فرح كانوا

يتسابقون فيه . وجاء أوسط أبناء صديقنا ووقف بجوار أبيه ، فرفعه إليه وقبله وأجلسه إلى جانبه . وسرعان ما انتظمت الحلقة فدق الطبل وتقدم إلى الميدان فارس جواد أدهم محجل ضامر البطن والساق طويل شعر الذنب ضليع . وراض الفارس جواده ، حتى إذا تمكن من تتبع إيقاع الطبل رأيته كأنه الراقصة على المسرح ، يترنج ويميل ويدل ويعجب ، يرفع رأسه تارة فتمسح أصداعه « كراريت » رأس لجامه . ويتقدم إلى الأمام مسرعاً تارة أخرى فيضيف إلى نغمة المزمار نغمة صريف الأهلة الفضية التي تزين واسع صدره ، ثم إذا به كأنه ثمل انتشى فتشت أسوقه حتى كاد بطنه الضامر يمسح الأرض . وما هي إلا لحظة حتى تراه انتفض على سوقه فنظريمة ويسرة في كبر وخيلاء . وإننا لذلك مأخوذون برقص الجواد إذ أقبل أحد وجوه أهل البلد فوقف القوم يحيونه ، وأجلسه رب الدار إلى جانبه ، وقام الابن فوقف مع الأطفال الواقفين . وعاد الجواد يدهش الناس بتمايله وتثنيه ، وبدله وكبره ، ويلعب أبدى فيه من جمال قوامه ما تحرص كل راقصة على إبدائه حين تفتن في لين الحركات ، وتثنى القد ، وحديث الجسم كله بما يستكن فيه من أنغام الجمال . فلما أتم دوره خرج يتبعه الإعجاب والعطف . ودخل الحلقة جواد أشهب ليس به شامة إلا ما سال من محاجره . وما كان أكبر الفرق بينه وبين سلفه ! احتاج فارسه إلى أن يعمل فيه السوط والركاب لينال منه بعض حركات تعجبه . وساد وسط الجمع هرج بدل صمتهم الأول . وليت هذا الأشهب ما خرج . فإنه لما أمضه السوط ومزق جنبه الركاب أجفل فتدافع الناس من حوله وتفرقوا ، ونال ابن صديقنا المحبوب من الذعر ما وقع معه مغشياً عليه ؛ فقام أبوه كالمجنون يجرى إليه ليرى ما حل به ، وجعل يحلق إليه ، فإذا عيون مغمضة وخدود مصفرة ولون ذاهب ، فصاح : « يا بني ! » صيحة سمعها الناس وما زالوا يتدافعون مولين لا يفكر أحد منهم في كلمة عزاء لهذا

الأب الذاهل يشاركه بها في ألمه بعد إذ دعا هو الناس ليشاركوه في غبطته ومسرته . وأحطنا نحن بصديقنا ، ومن بيننا طبيب أراد أن يستخلص الطفل من يد أبيه ، فإذا الأب ممسك بابنه حريص عليه تختلج قلبه الزفرات ويجول في عينه العبرات ، حتى كأنما بدا له اليأس منه ، فهو يريد أن يعانقه عناقاً أخيراً طويلاً . ثم ذهبنا إلى دار الضيافة واقتدناه معنا إليها . فلما احتوتنا الدار أمسك الطبيب يد الطفل ونظر إلى وجهه ، وأخرج من جيبه زجاجة صغيرة أدناها من أنفه ، فإذا الطفل يفتح عينيه ويجهلها في الغرفة وما يزال به أثر الدهول . فلما رآه أبوه رجع إلى الحياة أخذ يده وقبلها وجعل يلاطفه ويداعبه حتى زایل الولد ذهوله وعاد إلى الحياة وعأوده تورده الجميل .

بعد أيام وقد انصرف أصدقائي لبعض رياضتهم ولزمت البيت لبعض شأني ، وبقي صديقنا معي يحادثني ، أقبل علينا هذا الابن وجلس معنا . فقلت لأبيه في ابتسامة :

- لقد أحدث عندك حادث ذلك اليوم من الشجن ما كدت تذهل معه . ولا أنكر عليك أن أبا يحب أبناءه حبك لأبنائك جدير أن يصيبه من الهم مثل ما أصابك .

فتنهذ طويلاً وقال :

- أي هم وأي شجن رأيت ! لقد قضيت طوال السنين وحياتي في شجن وهم حتى ابيض شعري وشاب مفرقي . ثم انقضى الهم والشجن بعد أن بلغت ما أردت . وكانت ثمرة ذلك هؤلاء الأبناء الذين ترى . أفتراني بعد ذلك مغالياً إذا بلغ حبي لهم حد الجنون ؟ !

لم أفهم كل ما أراد أن يقول . لكنني أدركت أن له في الحب حديثاً طويلاً ، وأنه قاسى في سبيله أكثر ما يقاسى الرجل ، ثم حصل على من أحب وبنى بها ، فأنجبت له هؤلاء الأبناء ، فشاقني أن أقف على همه الأول وشجنه

الماضى ، فقلت : أى هم تريد ؟ لعل لك حديثاً لا تضن علىّ بذكره ! قال :
- إنه يا صاح حديث حياى . وما ذكرته مرة وذكرت كيف توج القدر
جهادى بالظفر إلا أحسست جمال الحياة وجمال الجهاد فيها . وإنك
لصديق وفى لا يضن عليه بشيء ، فاستمع إلىّ :

* * *

كان لنا جار من أعز أصدقاء أبى . وكان لهذا الجار ابنة أصغر منى بنحو
ست سنوات ، جمعت الطفولة بينى وبينها برابطة المودة . فلما كساها الشباب
بديع حلته أخذت قلبى محاسنها ، وفتنتى جمالها ، وجعلت أختلس اللحظات
لأخلو بها أحدثها متعارف القول ومألوف الحديث ، وأشعر بكل ما فى ذلك
من نعمة ومتاع وحياة . ثم أحسست أن لى فى نفسها مثل مالها فى نفسى ،
ففاتحتها حديث الحب ، وتعاهدنا على الوفاء .

ومضت سنون وهذا الحب ينمو فى نفسينا ، ونزداد نحن إحساساً بعظيم
ما له من سلطان علينا ، حتى بلغنا من ذلك أن كنا لا نتفارق إلا على موعد
لللقاء ، وأن كنا نقضى ما بين اللقيين فى شوق ولهف ما أشدهما ! فلما عرف
أهلنا ما بيننا كان أول ما صنع جارنا أن حجز ابنته عن الخروج من الدار .
فهلانى الأمر وأزعجنى وأدخل الهم على نفسى ، وكدت أجن من فرط ما بى .
ثم عولت على أن أستعيد وإياها عهدنا الجميل الطاهر . ففتقت لى الحيلة أن
أستعين بعجوز تتردد على بيتنا لأستطلع رأى محبوبتى فيما اعتزمت ، وجعلت
أحاطى العجوز بالإحسان ، وأمنحها أشياء ضئيلة القيمة ولكنها ذات شأن
فى نفوس أولئك الريفيات . فلما استوثقت منها سألتها أن تكلم صاحبتى
فى أمرى لترى أهى ما تزال مقيمة على عهدى . فلما اطمأنت إلى حرصها
على لقيائى فكرت مع العجوز فى وسائل هذه اللقيا وطرق الخفية فيها .

ولم يكن ذلك عسيراً على امرأة قضت السنين بريد المحبين ، ومستودع سر المشوقين . وكانت لقينا كل ليلة في فترة ما بين المغرب والعشاء حين يكون أبوانا في الجامع يصليان الفرضين ، ويقومان لله بواجب الحمد على عظيم نعمته . في هاته الساعة كنا نلتقى فنجدد عهدنا ، ونذكرك حبنا ونتمتع باللحظات التي تمر بنا ونزيد عليها المتاع بذكر الماضي . فإذا أذن المؤذن بالعشاء جاءت العجوز فنبهتنا مخافة أن يسرقنا الوقت السريع الذهاب . وما كان أمر ساعة الفراق على نفسينا لولا الأمل في اللقاء !

ثم تحدثنا في أمر الزواج كيما ينتهي ما يوجب الفراق . لكن الشعور بأن الحياة الزوجية ، وإن أسعدها الإخلاص ، تخمد سفير نار الحب الذاكرة ، جعلنا لا نتعجل هذا الزواج ولا نفتح أحداً من أهلنا في أمره . وبقينا قانعين بتلك السوية بين الفرضين كل يوم مستمتعين منها بكل ما تحويه من سعادة .

وانقضى الصيف وتولت أوليات الخريف ونحن نرتشف كأس النعيم . وأنا لجلوس ذات ليلة نتناجي إذ أقبلت العجوز قبل موعدها مدعورة تنادي بصوت مختنق ، مخافة أن يسمع ، منذرة بالويل والثبور ، قائلة : إن أبا محبوبتي عاد قبل عادته ، كأنما كان على علم بما بيننا . فإنه ما لبث بعد أن تخطى عتبة الدار أن سأل عن ابنته وألح في المسألة غير مستمع لاعتذارات أمها أنها تستحم ولا منتظر مجيئها من حيث تكون .

أحسست هذه اللحظة بالقشعريرة وتولاني الجمود . أترانا سنفتضح ؟ وهل يمكن أن يعطن شرف محبوبتي بسبي ؟ لا . لا ! إلى لن أحتمل هذا . ولا بد من درء الخطر بأية وسيلة . . ولم تمر لحظة حتى ملكنتي فكرة اللحاق بأبي ومصاحبته طوعاً أو كرهاً إلى أبيها وخطبتها إليه زوجاً لي ، وملازمته حتى يدعن لما أريد . وأخبرت صاحبتي بعزمي ، وطلبت إليها أن تبقى حيث

هى حتى تجيئها العجوز بخبر دخولنا إلى أبيها فتدخل هى إلى الدار خفية حين يكون أبوها مشغولاً بنا عما هو فيه من الهياج .

وهرولت مسرعاً إلى أبى وناديته وكان لا يزال فى المسجد ، فخرج إلى وتبعنى من غير تفكير ومن غير أن يسألنى عن سبب مناداته مكتفية عواطفه بما رآنى عليه من اضطراب لتسوقه كى يتبعنى ويقضى طلبتى وغرضى . ولم أجد كبير عناء فى إقناعه بالذهاب من فورنا إلى جارتنا نخطب إليه ابنته . ودخلنا منظره الرجل وبعثنا له بالخبر بقدم أبى إليه . فما لبث أن جاء متكلفاً بالباشة مطرحة ما استطاع مظهر الهياج والغضب . وطلب القهوة ورحب بأبى وإن لم تخف على نظرات منه كانت تتجه أحياناً إلى وبها شئ من الحق ، بل من حب الانتقام .

وحضرت القهوة فقامت من حضرتها تأدباً ، وتلفت ساعه خروجى من المنظره ، فرأيت العجوز تومئ إلى أن أطمئن . وأزالت حركة العجوز مخاوفى ، فجعلت أفكر فى أمر ما سيتم هذه الليلة وأنا مضطرب بين السرور به والوجل منه . ثم رجعت إلى المنظره فوجدت أبى وحده ، فسألته عن جلية الأمر ، فأخبرنى أن صديقنا دهش لهذه الخطبة غير المنتظرة ، وطلب إليه أن يمهله حتى يدخل إلى أهله فيشاورهم فى الأمر لعل لهم فيه رأياً . وقد علمت من بعد أنه أول ما دخل سأل زوجه :

- هل جاءت البنت ؟

- نعم إنها فرغت من استحمامها وخرجت . أفأناذى بها إليك ؟

- إن جارتنا يخطبها لابنه . فما رأيك ؟ وهل لك علم برأيها فى ذلك ؟

- ومن لى بأن أعلم وما سمعت الخبر إلا منك هذه اللحظة ، ودعنى

أسأله .

فصاح الرجل بغتة :

- يا فاجرة ! من لك بأن تعلمي ! أو ما عرفت ما بينهما وكيف يلتقيان ؟
 - كيف يلتقيان ! هدى من روعك يا صاح ! إن ابتكت من يوم
 احتجبت لا تعرف ما وراء بابنا ، فأني لك بتصيد أخبار كالتى ترميها
 بها ؟ !

- كفى كذباً يا خبيثة وأدخلى البنت على لثوها وإلا فإني قاتلها . لن
 أرضى الخنا تحت سقف يظله الشرف ! أين هي ؟ .

فظهرت على الأم سياء الجلد وقالت بلهجة الحازم القدير :
 إن لم تهدي من حديثك فلن تراها ، اقتلنى إن شئت لكنى لن أدعها
 تدخل على أب طائش الحلم يرمى فتاة طاهرة بأقبح سبة من غير سبب .
 فأما إن راجعت صوابك وأعطيت على نفسك موثقاً أن تقابلها ببشر الأب
 الرزين ، فستراها بين يديك قبل أن يرتد إليك طرفك .

فأطرق الرجل ثم خرجت الأم ، ولم تك إلا برهة حتى عادت تصحبها
 البنت وشعرها مبلل مرسل على أكتافها وعيناها براقتان وخدها محمر . فلما
 رآها أبوها كذلك وجم هنية احتقن أثناءها الدم في رأسه ثم سأها :
 - إن جارنا يخطبك لابنه فماذا تقولين ؟

خفضت الفتاة طرفها حياء وتولت الأم الجواب :
 الأمر لك وما كان لبنت أن تراجع أبها أو ترد عليه قولاً . . .
 ثم أشارت لابنتها أن تخرج . فلما قاربت الباب ناداها أبوها مغضباً :
 - لعلك مرتاحة لهذا الخبر ! ألا فاعلمى أن الطلاق يلزمنى ثلاثاً
 إن أتممت هذا الزواج ! وأنت أيتها الفاجرة ! قومي من وجهي . اخرجي ،
 اخرجي . واعلمي أنى رقيب عتيد .

ورجع الرجل من حرمة إلينا وهو في هياجه ، وليث زمناً سكنت عنه
 الغضب فيه ثم قال لأبي :

- اسمع يا أخى . ما كنت لأعز عليك شيئاً وإن جل ، ولا كنت لأمنع عنك ما طلبت . لكنك تعلم أنى حجرت ابنتى بسبب ابنك الذى لا أسميه كى لا أغضبك . ولقد حلفت اليوم بالطلاق ثلاثاً ألا أزوجه منهُ ، ولن أحث فى يمينى . ومالك عندى من الحب والاحترام لن يؤثر فيهما أمر تافه كهذا . لكن بحق هذا الحب الذى بيننا إلا عقلت ابنك عما قد يس بيتى وما يقيم بيننا ثأراً لا تمحوه يد الزمان . وفتيات بلدنا كثيرات ، وبينهن من يفضلن ابنتى . فما عليك إلا تزويجه من إحداهن . وفى ذلك
لم أعرف ما قاله بعد ذلك فقد أصابتى حمى صحت معها :

- ألا لعننى الله إن لم أتزوجها ! وتعساً لك أيها الشيخ وللزمان !
وخرجت هائماً على وجهى وقد تولانى اليأس فأضل صوابى وضيق العيش أمامى ، وجعلنى أرى كل ما فى الحياة عدواً لى ، ونخيل إلى لحظتئذ أن لا بد لى من التغلب على كل قوة والذهاب إلى محبوبتى وانتراعها من بين أهلها والفرار بها لتقيم معاً دائماً وإلى الأبد .

وكانت ليلة قرة ، لكن السماء كانت صفواً ، وكان البدر المتألق يبعث فى لجة الليل خيوطاً من فضة تنير دجاء بضياء رقيق مطمئن . لذلك خشيت ، بعد ما سكن هواء تلك الساعة روعى إن أنا هممت بتنفيذ عزمى أول الليل ، أن يحس الناس بى ، وأن يكون الإخفاق نصيبى . فخرجت إلى المسجد ومكثت فيه ردىاً من الزمن أفكر- فيما أنا فيه شارع . وإلى لكذلك إذ مر بخاطرى أن مباغته الفتاة على غرة ومن دون علمها بالذى أنوى ، ربما أدخل الجزع إلى نفسها وجعلها تعترض ما أريد . لذلك رأيت أن ألبأ إلى العجوز المدبرة أستعين بها وأتدبر الأمر معها . وألفيتها عند مجاز الدار مكتوبة بائسة . فسألتها عما أصابها وفاتحتها فيما اعترمتها ومنيتها أكبار الأمانى . فما زادت جواباً على ذلك كله أن قالت :

- قضى الأمر يا مولاي ، فقد أقفل بابهم في وجهي ، فلا أستطيع أن أدخله بعد اليوم .

قلت : واليوم ، الآن ، هل في طاقتك الوصول إليها ولو عن طريق الشياطين ؟

فأطرقت طويلاً ثم رفعت رأسها وقالت : لا سبيل ! فلعتها وخرجت قاصداً بيت محبوبتي لأتم فعلتي ولو كلفني ذلك ما كلفني . فلما كنت إزاء بيتنا بصر بي أبي فناداني إليه ، فأفقت حين سمعت صوته وتوجهت نحوه ، فجعل يطمئنني بكلمات رفاق . وصحبنى حتى أمسى الليل وغلقت دوى الأبواب ، لكن ذلك لم يزدني إلا عزمًا . فخرجت بعد هجعة الناس وتسلفت جدار جارنا ووقفت إلى جانب الغرف أسمع فلما أبقيت أن لا حسييس دلفت إلى غرفة نومها ونوم أمها وطرقت الباب ، فانتبهت الأم وفتحت . وإذ تبينت وجهي في ضوء القمر رجعت فزعة مذعورة ، ثم أقبلت إلى ثانية وأدخلتني إلى الغرفة وأوصدتها ، وقالت بصوت تخنقه العبرات : - بربك يا بني ارحم أسرة إن أنت أتممت ما قدمت له قذفت بها إلى حضيض العار . بربك يا بني ! بحق هاته النائمة المهدودة التي نهكها التعب . بحق أنا وبحق الجوار لا تبجن عليها ، لا تقتل أباهما المسكين . ابنتي تحبك ولكن نفذ القضاء . ارجع وأنت واجد من النسيان خير تعلقة ، وفي غيرها من تعدلها مرات . ارجع يا بني .

أما أنا فلم أتحرك بل بقيت صامتاً صليداً منتظراً أن تفرغ من خرافتها كي أحتمل فريستي وأذهب بها . وفيما أنا في انتظارها استيقظت الفتاة وحدثت إلي . فلما تبينتي على ضوء المصباح الضئيل انتقلت من مرقدتها وأقبلت إلي وتعلقت بعنقي وجعلت تبكي ، ثم قالت :

- الوداع . . .

- كلا ! اذهبي معي الآن إلى حيث أريد .

فارتجفت الفتاة ثم تمتت :

- رحماك حبيبي بأمي وأبي ، ورحمة بي أنا أيضاً . الوداع الآن ،
ولكننا سنلتقي في المستقبل . بالله إلا ما رجعت أدراجك ، وبحق هذه
الزيارة لن يكون لغيرك في قلبي مكان ما حيتت .
وأغلظت في الأيمان وألحت وبكت ، فأخمدت عبراتها عزيمتي
وقبلتها قبلة الوداع ورجعت أدراجي .

* * *

بعد هذا الحادث بأشهر زوّجها أبوها من أحد أعيان القرى المجاورة .
وكانت ليلة عرسها ليلة مآثم عندي . لزم البيت وانفردت في غرفة من
الغرف وذرفت الدمع وتولاني القنوط . وفي الصباح رأيته خارجة من القرية
في هودج وقد أحاط بها رجالها ورجال العروس وساروا جميعاً وفي يد كل
منهم نبوته ومع البعض طبنجات سمعت طلقات منها تذهب في الهواء .
فلما ابتعدوا رجعت إلى نفسي أفكر والحزن يفيض عني . وإني لكذلك
إذ جاء أبي وصديق له . فلما رأيا ما أنا فيه من الهم أخذوا يرفهاني عني ،
وأكد لي أبي أنه سيزوجني من فتاة متى عرقها نسيت صاحبتني ونسيت
ما كان بيننا من ماض طويل سعيد .

وصدق أبي وعده . فعقد لي بعد أسابيع على ابنة عمدة أكبر البلاد
المحيطة بقريتنا . وأقيم لي ولها عرس نادر المثال . فلما حضرت زوجي عندي
رأيت فتاة خفيفة الروح جذابة المحاسن ، فرأيت أن أنسى فيها نفسي ،
وأجعل منها موضع حبي ، وأسدل على ما قبل يومها عندي حجاباً كثيفاً
يحول بيننا وبين ماض كان لذيذاً وكان لي فيه سعادة وهناءة ؛ فما مضى
انقضى وليس إلى إحيائه أو استعادته سبيل . وعملت لذلك بإخلاص

وجد . ووجدت من زوجى نعم المعين . وكان أكبر ما وجهت إليه عنايتى أن أخلق بيننا فى وقت قصير ماضياً طويلاً فأكثرنا من التروض والأسفار ، ووصلنا ليلنا بنهارنا لنظفر بأكبر قسط من السعادة يجب أن نناله . وكانت الفتاة نادرة الذكاء واسعة الحيلة ؛ فسرعان ما فهمت مواضع الضعف منى ، فاستفادت من فهمها هذا ونالت بذلك كثيراً من عطفى وميلى ، وجعلتنى أعتقد أنى سأجد فيها ما ينسينى كل هم وشجن . وبقينا كذلك شهوراً اطمأنت هى فيها واطمأن كثير من أهلى إلى اندثار كل أثر لحبوبتى الأولى من نفسى وشفاء كل جرح كلم به فراقها قلبى . والحق أنه اشتمل نفسى هدوء صادق ، وذهب ذلك اليأس القاتل الذى كان آخذاً بتلايىي إلى ما بعد زواجى ، وسكنت كلوم طالما استثارت منى صيحات الحزن والأسى . وإنا لكذلك ناعمين بعيشنا إذ أزمع أبى وجارنا الخروج معاً إلى الحجاز . فلما انتهينا من التجهيز وآن موعد السفر ، أقبل جمع غفير من أهل بلدنا وأهل القرى المجاورة مودعين . وكان فيمن أتى محبوبتى وزوجها . وبقى الناس فى هرج الوداع ومرجه أياماً . فلما جاءت ليلة البرزة خرج المسافرين ومعهما جمع غير قليل ، فنصبوا الخيام خارج القرية وأقاموا بها ليلتهم . ألا سقياً لك يا ليلة بروز أبى للحج ! لقد جررت على مصاعب ومتاعب كاد ينوء بها كاهلى ، لكنك توجهتها جميعاً بالفوز وختمتها بالسعادة .

كان فيمن خرج إلى خيمة النساء محبوبتى . وفيما أنا أطوف والناس فى زحمة العشاء لمحتها خارج الخيمة ، فوقفت مبهوتاً أحديق إليها . ورأيتى هى أيضاً فبهتت . ثم إذا قوة القاهرة دفعت كل واحد منا نحو صاحبه ، فتقاربنا حتى وضعت يدها فى يدى من غير أن ينبس أحد منا ببنت شفة . فى تلك اللحظة الرهيبة الرغبة ، لحظة اللقيا بعد طول الفراق ، فى تلك

اللحظة الجميلة الموهوبة خيم علينا الصمت وتولانا الدهول . . . وبعد زمن
خيل إلى فيه أن وجودي تلاشى فلم يبق لى من الحياة إلا هذه اليد
الممسكة بيدي ، سمعت ملكي تتمم وكأنما خنقتها العبرة :
- هكذا تنسانا ! .

لو أن الأرض انشقت ، والسماء هدت ، والجبال دكت ، لكان ذلك
أهون وقعا على من هذه الكلمة . نعم نسيها أنا الشقي . فيم عساي أكفر
عن ذنبي ؟ وأي جواب أردُّ به عليها ؟ وبعد لأي قلت :
- غفرانك صاحبتى ! لقد أحييت من نفسي لوعة لا بد لى بعدها من
الظفر بك أو الموت فى سبيك . وموعدا غداً بعد عودتى من السفر حيث
كنا نلتقى فى رعاية العجوز .
وتتاركنا . . .

تتاركنا وقد نفر من كلومى ما كان قد سكن ، وجشأت نفسى وجاشت ،
وثار وجودى كله ، وصرت لا أعى شيئاً مما يدور حولى ولا أبصر إلا موعد
الغد . وقضيت ليلة نابغية ملؤها الهم ، وقابلت زوجى لبعض شأنى ، فما وقع
نظرى عليها حتى رأيت الثعبان الذى نفث سمه فى حياتى ودفننى إلى
ارتكاب جريمتى .

ولم يتسع الوقت لأصعب غليها جام غضبي ، فاخترتفت من يدها
ما قدمت وأسرعت إلى الباب ، فتبعتنى تريد أن تعرف ما بى ، فزجرتها
بكلمة شديدة قابلتها بصبر وردت عليها بكلمة رقيقة كان جوابها منى :
- ارجعى يا لعينة أو أنت طالق ! .

رجعت هى ، وسافرت أنا إلى السويس ، وأنزلت أبى الباخرة وعدت
قبل أن يفكر أحد من الذين كانوا معى فى العودة ، ومن غير أن يعلم أحد
بعودتى : وقطعت الطريق بين المحطة وقرينتنا واجلاً سالكاً أقرب الطرق

رغم وعورتها ويمت موعدى ، فإذا حببتي تنتظرنى . فلما رأتنى بادرت
بالسؤال :

- كيف وجدت عودتك ؟ ولعلك كما أحب وتحب ! .

نعم يا صديقتى . ولعل مقدمى يسرك . وكيف أنت الآن ؟
كيف أنا ؟ . أواه يا صاحبي لو تعلم ! لقد قضيت أيامى منذ
تزوجت وأنا أقطع نفسى حشرات من أجلك . . . ولكن ! . . . مالك
أنت وهذا ! . . . متعلك الله بزوجك ومد فى أيام سعادتك . . . والله أيام
تقضت فى هذا المكان حين كان البدر يغمرنا فى سابغ لفته ، وحين كان
يحدونا الميل والعطف إلى أسباب الهناء والنعم . أتذكر يا صاح تلك الأيام ؟
أتذكر عهدنا وموائيقنا ؟ أتذكر مجيء العجوز تنبها إلى الوقت وقد نسينا
الوقت ونسينا الوجود ، أتذكر مجيئك إلى أبى تخطبني ؟ وهل تذكر
تسورك دارنا وتعريضك نفسك وإيائى للخطر ؟ ثم هل تذكر وعدى
إياك أن لن يكون غيرك فى قلبى مكان ما حيت ؟ أقسم بهذه اللقيا على
غير انتظار ! أقسم بحب ما زاده البعد إلا استعاراً . أقسم بحياتك أنت
ما حثت فى الوعد ، ولن أستطيع أن أحث فيه . . . لكن . . . كل شيء
يا صاح مضى وانقضى . رحم الله ذلك العهد ويرحمنى أنا أيضاً . إنه
غفور رحيم .

. . . وانهدت يهزها البكاء . أما أنا فقد صغرت أمام نفسى ، وتضائل
فى عيني قدرى ، ورأيتنى مجرماً بائساً شقيماً . هذه السيدة أمامى تبلغ من
علو النفس هذا المبلغ ويكون جهادى أنا أن أسدل على ما تذكره الساعة
حجاباً كثيفاً ، وأنسى موائيق وعهدى ، وأنسى قلبى وروحي ، وأنسى كل ما فى
الحياة من جميل وعظيم ، وأرضى ذلك العيش السخيف الذى ألبسونى !
كلا كلا ! لابد من استعادة هذا الماضى ولو ضحيت بالحياة فى هذا السبيل .

وصح ذلك العزم منى ، فهدأت جأش صاحبتى وقلت لها :
 - ما نسياناً لعهد سلف ، ولا فتوراً فى حب يملأ وجودى ، حصل
 ما تقولين . لكنى خشيت أن أنقص عليك عيشاً ربما وجدت فيه الطمأنينة .
 والآن أفتعدينى إن أنا طلقتك من زوجك أن تكونى لى زوجاً ؟
 قالت وما تزال العبرة تخنقها وعيناها مغرورتان بالدمع :
 - وهل رأيتنى يا صديقى رجوت فى الحياة غير هذا؟

وقضينا ما بقى من الليل فى حديث طويل تخللته الذكري والعتاب
 والاستغفار . فلما أذن مؤذن القرية انسحبت هى إلى المخدع الذى أعد
 لها ، وقمت أنا إلى المسجد فنلت فيه إغفاءة ما كان أحوجنى إليها بعد
 ليلتين مملوءتين بأقوى الإحساسات وأقساها ، وبعد سفر يوم طويل . فلما
 خلوت إلى نفسى ساعة الضحى أخذت أفكر فى الوسيلة لتنفيذ ما اعتزمت .
 عملت جهدى ، وأفنيت كل وسائل السلم لإقناع زوجها بتسريحها ؛
 فكنت كلما ازددت إصراراً ازداد هو ضناً بها وإمساكاً عليها . ثم أصبح
 الأمر بيننا عناداً ، وصار هو يرى عملى هذا جريمة أنقص بها عيشه وأفسد
 عليه حياته وأجنى بها على الفضيلة والمروءة ، وشاركه فى رأيه كثيرون بلغ من
 حقن بعضهم على أن خاطبني مواجهة بأن ما أجتزحه أكبر الكبائر .
 لم يكن ذلك ليغير من رأى ولا ليشينى عن عزمى ، بل جاءت محبوبتى
 إلى بيت أهلها بإشارة منى ، وتبدلت وسائل السلم مع زوجها وسائل وعيد
 وتهديد . ولقد سوّلت لى يوماً نفسى أن أدس إليه من يقضى عليه ،
 وكنت مقدماً على هذا لولا أن وقفت هى دونه مخافة ما فيه من خطر ربما
 جر علينا فراق الأبد .

وإنا لى شغل بتدبير أمرنا إذ جاءنا نبأ بغرق الباخرة التى تقل أبويننا
 عائدة من الحجاز ، فانقلب الفرح مأتماً ، وارتدت النساء ثياب الحداد ،

وأصابت الفاجعة موضع الألم من نفسى ونفس صاحبتى ، وصارت تجمعينى وإياها مع رابطة الحب رابطة الأسى المشترك .

وانتهى المأتم ومضت شهور بعده فتر فيها وعيدى لزواج صاحبتى ، وذهبت أفكر فى وسيلة أخرى لبلوغ غرضى ، وانتهيت إلى وجوب رفع الدعوى الشرعية عليه بأنه طلقها . وكم تهلت هى حين عرضت عليها هذا الرأى من غير أن تفكر فيما تحتاج إليه مثل هذه الدعوى من المجهودات لتكون نتيجتها على ما تريد .

على أن هذه المجهودات لم تكن شيئاً أمامى . ودعى الزوج للمحكمة الشرعية كى يسمع حكمها بأنه طلق زوجته . واستمرت هذه الدعوى أكثر من سنة استنفدت منى من العناية واليقظة والجهد مالا يحيط به خيال إنسان . فلم أترك شاهد زور إلا أتيت به ، ولا كاتباً فى المحكمة إلا رشوته ، ولا قاضياً إلا وصلت إليه . ولقد كاد الملال من هذه الجهود يصل بى إلى اليأس مرات . فلکم تأجلت الدعوى لغير سبب إلا لأن الكاتب رأى أن ما وصله غير كاف فأراد المزيد ! ولكم طلب منى باسم حضرة القاضى فلم أجد حيلة إلى رد طلبه ! وكم مرة رأينا تحوير المحضر وتغيير ما ثبت على لسان بعض الشهود . . . ولولا دافع من الحب والكرامة كان يدفعنى إلى الانتصار لهان على أن أترك كل شيء .

ثم صدد حكم المحكمة بالتفريق ، فطرت وحملت الخبر إلى صاحبتى وعانقتها عناقاً طويلاً . ولبثنا يومين ثم لين بلدة النصر فى هذه المعركة الطويلة متلهلين للمستقبل الذى يتم فيه زواجنا . لكن تعاقب الأيام دس إلى نفوسنا ما شغل بالنا . ذلك أن المحكمة حكمت بالتفريق من غير حق ، فهل يكون زواجنا مع ذلك حلالاً عند الله ؟

هنالك ذهبت إلى زوجها وعرضت عليه جلية الأمر ، وقلت له :

١٩٩

- يا شيخ ! لقد أرهقناك من أمرك عسراً . لكنك رجل خير لا ترضى أن تحملنا وزراً . وأنت تعلم أنا لم يدفعنا إلى ما عملنا الوقعة بك أو المس بشرفك ، وإنما دفعنا إليه مالا قبل لنا بدفعه . فهل لك في مثوبة من الله فتنتطق بطلاقها فتريح نفسك وتريح ضمائرنا ؟ .

فأطرق الرجل طويلاً يفكر ثم قال :

- لقد والله حملتmani همماً طويلاً . أما وقد رجعتما تريدان الله فليرض الله عنكما . وهي طالق . طالق . طالق . . .

فشكرت له منته ، ورجعت إلى أهلى وبلغت صاحبتي الخبر ، ثم ناديت زوجى وذكرت لها ما تعلم مما كان وما سيكون ، وقلت :

-- وإني لأخشى بعد زواجى ألا أعدل بينكما ، فإن شئت راضية سرحتك سراحاً جميلاً .

وانقضت أشهر وتزوجنا . وكان يوم زواجنا حافلاً جاء فيه الذين كانوا يعيرون عملى يهنتونى ، وأصبحت بينهم نصير الفضل والحق .

ورزقت من زوجتى أبناء ثلاثة : بنتاً وولدين . وهؤلاء الأبناء هم عندى زينة الحياة بل الحياة . هم تاج ذلك الجهاد الطويل الذى أنفقته أبوهم السعيد بهم . أفتعجب بعد ذلك مما رأيت من ذهولى حين أغمى على الغلام لما جفل الجواد ؟ !

* * *

إلى هنا انتهت قصة صاحبي . وهى قصة ألفت للهوى بزمام الحكم حتى فى دور القضاء . وقد غادرت صاحبي بعدها فغادرت رجلاً من السعداء القليلين الذين رأيت فى حياتى . غادرته وأنا أغبطه على ما متعه الله به من نعمة سابعة وهناء مقيم . . .

الشيخ حسن

انقطع الشيخ حسن عن معايشة أهل بلده . وبعد أن كان لا يفوته أداء الفرض جماعة في مسجد القرية الساكنة المطمئنة كان الناس لا يرونه بينهم ساعات الصلاة إلا نادراً . وارتسمت على جبينه - الذي كان نقياً إلا من آثار الورع والتقى - تجاعيد الهم والألم . أما نظراته التي كانت مملوءة بالإيمان وتنم عن راحة الضمير وسكينة القلب ، فقد انقلبت نظرات مضطربة تنعكس من خلالها هواجس تعاسة قلق لا تدرى أين تستقر ، وغارت عيناه وغاض لونه وبدا عليه نحول عصبي نكّره لنفسه ولكل من عرفه . مع ذلك كانت حركاته أكثر بطئاً ، وكأنما أمسك الهم الذي أثقله بكل عصب من أعصابه ، أو كأنما شل القلق الذي تولاه سلطان إرادته حتى قعد به عن أن يريد أو أن يعمل .

طراً هذا الانقلاب على نفس الشيخ حسن في أوليات الشتاء ، وطراً عليه بعد أن كان مثال التقى والحكمة ، وبعد أن كان الناس ينظرون إليه نظرهم إلى ولي من أولياء الله الصالحين . ذلك أنه قضى حياته بين أهل القرية مضرب المثل في كمال الخلق وصدق الإيمان وسمو النفس . وكان من أهل العلم الذين يعملون بالعلم ولا يتخذونه متجراً . فكان يعظهم بعد كل صلاة ويعلمهم ويفقههم في دينهم . وكان سمح النفس سريعاً إلى المواساة ، يشاطر الناس سرّاءهم وضراءهم ، ويفيض عليهم من إيمانه بلسماً لجراحات آلامهم وأحزانهم . وكان نساء القرية يجدن في سلطانه على أزواجهن ما يحمين من عسف هؤلاء الأزواج وما يقف حائلاً دون

٢٠١

التلاعب بأيمان الطلاق ، وكان خاصة أهل القرية وعامتهم في احترامه وتبجيله سواء . بل لقد كان كثيرون من أكابر القرى وأعيان البلاد المجاورة يرون زيارته فرضاً عليهم كلما زاروا واحداً من أعيان بلده . وكذلك كانت حياته وكان عيشه راضيين عنده مرضيين عند الله والناس .

وقد ظل متمتعاً بطمأنينة الإيمان منذ نشأته ، فلم يثقله من الهم إلا ما كان منذ سنوات ست حين ماتت زوجته تاركة وحيدتها فاطمة في العاشرة من عمرها . فقد كان يوم ماتت هذه الشابة الجميلة المحبة المحبوبة أشد الناس فجيعة وأهولهم جزءاً ، جمدت الدموع في عينه ، ودب المشيب إلى فؤاده ، وتجاوبت في قلبه كل أصداء الحزن والألم . ويومئذ سارع الناس من أهل بلده ومن كل البلاد المجاورة إلى تعزيته . ومن اليسير على قلب يملؤه الإيمان أن يتعزى . فهو على شدة جزعه لوقع المصائب لم يلبث أن ذكر أن لله في كل أمر حكمة ، وأن تلا قوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » . عند ذلك قشعت حرارة الإيمان سحب الهم ، وحمد الشيخ ربه إذ أسبغ عليه نعمة التقى واستبقى له فاطمة كى يسبغ على هذه الطفلة الجميلة كل ما في نفسه من حنان وعطف وحب أبوى .

وبعد انقضاء المأتم بقيت في الدار معه أخت له تحبه وتبجله . فلما انقضى الأسبوع الأول فاتحته في أمر زواجه من جديد ، وكانت على ثقة من أنها لن تحتاج إلى أى مجهود لإقناعه بضرورة الإسراع إلى القيام بواجب يفرضه عليه مركزه ومقامه بين الناس ، ويدعوه إليه قلبه المشوق ولا شك إلى ابن له يخلفه ويخلده . ثم إن النساء جميعاً مؤمنات بأن ليس بين الرجال من يطبق عليهن صبراً أو يستطيع عنهن بعداً . لذلك كانت دهشة أخت الشيخ عظيمة حين بدا منه التردد والإحجام ، وكانت بعد ذلك أشد دهشة حين رآته التزم عيش العزوبة قانعاً بهذه البنت التى أبقاها الله له .

لكن حبها أخاها وتبجيلها له منعها من الإلماع في الإلحاح بعد أن أمرها بالكف عن الكلام في أمر زواجه ، وجعلها تدرك ضرورة بقائها للقيام معه بشؤون داره وتربية فتاته .

وكانت فاطمة طفلة اجتمع لها تيه الوحيدة ودل الجميلة . ومع صغر سنها حين ماتت أمها بدت عليها رقة الأنوثة ودمايتها مع شيء من الأنفة في غير كبرياء . ولم يبعث بها أبوها إلى المدرسة ولا إلى الكتاب أن كان يعتقد أن المرأة إنما خلقت ربة للدار ، وأن حكم الدار حكماً صالحاً في غير حاجة إلى درس شيء غير ما تتوارثه أجيال النساء خلفاً عن سلف ، كما أن القراءة والكتابة وما يتبعهما من معارف كثيراً ما تنجى على الخلق وعلى الفضيلة التي يجب أن تكون زينة المرأة وحليتها . على أن كثرة معاشره المبت لأبيها وسماعها ما يفيض من علمه في حديثه العادى فتقا ذكاءها لكثير مما لا يوجد به الحظ على غيرها من بنات أعيان الأرياف والناس الطيبين فيها ، فكانت تعرف شيئاً عن المدن وعن المشايخ من أهل العلم الذين يقيمون بها ومن الذوات الذين يزورون هؤلاء المشايخ ويؤدون لهم فرائض الإجلال والاحترام بسبب علمهم وورعهم مما لا يفتأ الشيخ حسن يقصه عليها ليشعرها بماله ولها من سمو المكانة ورفيع القدر ، وليدخل بذلك إلى نفسها معاني الإباء والكرامة ، فتشرف أخلاقها وتعظم نفسها .

وتتابعت الأشهر والسنوات ، وكل سنة تمر تزيد فاطمة جمالاً وتزيد أباها تعلقاً بها . وكانت الفتاة محبة لجمالها مشغوفة به أى شغف . لذلك جعلت من مرآة خلقتها أمها خير صديق لها . فكانت لا تمل التحديق إليها بصفحة هذا الجبين النقى المصقول ، فوق حواجب نونية واسعة ، قوست على عيون دعجاء مملوء بريقهما الندى حياة وأحلاماً ، وبأنف دقيق يستوى والجبين حين انحداره منه ثم يرتفع قليلاً ليرتد عن وجارى

٢٠٣

منخريين اتسعا لشميم كل ما في الحياة مما يحملهما إليه الحسن والهوى ،
وليفصل بين خدين ممتلئين في استدارة جميلة ، تعلوهما حمرة تنطق بما في
الشباب من صحة ورغبة ، ثم تذوب في سمرة قمحية جذابة . وكان أشد
إعجاب فاطمة بهذا الفم الذي تراه في المرآة كأنه وردة لم تبرز من كمها
الأخضر إلا بمقدار ما تنبث القبله من بين هذه الشفاه ، فتبتسم له
مسرورة به راضية عنه ، فتتم ابتسامتها عن أسنان فلج ناصعة البياض ، وعن
ثغر تجرى مع سلافة ريقه كل ما توحيه سنو فاطمة من أحلام وآمال ورغبات .
على هذه الصورة كانت فاطمة ترى وجه صاحبها المثل من خلال
المرآة المحبوبة ، فتزداد به شغفاً وإعجاباً . أما قوامها فكان لدنا غصاً
كأنه قوام ناعمة تؤوم الضحى . ارتفع ثوبها فوق صدر ناهد في غير
إغراق ، وأخذ بتلايب خصر ريان في غير بطنة . وكانت ساقاها وقداها
كمال هذا الجمال الشاب المتطلع للحياة بنظرات الأمل الجاهل كل ما في
الحياة من غدر ومن ألم .

وكان أبوها ضنيناً بها على الحياة ورغائبها والشباب وأحلامه ، فقل
أن كان يسمح لها بمغادرة الدار إلا تحت جناح الظلام وفي ستر الليل .
لكنه كان يعلم من أخلاق أخته وجدتها ما جعله يتسامح في ذهاب
فاطمة من طريق سطوح الدار إلى منزل أعمامها وأحوالهم أكابر
أهل البلد والقائمون فيها بالعمدية والمأذونية . وكان يسره أحياناً أن يعرف
منها أسرار أقاربه ودخائلهم مما قد لا يتاح له الوقوف عليه وهو في عزوبته
وفي تقاه .

وكان لها مع بعض أقاربها في البيت الكبير صداقة نشأت منذ الصغر .
وخشى أبوها عواقب هذه الصداقة ، فأسر إلى أخته أن تحرم عليها ملاقة
أحد من الشبان . وكأن ما كان من فرط حذر عمة فاطمة قد نبه فيها

لأول ما كملت لها حياة المرأة معانى نسوية ما كانت لتتنبه بهذه السرعة .
 وثار وجود الفتاة ثورة لم يفكر عقلها في كبجها . إذ كانت ثورة
 الجمال المهان . فكانت لا تأبى تحيات أكابر أقاربها ممن سمح لها بالجلوس
 إليهم والتحدث معهم ، كما كانت لا ترضى بابتسامة عذبة على ذوى
 الود منهم . وسحر بجمالها غير واحد كان يجد فيه قدس إعجاب
 وعبادة . وكانت ثورة الفتاة تزداد كلما ازداد أولئك المسحورون تمليقاً
 لها وتدلّيلاً . ولكل ثورة نفسية لا تجد من سلطان العقل ما يكبح جماحها
 انفجار لا وسيلة لمقاومته إلا إذا استطعت مقاومة انفجار الرجل النائر
 جوفه ببخار ما تفتأ النار تزيده ثوراناً . لذلك لم تطل مقاومتها ابن عم
 لأبيها ، له ما لابن عمه من مظاهر التقى ، وللناس به من الثقة أن كانوا
 يأمّنونه على أموالهم وأعراضهم .

ومرت أسابيع بدأ فيها على صحة الفتاة من التغير ما أدخل الريبة إلى
 نفس الشيخ حسن ، فحاول بادئ الأمر أن يقنع نفسه بأن ما بابنته من
 علة لا صلة له بعفافها . لكن للنساء فى القرى ألسناً طوالاً . وما هى
 إلا أيام حتى كان هذا الحديث موضع همس أهل القرية رجالاً ونساء .
 والهمس إذا عم صار حسيباً ، وصار له صوت وكيان . وأحس الأب
 البائس هذا الصوت ، بل رآه رأى العين فى نظرات كانت توجه له وفى
 بعضها من الإشفاق عليه وعلى ورعه وتقاه ما هو أشد قسوة من نظرات
 الحقد والكراهية . لذلك انقطع عن معاشرّة الناس وعن الذهاب إلى
 المسجد ، وارتسمت على جبينه تجاعيد الهم والألم ، واضطربت نظراته ،
 وغارت عيناه وغاض لونه ، وضعفت حركته ، فكأنما شل الهم أعصابه
 وأخمد سلطان حركته ، حتى قعد به عن أن يريد أو أن يعمل .
 وكان أول ما قام بنفس الشيخ حسن ، حين هزم اليقين منها كل

هواجس الشك فرسم أمامه صورة ابنته عارية ، وأراه رأى العين كل عرق منها وكل نسيج من أنسجة بشرتها القمحية المتوردة تجرى فيه لذائد الإثم والعار ، أن يذهب إليها ويقتحم الباب عليها ويقتلها ويدفن معها عارها وإثمها . ولم يك ذلك منه عن روية أو عن تفكير . بل إن سلطان الوسط ، وفطرة الجماعة التي يعيش بينها وقد تكونت على الزمان من عقائد وعادات توارثتها أجيال بعد أجيال ، هما اللذان دفعاه إلى ما أراد القيام به . لذلك لم يكن في حاجة إلى وقت يتدبر فيه أمره أو يقدر فيه نتائج فعلته . بل غلا الدم في عروقه وثار ثائر نفسه وملكته فطرة القضاء على هذه الأثيمة المجرمة ، وتم ذلك كله في أقل من لمح البصر . وهمم بالتنفيذ ، لكنه لم يلبث أن بلغ باب غرفته حتى أمسكت به قوة عاقت حركته ، تلك عاطفة الأبوة التي جاش بها قلبه وهزت أعماق وجوده . أتراه يقتل ابنته الوحيدة التي وقف عليها حياته ووقف على سعادتها وجوده ؟ ابنته الوحيدة الباقية ذكراً لزوجته المحبوبة ولأيام سعادته وهناءته ؟ ولو قتلها أتراه يطهر من إثمها ومن عارها ؟ وهل ترى الناس ينقطعون عن أن يوجهوا إليه نظرات الإشفاق القاتل والحقن البغيض ؟ وقف عند الباب برهة زلزلت فيها عاطفة الأبوة فطرة الجماعة ، ثم عاد إلى مخدعه وارتقى إلى جانب وسادة كان يتخذها متكأ بعد عوده من الصلاة وحين تسبيحه ، وانحط مهدود القوى عاجزاً عن التفكير وعن الإرادة لا يرى شيئاً مما أمامه ، ولا يدرك الوقت ومروره ، ولا الأشباح التي تبدو من خلال نافذته . وظل في ذهوله حتى بدأت الشمس تنحدر نحو الغروب ثم دخلت عليه أخته تسأله : ألا تذهب إلى المسجد لصلاة فرضي المغرب والعشاء ؟ وكأنما أزعجه صوتها من حلمه الأليم ، فما يدرى أيهما أشد لنفسه ونجراً : أهذا الحلم المبهم الذي نهكه والذي نسي فيه الحياة ونسى الألم ، أم هذا الصوت الذي نهه إلى الحياة وآلامها وأعاد إلى نفسه ذكر أخته

وذكر ابنته وذكر عاره الذي لا يمحى ! .

وارتدى الشيخ جبته ولبس عباءته وعمامته ومركوبه ، وخرج قاصداً المسجد . لكنه مالّبث حين اقترب منه أن شعر كأن شيئاً يصده عنه . فقد خيل إليه أنه إذا تخطى بابه فسيحججه من فيه جميعاً بنظرات الإشفاق أو الازدراء أو الحقد ، وستبدو هذه المعاني في حديق تلك العيون المتجهة نحوه واضحة ناطقة تخترم نياط قلبه وتنفذ إلى أعماق نفسه . فكر راجعاً كأنما يريد العود لداره . لكنه عرج بدافع من وجدانه لا شعور له به ولا حكم له عليه عند أول منعطف يسير به بين المزارع . وهل في الدار إلا الإثم والعار ؟ وهل الدار أقل إيلاًماً له من نظرات المصلين ؟ وحملته قدماه إلى شاطئ غدير قامت حوله أشجار كسا المغيب أوراقها الخضرة ثوباً قائماً لا يخلو من بهجة ، فانعطف والشاطئ حتى بلغ مصلى بعيداً عن السكة العامة بالناس والدواب . وهناك ألقى بنفسه فوق الحلفاء المفروشة بها أرض المصلى ، وعاد إلى مثل ما كان فيه في الدار من ذهول .

وظل في ذهوله ، حتى إذا اقترب موعد صلاة العشاء تنبه إلى فرض ربه وليس من كان مثله في ملك نفسه بل هو في ملك دينه وإيمانه . وهل أصابه إلا ما كتب الله له ! وهل كان ما حل به إلا من عند الله ، والله الشكر والحمد على السراء والضراء ! فقام فتوضأ وصلى المغرب ثم صلى العشاء ، ثم رفع أكف الضراعة إلى الله أن يهديه سواء السبيل .

عاد الرجل إلى داره بعد ذلك يحميه ستار الظلام من أعين الناس ونظراتهم وإن لم يحمه من هجمات جيوش الهموم والآلام . وذهب إلى غرفته وحاول أن ينام . لكن الهم والنوم لا يلتقيان في نفس قبل أن يذيقها الهم ويضنيها الألم . فبات يتقلب في مضجعه إلى ما قبيل الفجر ، إذ أسعدته سنة ساورته أثناءها فظائع الأحلام ؛ لكنها كانت مع ذلك مسعدة

أن جددت له بعض قواه ، ومكنته من القيام بعدها مبكراً ليؤدي لله فرض الصبح ويستغفر من عظيم ذنبه .

وتعاقبت الأيام بعد ذلك والرجل يزداد كل يوم نحولاً وأعصابه تزداد ضعفاً . وقل أن كان يفكر ، بل كانت نفسه ميداناً لحرب مرعبة قائمة بين فطرة الجماعة وعاطفة الأبوة . فطرة الجماعة تناديه أن لا سبيل للخلاص من العار إلا بالخلاص من ابنته ، وعاطفة الأبوة تحول دون ارتفاعه ليظهر بالدم المراق دنس العار ورجسه .

وفي الأوقات القليلة التي كان يفكر فيها كانت عاطفة الأبوة تتغلب عنده على فطرة الجماعة ، وكانت تعاوده هزات حنان وإشفاق على نفسه ، وكان لا يرى جرماً في التحدث إلى بارئه يسأله ماذا جنى لتحل به نعمة الله ولتفجعه فيما هو أعز من السعادة ومن الحياة ومن الشرف ؟ ! في عرض ابنته الوحيدة التي كان يرجوها ملك طهر وعفاف ، فأبى القدر القاسي إلا أن تكون شيطان رجس وفسوق ! !

وجعل المسكين يفتش في ماضى حياته عما اجترح من إثم ومعصية ؛ إذ من المحال أن يقضى عليه أعدل الحاكمين بغياً بتلك النكبة النكراء . ولم يزعزع من إيمانه أن كان يرى ماضيه طاهراً نقياً ، بل كان أكبر ظنه أن نفسه الأمانة بالسوء دفعته يوماً إلى كبيرة لم يظن لها أن زين له الشيطان سوء عمله وجعله يراه خيراً . ولم يدر بخلده لحظة أن ربح القدر الطحون تدور فتختطف الأطفال الأبرياء من أحضان أمهاتهم وما جنوا إثمًا ، وترمل نساء من أزواج كانوا ملائكة حب ورحمة ، وتيمم أبناء من آباء وأمهمات كانوا مصدر بر وعطف وحنان لا يفنى . وهي في دورتها وفي طحنها هذه الذرات الإنسانية التافهة في حياة الوجود العظيم ليست أكثر عناية بها منها بحجر أو بنبات أو بحشرة كالنملة أو كاللودة شأنًا .

وكيف يدور ذلك بخلده وهو يقيس عدالة السماء التي يؤمن بها بعدالة الأرض التي يعيش عليها ، ويتوهم أن عدالة السماء تخضع لما تخضع له عدالة الأرض من عقائد وعادات ومن أوهام وترهات ومن أباطيل وخرافات .

على أن هذه الأوقات القليلة التي كان يفكر فيها والتي كانت تُغلب عاطفة الأبوة على فطرة الجماعة في نفسه ، لم توجه فكره لحظة نحو ابنته وما قد يكون لها من عذرى إثبات ما أتت . بل صارت أبوته وصار إشفاقه سبباً في عطفه على نفسه ورثائه لحاله . فإذا تخيل فاطمة ارتسمت أمامه صورتها ساعة ثورة معانى الخصب والتخيل في جسمها الشاب البديع . هنالك يغيب تفكيره وتتوارى عاطفته ، وتلبسه عقائد الجماعة فتملأ وجوده وتتحكم فيه وتجعل منه شخصاً مفترساً يريد أن ينقض على هذا الإثم الذى خرجت به ابنته على شرائع الجماعة ونظمها ، والذى يوشك أن يثمر نغلاً لا تعرف الجمعية له أباً ولا تطبق عليه قوانين الحضانة والنفقة والميراث . ثم يزيد في حيوانيته وفي افتراسه هذه المئات بل الألوف من العيون التي امتلأ بها الفضاء حوله ، والتي تنظر إليه نظرها إلى أبى فاجرة لطمت وجه الطهر والكرامة ، وأحلت الشهوات الدنيئة منها مجل العفاف والشرف .

مرت الأيام والأسابيع والشيخ يزداد نحولاً وأعصابه ضعفاً وفكره ذهولاً ، وقد جالت بنفسه مرات فكرة الانتحار فراراً من هذا العار الذى لحقه ، ولكى لا يقتل ابنته فيأثم في حق بارئه بأن يقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق . لكن هذه الفكرة انهزمت كما انهزم غيرها من الأفكار . وكان الرجل كلما زاده الهم نحولاً صار أضعف تفكيراً وأكثر خضوعاً لفطرة الجماعة وامثالاً لها في خلایا ذهنه وفي شعاب قلبه وفي ثنایا نفسه ودخائل فؤاده . عند ذلك بدأت هذه الإرادة التي شلها التردد بين الفطرة والعاطفة تتحرك بدافع الانفعال وحده ، كما تتحرك إرادة السبع والنمر

٢٠٩

وكل حيوان مفترس ، وبدأت شهوات الرجل تنبّه للطعام وللشراب تقوى فيها هذه الحيوانية التي أخضعت كل قوى الإنسان وحسه وشعوره ، وتحكمت فيه فكرة ثابتة كان يؤمن بها ويخضع لها ، تلك أن لا سبيل لمحو العار إلا بمحو مصدره . وخلقت هذه الفكرة الثابتة لنفسها منطقاً وسلحت الرجل بكل وسائل تنفيذها . فهذه البنت الفاجرة لا يمكن أن تكون ابنته وهو التقى الورع القوى الإيمان بالله البعيد عن مواتة الرذيلة والنقص . ومن يدري ! فلعل أمها خائنه في غفلة منه ، فكانت الأئيمة الفاجرة ثمرة الخيانة والإثم . بل لا شك عنده في هذه الخيانة التي أورتها الأم ابنتها ، فما كان الله ليقترض منها فتموت شابة في قوتها وفي نضرتها لولا أن ارتكبت معه معصية في حق الله . لكن البنت تنسب إليه وقد أسبغ عليها من نعمة العيش ما كفرت به حين أسلمت نفسها لهذا الإثم فكان من كفرها ما جعل الناس ينظرون إليه هذه النظرات القاتلة .

وهب البنت ابنته وأمها كانت طاهرة نقية ، فذلك مما يزيد في جريمة فاطمة ولا يخفف منها . هي زانية فنصيبها القتل جزاء وفاقاً . وإذا كانت القوانين التي سنّها الناس غير شرع الله تبيح لهم التمرغ في حماة الشهوات وهم من القصاص بمنجاة ، فما كان لمؤمن بالله وشريعته أن يدع الآثام التي حرّم الله أن ترتكب وهو عنها لاه ولها مطمئن . أو لم يقل الرسول عليه السلام : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان » . وهذه البنت قد أصبحت منكراً يراه الشيخ تحت سقفه ويحسه في أعماق نفسه ، فوجب أن يزيله بيده ، ويومئذ يكون قد أدى لله وللفضيلة وللأبوة حقاً مقدساً . ويومئذ ينظر إلى هؤلاء الناس الذين يزدرونه اليوم فيرد إليهم ازدراءهم ، ثم هم يكونون بورعه وتقواه أشد إيماناً .

وشحذت فكرته الثابتة عزمه ، فلم يبق إلا أن ينفذه فيزيل هذا المنكر ، ويرضى بذلك إيمانه الثابت ، ويرضى فطرة الجماعة التي تحكمت فيه ، وسواء لديه بعد ذلك ما يكون من حكم شرائع الناس عليه . ولم يرض خياله المفترس إلا أن يذبح ابنته ذبحاً ، ويشوه وجه البغي تشويهاً ، ويقطع أوصالها إرباً إرباً ، فلا يبقى بعد ذلك عالقاً بنفسه من إثمها ولا من عارها باقية . وانتظر الشيخ ، حتى إذا كان يوم السوق ذهب بنفسه إلى أحد باعة السكاكين ، فابتاع سكيناً مرهف الحد لامع النصل متين القبضة وحمله إلى داره ، وجلس بقية يومه ينظر إليه ويصور لنفسه الدم يقطر منه ، فيبتسم لهذه الصورة وتبرق عيناه بريقاً شديداً ، ثم يعتريه شيء كأنه المس أو الدهول . فإذا عاد إلى نفسه استعاد منظر الجريمة التي قُدر عليه أن يرتكب ، كمل قدر على ابنته من قبل أن تخضع لسلطان الهوى ، فاعتبط بإثمة اغتباطها يوم سقطتها بإثمها ، وشعر بلذة تملأ حواسه حتى لكان منظر الدم ورائحته وطعمه وصوت تفجر القلب به كان يملأ عينه وأنفه وفمه وأذنه بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر !

وأرختي الليل سدوله ، وسكن كل من في القرية إلى أهله ، وذهبت فاطمة إلى مضجعها وبها من علة الحمل وسقم الهم لما كانت تسمع من عمتها من تقريع وتأنيب ما ذهب بحمرة خدنها ، وإن لم يذهب بجماها ، ولا بابتسامة خالدة بديعة كانت تطوق ثغرها العذب الساحر . وفيما هي تحتفى بالنوم من علتها وهمها قام أبوها من غرفته ويده ذلك النصل المرهف وسار إلى مضجعها بخطوات ثابتة . حتى إذا كان عندها ونظر إلى وجهها شعر كأن قلبه يريد أن يضطرب بنبأة من حنان ، فرفع يداً لم تخل رغم ثبات جناحه من بعض الرعشة ، ثم أغمد النصل بكل قوته في قلب الفتاة التي فتحت عينها تحت أثر الطعنة ، فرأت أباه تلمع عيناه بالشرر ويرتجف جسمه وتتم شفتاه في

صوت خفى ولكن بحرارة وقوة : الحمد لله على قضائه !
وأرادت أن تنصل أو تدافع عن نفسها ، لكنه وضع يده اليسرى على
فمها واستل النصل من القلب فانفجر الدم حارا قويا كله الشباب والحياة .
وأحس الرجل أن رشاشاً منه يصيب وجهه ويده فزاده إقداماً واقتراساً . وبيد
ثابتة ذهبت عنها كل رعشة وزايلها كل خوف حز الرجل عتق المسكينة التي
حاولت أن تتخلص بكل ما فيها من قوة اليأس . لكن أباهما كان أشد منها
يأساً . وبعد ما انفصل الرأس عن الجسم لذّ لهذا المخلوق المفترس أن يشوه
ذلك الرأس وذلك الجسم وما يزال دمهما حاراً تنفجر به شرايين تلك الضحية
التي أرداها الجمال والهوى .

وخرج الرجل بعد جريمته مؤمناً بأنه أدى فرضاً واجباً عليه أداؤه .
لذلك ظل هادئ النفس مطمئناً . فلما سئل أمام القضاء لم يتردد في
الاعتراف بأنه قتل . ونال من إشفاق القضاء عليه بعد الوقوف على أمره
أن أعفاه وبراه .

ولم يطل به المقام بعد ذلك في قريته . فقد بدأ بعد أشهر من عودته
تنتابه أطوار غريبة . كان ينقطع إلى خلوة في بعض المزارع البعيدة أحياناً ،
ثم يعود إلى معاشره الناس أخرى ، فيراه الناس ذاهلاً تارة ، هائماً تارة ،
وقد ازداد أكثرهم إيماناً بورعه وبتقواه بعد الذى رأوه عليه من هذه الأعراض ،
وآمنوا به ولياً صالحاً . لكن مدة ولايته لم تطل بعد ما اقترن هياجه بالاعتداء
على الناس . فقد نقل إلى مستشفى المجاذيب وهو لا يزال إلى اليوم فيه .
وإنك لترى لحاله حين تراه في ساعة سكونه يذرف الدمع سخيناً على ابتته
التي قتل ، وزوجته التي اتهم ، ويضرع إلى الله أن يبعث إلى قلب رجل
من الحنان عليه ، والبر به ، فيورده حتفه ، ويضع حداً لآلامه . . .

خاتمة في الأدب والحضارة

كنت مشغولاً بقراءة الأدب العربي القديم وما أزال . ويرجع هذا الشغف إلى أيام كنت طالباً بالقسم الثانوي وحين كنت ألتقي الحقوق بمدرسة الحقوق الخديوية . وقد طالعت يومئذ الكثير من أمهات كتب هذا الأدب ، وحفظت عن ظهر قلب ما حجب إلى نفسي مدخله . فلما كنت في السنة الأخيرة من دراسة الحقوق بدأت متأثراً بظروف ليس ها هنا موضع ذكرها أقرأ كتباً في الأدب الإنجليزي وفي الفلسفة الإنجليزية ، ككتاب الأبطال لكارليل ، والحرية لجون ستوارت مل ، والعدل أحد أجزاء الفلسفة الاجتماعية من كتب سبنسر . إذ ذاك انفسح أمامي من عوامل التفكير ما لم تمهد إليه مطالعتي العربية . وسافرت من بعد ذلك إلى باريس ، وجعلت أدرس اللغة الفرنسية ، وأتصل بأدبها ، فأخذ إليه من هواي كأشد ما تأخذ حسناء إليها هواي مغرم بها . فأمعنت في قراءة هذا الأدب ، وجعلت أحضر من دروسه مثلما كنت أحضر من دروس الحقوق التي كانت مقصدي من سفري لنيل إجازة الدكتوراه فيها . ودفعني هذه المطالعات المتصلة وما فتحت عليه عيناي من جمال البيئة المحيطة بي إلى الإعجاب غاية الإعجاب بالحضارة الغربية التي تنتج مثل هذه الثمار الغذبة الشهية . ولعل أشد ما أعجبنى من هذا الأدب روح الثورة الذي يبدو فيه دائم الضرام ، وحيوية متوقدة لا تحبوا نارها . وأنت تشعر بهذه الثورة الأدبية في كل صور الأدب سواء . فالقصة والأقصوصة والرواية المسرحية وكتب الأدب والفلسفة ، تنم كلها عما تضطرم به أرواح كتابها من نشاط دائم لا يستقر ولا يهدأ . وهو

كذلك فى الكاتب الواحد ، وهو أشد من ذلك فى الجيل يعقب الجيل .
 فالشعر الكلاسيك لراسين غيره لكورنى ، وكلاهما من الذين بعثوا أدب
 اليونان . وشعر معاصرهما مولير فى مهازله ومآسيه ثورة عليهما لأنه ثورة على
 القديم ، بل طليعة الثورة على القديم . وأدب القرن الثامن عشر ثورة على
 أدب القرن السابع عشر . والقرن التاسع عشر ينسج فى أدبه كما ينسج
 فى علمه وفلسفته على طرائق هى الثورة على القرنين اللذين سبقاه جميعاً .
 وفى كل قرن تتطاحن فى الأدب مذاهب وتقتتل آراء ، وتقوم بين الأدب
 والعلم ، وبين الأدب والفن ، وبين الأدب والفلسفة ، ثورات لا يهدأ أوارها .
 وهذا النشاط المتصل ، وهذه الثورة الدائمة الضرام ، هما خير ما يقتنعك
 بأن الحياة فكرة قبل أن تكون عملاً ، فكرة تسبق العمل وتوجهه سبيلاً .
 والحياة فى هذه الصورة هى الحضارة الحية القوية التى استلهمت الفن
 والعلم والأدب وألهمتها ، فكانت حضارة العلم والفن والأدب . وكان الأدب
 من العلم والفن هو الصدى الناطق للحالات النفسية التى يعبر عنها
 الفن ، وهو الفن البديع الاتساق الذى يكسو بآياته قواعد العلم روعة
 وبجمالاً .

ومن أشد ما يلفت النظر فى هذا الأدب الفرنسى وما يشترك معه فيه
 أدب الغرب كله ، دوام الصلة بينه وبين الدين من ناحية ، وبينه وبين
 العلم من ناحية أخرى . فقل أن نجد كاتباً من كبار الكتاب لم يعرض فى
 واحد أو أكثر من كتبه لمسألة العقيدة أو للمسيحية ، سواء عرض لهذه
 أو تلك بما يملأ قلبه من جلال الإيمان ، أو من الثورة على العقيدة أو الدين .
 فالفردوس المفقود للثن فى الأدب الإنكليزى ، والجحيم لدانت فى الأدب
 الايطالى ، وكتب روسو وفولتير فى الأدب الفرنسى ، هذه وغيرها كلها
 آثار خالدة فى الأدب الدينى وفى الأدب المناهض للعقيدة وللدين . وهذه

الكتب كلها ، سواء منها الدينى والمناهض للدين ، تطبعها روح الثورة التى أشرنا إليها . وليس فى ذلك من عجب ؛ فقد كان البعث الأوربى فى القرن السادس عشر ثورة من طائفة من رجال الدين على رجال الكنيسة الكاثوليكية . ولوثر وكالفن وكوسوث هم أقطاب هذه الثورة . ثم كانت من بعد ذلك ثورة على هؤلاء ، ومحاولات عنيفة لتقويض عمد الكنيسة كلها . وإنما كان ذلك لأن الحضارة الغربية كانت إلى ما قبل البعث وإلى ما بعده بزمان غير قليل خاضعة أسوأ الخضوع لسلطان الكنيسة الدينى والزمنى . فلما بدأت حركة البعث بدأت متمرده من جانب رجال الدين على زملائهم ؛ لأن العقل والعلم والحكم وكل المظاهر الإنسانية كانت محصورة أو تكاد فى رجال الدين ، وكان واجباً على من سواهم أن يخضع لهم أو يطرد من الكنيسة ، ويكون جزاؤه التعذيب والنكال أشد النكال . فلما بدأت حرية الفكر تأخذ حظها من الحياة بنشر ديكارت كتابه « عن الطريقة » ، وأصبح للناس جميعاً أن يناقشوا الكنيسة ، وخطا العلم خطواته القوية ، كان النزاع على أشده ، حتى كان إنكار سلطان الكنيسة بعض ما نادى به الثورة الفرنسية ، وحتى تم الفصل بين الكنيسة والدولة فى فرنسا فى أوائل هذا القرن المتم العشرين . فلا عجب إذن أن يتأثر الأدب وهو مرآة الحضارة بهذا النضال كله ، وأن يكون تصوير حرية الفكر على أنها خصومة الكنيسة بعض ما يعبر عن حقيقة واقعة فى هذا النضال العنيف الذى قام فى الغرب ، والذى عاد اليوم يضطرب فى مختلف الدول خيفة أن يتم الصلح بين الكنيسة والدولة .

كان هذا الخوف بعيداً عن الأذهان فى عهد الأدب الكبير الذى أشرنا فى تقديم هذا الكتاب إليه . لذلك لم يفتن كثيرون من المصريين ومن الشرقيين الذين أتموا دراساتهم فى أوروبا إلى الأسباب التى أدت بالأدب

الغربي إلى أن يطبعه هذا النضال بين الكنيسة والدولة ، وبين الحضارة الدينية والحضارة المدنية ، مما أدى بأوجست كومت إلى أن يقرر قانونه عن الحالات الإنسانية الثلاث - التيلوجية (اللاهوتية) والمتافيزيقية (التجريدية) والوضعية أو الواقعية - على أنها الحالات التي يمر بها عقل الجماعات البشرية ، وكأنها لا يمكن أن تتجاوز أو تتصل . وأدى عدم نجاح دين الطبيعة ودين الإنشائية وما إليهما من مثلهما ، مما وضع روسو وكومت ، بيرجسن ومدرسته إلى وضع فلسفة « البرجماتيسم » أو الإلهام . وبهذه المذاهب تأثر الأدب الغربي تأثراً له علته ، لأن الأدب في اتصاله بالحياة يتصل بالحياة الروحية والعقلية كما يتصل بالطبيعة والحياة المادية . والمصريون والشرقيون الذين لم يفطنوا بما يجب من الدقة إلى هذا الاتصال التاريخي بين الدين والعلم والفلسفة والأدب في الغرب ، والذين فتنوا بأدب الغرب ، هؤلاء وأولئك خيل إليهم أنهم قديرون على نقل صور الأدب إلى الشرق كما هي . فخيّل إليهم أن في الشرق كنيسة ككنيسة الغرب ، وأن ما انتهى إليه النضال بين الدولة والكنيسة في الغرب يجب أن يبدؤوا عنده حملتهم على هذه الكنيسة الموهومة في الشرق . وخيّل إليهم أنه يجب الفصل بين الكنيسة والدولة على نحو ما حدث في فرنسا . وأعترف أن خواطر كهذه جالت بنفسى في أوقات متفاوتة . لكنني إذ فكرت وفكرت ، رأيت تاريخ الحضارة في الشرق غير تاريخها في الغرب ، ورأيت الحضارة الإسلامية لا تعرف شيئاً اسمه الكنيسة ، لأن الإسلام لا يقر الاعتراف ولا يقر سلطة القساوسة ورجال الدين ، وإنما يقرر : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ولست أدري : أفطن الغرب إلى ما لمركزه السياسي في الشرق من مصلحة في قيام هذه الحركة الجديدة التي سماها بعض كبار أساتذة الجامعات الأوروبية « تغريب الشرق » ؟ أم قد خيل إليه أن حياة الشرق كحياة الغرب ،

وأن رسالة الغرب التي ألقها الحضارة على عاتقه إنما تكون بهذا « التغريب » ،
للشرق حتى ينسى تاريخه وينكر ماضيه .

ولا أحسبني أمل القارئ إذا أنا كررت في هذه الخاتمة ما قدمت
في فصول الأدب القومى وفي أكثر فصول هذا الكتاب من أن بعث حضارة
الشرق يجب أن يكون بإحيائها من سبيل بحثها على الطرائق الحديثة ،
لا بالتكديس على أكفانها من صفائح الغرب المستعارة ما يزيد في جمودها
وتكلسها تكلساً يحاول أبنائها إزالته عنها . وهذا الإحياء إنما يكون بتعاون
العلم والأدب : العلم الذى ينقب ويمحص ويحلل الغامض ، والأدب الذى
يلقى الضياء الشفاف على ما يكشف العلم عنه ضياء تسعده موسيقى اللفظ
العذب والأسلوب الممتلئ بداتية صاحبه وبحياته . سنكون مدينين في هذا
الإحياء لطرائق العلم الغربية الحديثة ، ويجب علينا لذلك أن نقرهذه
الطرائق بالفضل . لكننى أحسبني لا أغلو إذ أنا ذكرت أنا إذا اقتحمنا
هذه السبيل فسنجد في علم الشرق وحضارته طرائق أخرى قد تعاون طرائق
الغرب العلمية الحديثة وقد تتفق على الأقل معها . وقد اتفق لى أن كنت
أطالع في كتاب بالإنجليزية عن تاريخ الكيمياء ، فكانت دهشتى عظيمة
وأنا أقرأ في تاريخ الكيمياء عند العرب حين عثرت على نصوص عربية
منقولة ترجمتها تتحدث بنفس اللغة التى يتحدث بها العلم الحديث عن
طرائقه . فالملاحظة والتجربة والتبويب والمقارنة واستنباط القوانين من ذلك
كله ، كان مما آمن به العرب في علمهم إيمان الغرب به في علمه . وأذكر
أن هذه النصوص العربية ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الهجرى ،
على حين لم تصبح موضع إيمان الغرب إلا في القرون الأخيرة . على أنه يجب
على أن أعترف بأن ما وقفت عليه من قراءاتى العربية لم يهدنى إلى هذا
الفصل الدقيق بين العلم والدين على ما أراد مؤلفو الغرب من أنصار المذهب

الواقعي « البوزيتيفزم ». ومع ما يجد الإنسان في مذاهب الفلسفة العربية من التشكك واللا أدرية والإلحاد فإنه ، في حدود ما قرأت ، لا يجد هذا التفريق الصريح بين ما يمكن معرفته وما لا يمكن معرفته (The Knowable and the Unknowable) مما قدم به هربرت سبنسر لفلسفته التوفيقية . أفيرجع ذلك إلى ما فرق تاريخ المسيحية بين الكنيسة والعلم تقريباً . وقف العلم موقف الخصومة من الدين ، على حين لم يكن من ذلك شيء في تاريخ الحضارة الإسلامية ؟ قد يكون هذا . فقد رأينا من خلفاء محمد عليه السلام من يجعل المناقشة في القرآن : أمخلوق هو أم غير مخلوق ؟ موضع رعايته وعطفه . وقد رأينا المذاهب الإسلامية يقوم بعضها في أثر بعض بأئمتها وكبار الفقهاء فيها ، ويختلف بعضها مع بعض ، بل يختلف التلاميذ مع الأئمة ، كاختلاف أبي يوسف ومحمد مع أبي حنيفة ، ومع ذلك لم يقل أحد بسطان مطلق للخليفة في شلح المسلمين وطردهم من الكنيسة . صحيح أن صوراً مختلفة من النضال الديني كانت تقوم ، وعنها كانت تنشأ انقلابات سياسية جلية الخطر ، وبسببها تطورت الحضارة الإسلامية مما كانت أول خروجها من بلاد العرب إلى ما صارت إليه بعد اتصالها بالفرس والمصريين والأندلس وغيرهم ، لكنها ونظمها وحركاتها سلكت سبيلاً مختلف اختلافاً جوهرياً عما سلكت المسيحية وكنائسها .

إذا أردنا إحياء حضارة الشرق من جديد بتعاون العلم والأدب ، فلا مفر لنا من إحياء هذه التطورات وتأريخها ، من شق الطريق في غيابات الماضي الخفي اليوم على أكثرنا ، بل علينا جميعاً ، لنعيد بذلك بعث هذا الماضي والروح الذي كان يحركه ، فنعيد كذلك بعث روحنا نحن ، روحنا القومي في مصر ، وروحنا المصري في اتصاله بفلسطين وسورية والعراق والحجاز واليمن وطرابلس وتونس وسائر البلاد التي اتصلنا بها

ونخضعت وإيانا في أية حقبة من حقب التاريخ لمصير مشترك ، لتكن الحضارة التي تقوم على أساس هذا الإحياء حضارة إسلامية كما أعتقد ، أو حضارة عربية كما يريد البعض ، أو حضارة شرقية متصلة بحضارة فارس والهند ؛ كل ذلك قليل الأثر عند من يريد إحياء هذه الحضارة العظيمة ، ولا يريد التلاعب بالألفاظ لغايات سياسية أو غير سياسية .

ولا مفر للأدب العربي من أن يسهم بنصيب عظيم في هذا الإحياء ، ولا مفر له من أن يوجه ؛ فكثيراً ما يسبق الأدب العلم في بعث الحضارات . وقد لا يخطئ كثيراً من يقول إن الأدب كان دائماً أسبق من العلم في هذه السبيل . فالحضارة لم تكن يوماً ما مذهباً منطقياً يقيمه العقل وحده ، وإنما هي مجموع مطامح الحياة إلى المثل الأعلى الذي ترجو الجماعة بلوغه ، وهي إلى جانب ذلك تصور الجماعة الإنسانية لصلتها بالوجود في مجموعه صلة تنتسب للماضي وتنفلد إلى أعماق المستقبل . والمثل الأعلى ومطامح الحياة نحوه وصلة الجماعة بالوجود ، هذه كلها تمتزج بها ولا تنفصل عن وحدتها عناصر من الإيمان والعقيدة ومن الحياة النفسية المتأثرة بوراثة الماضي وبمختلف عناصر الوجود مما يدخل بعضه فيما سماه سبنسر « مالا يمكن معرفته » ، وما يدخل بعضه الآخر في دائرة الإلهام العريق النسب بالأدب والمحتاج إلى زمن لا يعرف أحد مداه ليكون أوثق بالعلم نسباً . وإن أنت أردت فارجع في تحقيق ذلك إلى مختلف الحضارات التي تعرف : ارجع إلى الحضارة اليونانية ، وإلى الحضارة الإسلامية ، وإلى الحضارة الغربية الحديثة ، تجد الأدب دائماً سباقاً إلى اقتحام الميادين التي هيأت لهذه الحضارات بروزها ، وإلى شق السبل التي يسرت بلوغ الحضارات هذه الميادين . وقد ظل ذلك شأن الأدب في صلته بتلك الحضارات أجيالاً متعاقبة حتى جاء العلم بخطاه البطيئة الأكيدة يستصفي من هذه السبل ومن

هذه الميادين خلاصة القوانين العامة التي توجه الإنسانية وتوجه الحياة . وإذا كان العلم قد ننى في كثير من الأحيان ما أثبت الأدب ، فقد ظل ما ننى العلم من آثار الأدب متوقفاً ملتبهاً يصهر في بوتقة العلم حتى أطفأ العلم شعلته . فإذا قيل بعد ذلك أن هذا الأدب قد قضى العلم عليه فهو إنما قضى عليه بعد أن أدى للعلم وللحضارة مدى أجيال متعاقبة رسالة الأدب . وهو من بعد إنما يخضع في ذلك من قوانين الحياة لما يخضع له العلم نفسه ، فكثيراً ما أثبت العلم في عصر من العصور قواعد وقوانين ثم جاء العلم في عصر آخر فحطم هذه القواعد وزيف هذه القوانين .

ليقتحم أدبنا إذن ماضينا . وليقتحم هذا الماضى بأدوات البحث الأدبي وبأساليب الكتابة الحاضرة . وليقتحم هذه الميادين حراً طليقاً غير هباب ولا متردد . وليقتحمها بروح الثورة التي اقتحم بها الأدب الغربي تراث اليونان وروما وتراث الكنيسة من بعدهما ، وبروح الثورة التي اقتحم بها الأدب العربي تراث فارس ومصر واليونان . وليقلب في هذا الماضى ما شاء له التقلب والتنقيب بروح النقد والتمحيص والحرص على الحق لوجه الحق وحده ، الحق في أسمى صوره التي تلتبس الإنسانية على الأجيال فتكاد تلمسه أحياناً حين يكشف عنه أنبياء الإنسانية وشعراؤها وكتابها ، ثم لا يلبث أن يفلت من يدها لأول ما تغريها المادة وتلهيها عن جادة هذا الحق الصحيح . والحق الصحيح ، الحق الذي تقوم الحضارات على أساسه والذي يدعمه الأدب على أسنة أقلام كبار الموهوبين من الكتاب ، هو الحق في صلة الإنسان بالوجود كله : بهذه الأفلاك التي نرى ، وبهذه السماوات التي تغمرها ، وبالروح الفياض بالضياء ، والذي يحيط بذلك كله ويبعث إليه الحياة والنور ، هذا الروح الذي لا نور ولا حياة ولا وجود من دونه . وصلة الإنسان بالوجود وبهذا الروح الذي ينتظم الوجود

٢٢٠

جميعاً ، هي الحقيقة العليا التي يجب أن تكون مطمح كل باحث وكل كاتب ، وأن تكون رسالة كل أدب يطمح في أن تقوم على أساسه حضارة سليمة تكفل للإنسانية المجد والسعادة .

الأدب الذي يسمو بالنفس إلى هذه المعاني العليا ، والذي يرتفع بها لتتصل بالوجود كله ، يجعلها تلمس حقيقة الوجود كاملة ، حقيقة هذا الروح العظيم الذي تمنو له الحياة والذي تستمد منه كل حقيقة وجودها . هذا الأدب هو الذي يقيم الحضارات السليمة الصحيحة . وإحياء هذا الأدب يجب أن نلتمسه في ماضينا : في هذا الأمس العظيم الذي يفاخر به الشرق القديم تاريخ الإنسانية جميعاً ، والذي يدعونا إلى أن نقيم عليه حضارة الشرق الجديد .

أترى آن الوقت الذي يقوم فيه شبابنا بهذا العمل المجيد ؟ بذلك أناديه ، فهل بلغت النداء ؟ . . .

الفهرس

صفحة	
٧	تقديم
١٧	الطغاة وحرية القلم
٢٥	ثقافة الأديب
٣٦	اللغة والأدب
٤٤	النثر والشعر
٥٥	علة الشعر
٦٨	فن القصص
٧٩	سبب فتور القصص
٩٧	التأليف المسرحي
١٠٥	الأدب القومي
١٢١	التاريخ والأدب القومي
١٣٣	محاولات في الأدب القومي
١٤٠	إيزيس
١٥٥	راعية هاتور
١٧٠	أفروديت
١٨٤	حكم الهوى
٢٠٠	الشيخ حسن
٢١٢	خاتمة في الأدب والحضارة

١٩٧٨/٢٥٩٨	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٢٢٧-٩	الترقيم الدولي

١/٧٦/٥٢٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

فصول رائدة في الأدب والنقد أحدثت ثورة عارمة في حياة الأدب وشئون الكتابة ، وسجلت الجهود المتصلة التي قام بها أصحاب الأقلام ، ليخرجوا بالأدب من ركوده ويسلكوا به الطريق التي تؤهله ليكون مرآة صادقة لحياة الأمة وتقدمها ، لتتسع آفاقه لتتناول ما استجد من فنون أدبية حديثة .
وستجد في هذه الفصول محاولات رائدة تعد نموذجاً لينسج الأدباء على منوالها .
وشيوخ الأدباء الدكتور محمد حسين هيكل في هذه الفصول يضع الأسس الراسخة لبناء الأدب الحديث حتى يكون أدباً صادقاً قوياً يجمع بين قديم الأدب وحديثه .

